سلسلة لغويات

عبد الجبار بن غربية

lisanarabs.blogspot.com

مكتبة لسان العرب
lisanarabs.blogspot.com

مدخل إلى النحو العرفاني

مكتبة لسان العرب

مسكلياني للنشر

سلسلة لغويّات

يديرها الأستاذ صلاح الدين الشريف

أ. علاء الدين شوقي
lisanarabs.blogspot.com

مدخل إلى النحو العرفاني

(نظرية رونالد لانقاكر "Ronald Langacker")

مكتبة لسان العرب
lisanarabs.blogspot.com
أ. علاء الدين شوقي
lisanarabs.blogspot.com

عبد الجبار بن غربية

مدخل إلى النحو العرفاني

(نظرية رونالد لانقاكر "Ronald Langacker")

مسكيلياني للنشر

كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة

المؤلف : عبد الجبار بن غربية

عنوان الكتاب : مدخل إلى النحو العرفاني

تصميم الغلاف: رؤوف العرفاوي

الإخراج الفني : شوقي العنيزي

الناشر:

كليّة الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة

(وحدة بحث: تجديد التعليم

والدراسات اللسانية في العربية)

مسكيلياني للنشر والتوزيع

شارع 9 أفريل بئر المشارقة1141 زغوان - تونس
الهاتف: 79328731 (216+) أو 546 560 20(216+)
البريد الإلكتروني: anizos55555@yahoo.fr

ر.د.م.ك : 1- 57-881-9973-978

الطبعة الأولى: 2010

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

نحوَ معرفة العرفان

بقلم محمد صلاح الدين الشريف

يتوخّى هذا الكتاب أسلوبا ميسّرا للتعريف بالنحو العرفانيّ، تعريفا موجّها إلى المتعلّمين المبتدئين في اللسانيّات، كتبه أستاذ قديم في اللغة العربيّة كان من أوائل من درس هذا النحو وعرّف بصاحبه لَنْقاكر في الجامعة الفرنسيّة، في فترة لم يكن فيها هذا النحو إلا في بداياته الأولى.

والعرفان في الأصل اسم الحدث من {عرَف، يعرِف} يدلّ على العلم بالشيء أو الإقرار بالمعروف وعدم نكران الجميل. ثمّ استعمله أهل التصوّف لما يكون لهم من معرفة غير آتية عن طريق العقل ولا مثبتة باستدلال وبرهان. فكان من آثار هذا الاصطلاح إثراء العربيّة بالتفريق بين صنفين من المعلومات المختزنة في الذهن.

ولقد اغتنمنا هذا الفرق في أواخر الثمانين من القرن الماضي للتمييز بين نشاطين فكريّين. أوّلهما نظريّة المعرفة المرتبطة بصناعة العلوم. وهي نظريّة ذات أصول عقلانيّة قديمة وذات أبعاد فلسفيّة ومنهجيّة بدأت مع إفلاطون وتطوّرت حديثا مع كانط، وأفرزت فيما أفرزته النظريّات الإبستمولوجيّة المعاصرة، ومناهج حديثة في التفكير العلميّ والمنطقيّ. والثاني اتّجاه فكريّ علميّ لم يستقم آنذاك ولا الآن نظريّة علميّة موحّدة. وهو، وإن كان قائما على خلفيّات فلسفيّة بعضها معهود في نظريّة المعرفة، فهو أقرب إلى أن يكون مشروع بحث في العلوم الطبيعيّة منه إلى أن يكون مشروع نظر في العلم ما هو.

وخلاصة ما به يتميّز هذا الاتّجاه الثاني أنّه ناتج عن تطوّر البيولوجيا، ولا سيّما علم وظائف الأعصاب وتقدّم الباحثين في سبر أغوار الدماغ ، وما

نتج عنه من آمال في فهم الوظائف العليا كالإدراك والذاكرة واللغة وغيرها. وهو ما حدا بعلم النفس السلوكيّ إلى الانحصار، وشجّع على العودة إلى الذهنيّات دون الخشية من مزالق الاستبطان. ولقد صادف هذا التطوّر في النصف من القرن العشرين اكتشاف آفاق جديدة في الحساب الآلي سرعان ما انتهت إلى مفهوم علميّ لم يكن من قبل سوى طموح فلسفيّ وهو 'الذكاء الاصطناعيّ'. فبات من المشروع التفكير في علوم شتّى مهمّتها النظر في معالجة الدماغ للمعلومات خزنا وتحليلا وتأليفا وخلقا، كعلوم الأعصاب وعلم النفس وعلم المنطق والإعلاميّة واللسانيّات. وهي علوم، وإن اختلفت في أصولها الأولى ومناهجها ونظريّاتها وغاياتها، فقد اتّفقت على أنّ الذهن هو مجموعة الوظائف الدماغيّة المعالجة للمعلومات على صورة طبيعيّة، قد تكون حسب المدارس، موافقة أو مخالفة للمعالجة الحاسوبيّة الصناعيّة، إلا أنّها بالنسبة إلى الجميع معالجة مجاوزة للعقل ومناهجه العلميّة من حيث كونها ككلّ الأمور الطبيعيّة كامنة في خصائص اشتغال المادة العضويّة، لا تخضع للوعي، شأنها في ذلك شأن معلومات أخرى بيولوجيّة لكنّها غير ذهنيّة.

إنّ هذا التمييز الجوهريّ بين المعرفة المعقلنة الناتجة عن الحضارة والتفكير الواعي، والعرفان الطبيعيّ المترسّخ في خصائص الدماغ والمجاوز للوعي والإدراك والصالح موضوعا للدراسة العلميّة، هو التمييز المقصود باختيار مصطلح العرفان في مقابل المعرفة، لنقل المقابلات الأجنبيّة بين ((cognition)/(connaissance,knowledge)). وبهذا التمييز يستقرّ في العلم أنّ كلّ معرفة قائمة على عرفان، ولا يقوم العرفان على معرفة. ومعناه أنّ العرفان أشمل.

هذا وكثير من العرب، وإن لم يسبقونا في الوضع، سبقونا في نشر التعبير عن هذا المفهوم الحديث بمصطلح المعرفة. وقد بيّنّا أنّ الأمر لا يتعلّق بالمعرفة، وإن كان شاملا لها. والحكمة في معالجة المصطلحات ليست بالتوحيد ومجرّد الاتّفاق، بل باختيار الأصلح وترك الاختيار لمصفاة التاريخ. وفي نظرنا أنّ الاشتراك اللفظي في كلمة 'العرفان' بين العلم الحديث واللاعلم التصوّفي، أقلّ خطورة على تطوّر العلم من الاشتراك اللفظي في كلمة 'المعرفة'، لأهمّيّة التمييز بين ما هو العلم وما هو موضوع العلم، أي ما هو من الثقافي وما هو من الطبيعيّ.

وعلى هذا الأساس اختار صاحب هذا الكتاب عبارة 'العرفانيّ' للتعريف باتّجاه لسانيّ نفسيّ يقوم على اعتبار النحو مجموعة من العمليّات الذهنيّة التصوّريّة المعالجة للمعلومات. وهو اتّجاه قام أساسا على مخالفته لاتّجاه عرفانيّ أوّل مثّله النحو التوليديّ في صيغته الشمسكيّة الأولى المتّصلة شديد الاتّصال بالتصوّرات الفيزيائيّة القريبة من مفهوم الذكاء الاصطناعي. ورغم ابتعاد الشمسكيين عن هذه التصوّرات منذ السبعينيّات وفي الثمانينيّات بالخصوص، فإنّ الشرخ الذي أحدثه التوليديّون الدلاليّون بانفصالهم عن النظريّة المعياريّة ازداد اتّساعا بظهور نظريّات عرفانيّة أخرى لا تقوم على مفهوم مركزيّة التركيب الإعرابيّ في الربط بين اللفظ والمعنى، بل تقوم على اعتبار الدلالة، أو التصوّرات والعمليّات الذهنيّة، أساس الأبنية اللفظية سواء أكانت صوتيّة أو صرفيّة معجميّة أم كانت إعرابيّة أو تداوليّة. ومنها نظريّة لنقاكر المعروضة هنا على وجه تعليميّ واضح يغنينا عن مزيد التعريف والتفصيل.

ما يحسن تنبيه القارئ المبتدئ إليه أنّ الأمر لا يتعلّق باتّجاه لسانيّ جديد مجاوز لقديم، ولا بما هو أكثر تطوّرا أو أقلّ قيمة، ولا بنظريّة لسانيّة أحسن، ولا بنظريّة أسوء. إنّما الأمر أنّ اللغة لتعقّدها وصعوبات حصرها تحتاج إلى مقاربات مختلفة. وهي مقاربات وإن ألحّ على وجوه اختلافها، فكثيرا ما انتهت إلى ترسيخ أفكار مشتركة بينها، تعبّر أكثر من غيرها على تقدّم الإنسانيّة في فهم اللغة.

يثير تعقّد الألسنة واختلافها، وغموض علاقتها بالفكر والمجتمع، وغير ذلك من القضايا، أسئلة عدة، منها أيّهما أجدى للوصول إلى درك اللغة ما هي؟ أهو الأخذ بها عن طريق المعنى، أم القبض عليها بمسك تلابيب لفظها؟ وهل صورة اللفظ منبئة بصورة المعنى؟ أم بناء المعنى مجرّد مواز لبناء اللفظ؟ وهل اللغة منظومة ذهنيّة مستقلّة بذاتها؟ أم الذهن موحّد الأجزاء والتصوّرات؟ هل الألسنة تحقّقات لملكة لغويّة واحدة؟ أم لا حقيقة إلا للكلام، ولا اتّفاق بين الألسن إلا لصدورها عن أذهان قائمة على اشتغال صنف واحد من الأدمغة.

إذا طرحت مثل هذه الأسئلة وغيرها ممّا لا يكفي المجال لذكره، وتتبّعت مستلزمات السؤال ومقتضياته في معالجة الظواهر، رأيت أنّ

النظريات لا تختلف من جهة الصدق بل تختلف في ما ينتظر منها ومن نجاعتها في الكشف عن أسرار الطبيعة. وهذا أمر لا يكون أوّله إلا بالحدس والاعتقاد. ثمّ بالنتائج يقع الفرز والفصل. لكنّ النظريّات والمناويل المختلفة كثيرا ما تسقط وتندثر تاركة للنظريّات البديلة ثمارها، وما جنته من البحث.

فالعبرة عند القراءة باستعمال العقل الناقد، والحرص على فهم النتائج، والتيقّظ إلى المقارنة لاستخلاص الثوابت المفيدة في فهم اللغة.

وسيرى القارئ أنّ هذا المدخل الذي هو في أصله دروس كتاب لا يدّعي الحقيقة المطلقة بل يدعو المتعلّمين إلى الانتباه إلى جوانب من اللغة مفيدة تحتاج إلى مزيد النظر.

تمهيد

لم أكن أفكر في تأليف كتاب يكون مدخلا إلى النحو العرفاني باللغة العربية عندما طلبت مني الزميلة زكية الدحماني، رئيسة قسم العربيّة بالمعهد العالي للعلوم الإنسانيّة بتونس، لأوّل مرّة منذ ست سنوات على الأقلّ، تقديم النحو العرفاني لطلبة الأستاذية. فقبلت دعوتها وتواصل ذلك الدّرس حتى سنة 2006 بفضل حرص الزميلين محمد البحري وتوفيق العلوي اللذين توليا رئاسة القسم بعدها على تعريف طلبة المعهد بالمقاربات العرفانية وخاصّة بنحو رونالد لانقاكر "RonaldLangacker".

ثمّ بدأت فكرة تأليف هذا الكتاب تراودني منذ ذلك الوقت وألحّ علي تلك الفكرة وشجّعني الزميل شكري المبخوت، مشكورا، على تنفيذها فاستجبت وكان له ما أراد.

و ها أنا أقدم على تنفيذ هذا المشروع لأضع بين يدي طلبة أقسام العربيّة في مختلف الكليّات والمعاهد في تونس وفي كلّ البلاد العربيّة مؤلفا باللغة العربيّة يقدّم المقاربة العرفانيّة لمختلف الظواهر اللغويّة والظواهر النحويّة التركيبيّة بصفة خاصّة.

أضف إلى ذلك أنّ المحاضرات والدّروس التي مكّنني من تقديمها الزميلان عز الدّين المجدوب ورفيق بن حمّودة في كلية الآداب بسوسة أشعرتني بتعطش عدد لا يستهان به من طلبة قسمي العربيّة والفرنسيّة إلى هذه المقاربات وبرغبة بعض الزملاء من مختلف الأقسام في اكتشافها والإطلاع على ما جاء فيها.

ولا يسعني إلا أن أعترف في ختام هذا التمهيد بأنّ هذا المؤلّف لم يكن ليتجاوز مستوى المشروع لولا فضل الزملاء المذكورين أعلاه ولولا تساؤلات

كلّ من حضر دروسي ومحاضراتي من زملاء وطلبة في تونس وفي سوسة والمناقشات التي تلتها.

وفي الختام، أرجو أن يحظى هذا المؤلف باهتمام القرّاء والدّارسين وأن يساهم في تعريفهم بالمفاهيم المؤسّسة لهذا النّوع من المقاربات.

المقدّمة

لقد قادتنا طبيعة الدّراسات العرفانية والغاية التي رسمها النحو العرفاني لنفسه باعتباره نظريّة دلالية شاملة إلى أن نبدأ هذا الكتاب بمحاولة التعريف باللسانيات الحديثة وبأهمّ الإتجاهات التي آلت إليها دراسة اللغة وملكة اللغة، قبل أن ننتقل إلى استعراض أهمّ المراحل التي مرّ بها علم الدّلالة.

وبعد هذا التقديم الذي حاولنا فيه قدر الإمكان تعريف القارئ بأهمّ التيّارات والإتّجاهات، سعينا إلى وضع النحو العرفاني في إطاره التاريخي وعرض مواقف أنصاره من القضايا اللسانيّة الأساسيّة التي كانت محلّ نقاش ونزاع بين الدّارسين، ومن أهمّ النظريات، ما كان منها سائدا منذ الستينات وخاصّة منها ما ظلّ مهيمنا حتى في الثمانينات.

وأمكن لنا بعد ذلك كلّه أن نقدّم تصوّر العرفانيين الخاصّ للدّلالة وعلاقتها بالتركيب، والأسس العرفانيّة التي قام عليها نحو لانقاكر، فالفرضيات والمناويل العرفانية التي سمحت له باقتراح تصنيف جديد للمقولات اللغويّة مناسب للمقولات الدّلاليّة التصوّرية.

وخلصنا بعد ذلك إلى أن نعرّف القارئ بالعمليّات الدّلاليّة التي اعتمدها لانقاكر في التمييز بين الإسم والمركب الإسمي، ثمّ بين الفعل والجملة الفعليّة، وأخيرا بين الجملة البسيطة والجملة المركّبة من ناحية، وبين المركّب الإسنادي الرّئيسي والمركّب الإسنادي الفرعي.

واقترحنا في آخر هذا المؤلف نموذجا تطبيقيّا أوردناه في صيغة دراسة وجيزة سعينا فيها إلى التمييز بين العطف والتعليق انطلاقا من وجهة نظر عرفانية.

1. موضوع الدّراسات اللسانيّة

اتفق الدّارسون على تعريف اللّسانيات بأنّها الدّراسة العلميّة لملكة اللغة Le langage، تلك الملكة التي تمثل وسيلة التواصل بين الآدميين عن طريق الأصوات وباستخدام ما اتفق على تسميته بالتقطيع المزدوج. إلا أنّه وإن كان المنطلق هو دراسة ما يميّز ملكة اللغة فإنّ الدّراسة اللسانيّة سرعان ما تحوّلت إلى دراسة للغات الطبيعيّة الخاصّة. وهكذا ظهر تيّاران مختلفان متمايزان، أصبحت اللسانيات مع أحدهما وصفا للغات وسعيا لإبراز ما يميّز كلّ لغة عن اللغات الأخرى باعتبار أنّ كلّ لغة عبارة عن نظام خاصّ من العلامات Un système de signes، بينما صارت مع التيّار الآخر دراسة لكيفيّة اشتغال ملكة اللغة Le fonctionnement du langage باعتبار أنّ اللغات المختلفة إنّما تمثل حالات خاصّة لتجلّي ملكة اللغة المشتركة بين الآدميين، وأنّ الفوارق بينها لا تعدو أن تكون فوارق سطحيّة. واحتجّ أصحاب هذا التيّار لتدعيم موقفهم بأنّ الدّراسة المتعمّقة لمختلف اللغات تبرز عددا كبيرا من الظواهر والعناصر المشتركة وتشهد بوجود ملكة لغويّة مشتركة، مادامت هناك قائمة محدودة من القواعد ومن الوحدات والسّمات الدّلاليّة والصّوتيّة تختار منها كلّ لغة مجموعة من العناصر تؤلّف بينها.

إلا أنّ أنصار هذا التيار الثاني سيختلفون بشأن ما تشترك فيه كلّ اللغات وما يجعل منها جميعا تجليا لملكة اللغة التي مني بها الآدميون. فالبعض منهم انتهى إلى اعتبار أنّ اللغة نظام من القواعد Un système de règles وهيمنوا على الدّراسات اللغويّة ابتداء من الستينات، ثمّ ظهر ابتداء من الثمانينات تيّار جديد رأى أنصاره أنّ ما هو مشترك بين اللغات إنّما يتمثل في العمليات الذهنيّة العرفانيّة المؤسّسة لكلّ الأبنية اللغويّة واعتبروا أنّ اللغة مسترسل من الأبنية الرّمزيّة Un continuum de constructions symboliques.

1. اللغة نظام من العلامات

لننطلق من العلامة: جَبَل. هذه العلامة لها دال يتكوّن من عدد من الوحدات المنطوقة (الصوتيّة) نمثلها بالوحدات التالية: [ج]، [فتحة]، [ب]، [فتحة]، [ل]، التي نسمّيها صواتم phonèmes. وستهتمّ الإختصاصات اللسانيّة المتنوّعة بالمستويات المختلفة التي تحتاج إليها وتستلزمها دراسة هذه العلامة.

فعلم الأصوات يأخذ بعين الإعتبار كلّ الفوارق التي يمكن إدراكها إدراكا حسيّا عند إنجاز هذه الصّواتم. إنّه يدرس الجانب المادّي لأصوات اللغة في كلّ تجلّياتها عند عمليات الإنجاز في الكلام. وبذلك يدرس الجانب الفيزيولوجي للأصوات باعتبار طريقة إنجازها وباعتبار الأعضاء التي تساهم في تحقيقها في ما يسمّى بعلم الأصوات النطقي La phonétique articulatoire، كما يدرس الجانب الفيزيائي للأصوات باعتبارها ذبذبات des vibrations تنتقل من فم المتكلم حتّى تبلغ طبلة أذن السّامع في ما يعرف بعلم الأصوات السّمعي La phonétique acoustique.

أمّا علم وظائف الأصوات La phonologie فإنّه يقوم بتقطيع الدّال إلى صواتم. إنّه يأخذ المدلول بعين الإعتبار ويدرس الدّال دون فصله عن المدلول كما يفعل علم الأصوات، وتكمن بذلك أهميّة الصّوت الأساسيّة في علم وظائف الأصوات في قيمته التقابليّة. فالمقابلة بين النطق المصري (أريب) والنطق المغربي (قريب) لنفس المفردة لها أهمّيتها بالنّسبة إلى عالم الأصوات، إلا أنّها لا قيمة لها في نظر علم وظائف الأصوات، لأنّها غير مفيدة ما دامت مقابلة لا تأثير يذكر لها على المعنى، مقابلة غير تمييزيّة une opposition non distinctive بالنّسبة إليه.

ولا بدّ من الإشارة قبل الإنتقال إلى علم الصّرف إلى وجود ظواهر تقع على الحدود التي اعتبرها بعض الدّارسين حدودا فاصلة بينه وبين علم وظائف الأصوات، في ميدان يشمل مجموعة من الظواهر التي تثبت أنّ الفصل بين مختلف المستويات في الدّراسة اللغويّة فصل يقوم على نوع من الإعتباط. ويمكننا أن نذكر من هذه الظواهر تلك التي ترجع إلى تجاور الوحدات في مستوى المركّبات (من نوع ما يحدث في العبارتين الفرنسيتين "grand champ" و"grand homme")، أو تلك التي نلاحظها عند تداول الحركات i وa وu في تصريف بعض الأفعال الإنجليزيّة (من نوع "sing" و"sang" و"sung").

فالعلامات يقع التعريف بها على أساس التقابل بينها، ومجموعة المقابلات تمثل نظاما في هذا المستوى أو ذاك. وفي النهاية تكون اللغة عبارة عن نظام متكوّن من مجموعة من الأنظمة un système de systèmes.

أمّا علم الصّرف فإنّه يدرس التغييرات التي تطرأ على الدّال حسب السّياقات التي يرد فيها، في حين يهتمّ علم التركيب la syntaxe، أو قل علم النحو في معناه الضيّق، بائتلاف الدوال وتعاملها في مستوى الخطاب.

ولا بأس من التذكير في هذا السّياق بأنّ الدّراسات اللغويّة التقليديّة أدرجت دراسة بنية الكلمة (علم الصرف والتصريف) ودراسة بنية الجملة (علم التركيب) ضمن ما عرف بالنحو la grammaire، وشاعت أن يقع الإهتمام بالمفردات في مستوى المعجم والدّلالة. والملاحظ أنّ أغلب النظريات اللسانيّة الحديثة لم تغيّر أو قل لم تسع إلى تغيير هذا الموقف. المهمّ في رأينا أنّ الإختصاصات اللغويّة التي استعرضناها إلى حدّ الآن اهتمّت أساسا بالجانب المادّي الملموس للعلامات وبالصيغة والبنية، وإن هي التجأت إلى المعنى في بعض الأحيان فلأنّها اضطرّت إلى ذلك إذ وجدت نفسها في مأزق لا مخرج منه. كلّ ذلك لأنّها فصلت بين الصيغة والمعنى لأسباب لا يسمح هذا المجال لعرضها. إذن لقد وقع الاهتمام بدراسة المعنى بمعزل عن باقي المستويات، لأنّ العلامة تقيم علاقة بين دال ومدلول. ومجموع المدلولات في لغة ما يمثل معجمها، الذي يعتبر موضوع علم المعاجم la lexicographie، العلم الذي يعتني أصحابه بتأليف المعاجم. أمّا الدّراسة العلميّة لمفردات اللغة فتمثل موضوع علم المعجميّة la lexicologie. والملاحظ أنّ بعض الباحثين ميّزوا بين المدلول le signifié أو القيمة المعنويّة la signification والمعنى le sens، واعتبروا أنّ المعنى هو تلك الدّلالة الخاصّة التي يكتسبها المدلول المجرّد، الخارج عن كلّ سياق، في سياق خاصّ فريد. واعتبروا تبعا لذلك أنّ علم الدّلالة la sémantique هو الدّراسة العلميّة للمعاني اللغويّة، أي للمعاني التي يكتسبها مدلول ما في سياقات متنوّعة.

2. اللغة نظام من القواعد

كلّ لغة عبارة عن نظام من القواعد (انظر على سبيل المثال المؤلّفات الأولى التي نشرها نوم تشومسكي Noam Chomsky خلال العقدين الأول والثاني من القرن العشرين). فالنحو التوليدي التحويلي، على الأقلّ في بداياته، يشتمل على ثلاثة أقسام: قسم سياقي وقسم تحويلي وقسم تأويلي.

أ. القسم السّياقي

وهو القسم الذي يعتبر منطلقا لكل العمليات. فالجملة يجب تحليلها إلى مركب اسمي (الإسم وكل ما يحلق حوله) مسند إليه ومركب فعلي مسند (الفعل والمركب الإسمي المفعول به). أمّا المسند إليه فيقع تحليله بدوره إلى أداة تعريف أو تنكير واسم فنعت أو مجموعة من النعوت، أمّا المسند فيقع تحليله إلى الفعل والمفعول به المتعلق به.

Phrase ------> GN (le nom et ses satellites) + GV (le prédicat)
GN ----------> Dét + Nom (+adjectifs et ou relatives)
GV ----------> V + Aux + GN

مثال:

"Le concierge a ouvert les fenêtres."
(le concierge : masc + sing) + (ouvrir + pc) + (le fenêtre : fém+pl)

ب. القسم التحويلي:

هذا القسم يخضع المتوالية السّابقة إلى مجموعة من العمليات التحويليّة الإجباريّة فيحوّل مثلا (ouvrir + passé composé) إلى (a ouvert)، و (le fenêtre : féminin + pluriel) إلى (les fenêtres).

وهكذا تسمح العمليات التوليديّة السّياقيّة والتحويلات الإجباريّة بإنتاج الجملة النواة التي تكون إخباريّة غير منفيّة ويكون فعلها مبنيًا للمعلوم. أمّا التحويلات الإختياريّة فهي التي تسمح بتوليد الجملة المنفيّة أو الإستفهاميّة أو تلك التي فعلها مبني للمجهول انطلاقا من الجملة النواة.

ج. القسم التأويلي:

و هو الذي يسمح بإعطاء الجملة مظهرها الصّوتي وصيغتها النّهائيّة (المكوّن الفونولوجي) كما يمكّن من تحديد دلالتها (المكوّن الدّلالي).

3. اللغة نظام من الرّموز

مع ظهور المقاربات العرفانية لم يعد مركز الإهتمام كائنا في تصوّرنا للنحو، وإنّما احتلت العمليات الذهنيّة المؤسّسة لمختلف التراكيب النحويّة

الصّدارة وأصبحت تمثل مدار اهتمام اللغويين. ذلك أنّه ما دامت هذه العمليات الذهنيّة عمليات منتظمة لا تخصّ اللغة وحدها فإنّ صيغ القواعد لم تعد لها أهميّة تذكر، ولذلك وقعت إزاحتها وحلّ محلّها التمييز بين مجموعة من العناصر والتمثلات من ناحية، والآليات الذهنيّة العرفانية التي يستخدمها كل من المتكلم والسّامع في معالجة تلك التمثلات من ناحية أخرى.

أضف إلى ذلك إنّ إعادة الإعتبار للمعنى والدّلالة ووضعهما في المنزلة الأولى سيؤدّي إلى النظر إلى النحو لا باعتباره مجموعة من الآليات التي تسمح بإنتاج تراكيب سليمة des structures grammaticales، وإنّما على أنّه قائمة من الأبنية الإصطلاحيّة التي تسمح بتصنيف المعاني والدّلالات، وبذلك سيصبح النحو مجرّد دراسة للعلاقات التي تربط بين متتاليات صوتيّة ودلالات.

فاللغة عند العرفانيين وعند رونالد لانقاكر R.Langacker بصفة خاصّة مسترسل من الأبنية الرّمزية، وكل الوحدات اللغويّة، ما كان منها معجميًا أو صرفيًا أو تركيبيًا، وحدات رمزيّة تربط بين قطب دلالي وقطب فونولوجي ولا يمكن الفصل بين مختلف مستوياتها.

أمّا النحو فهو قائمة منظمة من الأبنية اللغويّة التي تواضع عليها متكلمو اللغة والتي تمثل المعرفة المشتركة التي لكلّ منهم بشأن إصطلاح لغوي قائم متفق عليه.

وبذلك أصبحت غاية الدّراسات اللسانيّة متمثلة في السّعي إلى إدراك الوظيفة الرّمزيّة للغة، أي كيفيّة صياغة التمثلات صياغة رمزيّة بالالتجاء إلى متتاليات صوتيّة.

2. نشأة علم الدّلالة وتطوره في اللسانيات الحديثة[1]

1. من المعنى إلى علم الدّلالة

لا أحد يمكنه أن ينكر أنّ المعنى معطى مباشر وأساسي من معطيات تجربة الإنسان اليوميّة في تعامله مع ملكة اللغة واستعماله لها في كل

1- انظر كتاب Irène Tamba- Mecz الذي نشر سنة 1988 ثم سنة 1994 تحت عنوان La sémantique.

أنشطته اليوميّة. ولعلّ ذلك ما يجعلنا نستغرب الظهور المتأخر لعلم الدّلالة من ناحية، وكون هذا العلم منذ ظهوره وإلى يوم النّاس هذا كان ولا يزال محلّ نزاع وخلاف بين الباحثين.

لا شكّ في أنّ المعنى حظي باهتمام أغلب الباحثين والدّارسين في مختلف العصور والفترات، وذلك في إطار علوم ومعارف متنوّعة نذكر منها على الأقلّ الفلسفة وعلوم الدّين وعلم البلاغة وغير ذلك من ميادين البحث والمعرفة. إلا أنّنا نلاحظ أنّ دراسة المعنى لم تكن موضوع علم مستقلّ، خاصّة في الدّراسات الغربيّة. ولعلّ أوّل إشارة محتشمة إلى ضرورة دراسة المعنى دراسة مستقلة، تمثل في اعتبارنا منعرجا حاسما، هي تلك التي نجدها سنة 1883 في مقال للباحث "Michel Bréal"[1] الذي اعتبر أنّ المعنى، شأنه في ذلك شأن الأصوات، يمثل فرعا من فروع الدّراسة اللغويّة. ويكون موضوع علم الدّلالة بهذا الإعتبار وصف الدّلالات الخاصّة باللغات وتنظيمها تنظيما نظريّا. ويضيف Bréal إلى ذلك مؤكّدا أنّ المتكلم لا دخل له في ذلك ولا تأثير له في تطوّر اللغة ولا في ملكة اللغة، ما دامت وحدات اللغة بصيغتها ومعانيها تعيش ككلّ الكائنات الحيّة حياتها وتخضع لقوانين خاصّة بها تحدّد مسارها وتطوّرها.

2. علم الدّلالة أو علوم الدّلالة

إذا تركنا جانبا وإن بصفة مؤقتة مختلف "النظريات" الدّلاليّة التي تنتمي إلى مناويل لغويّة معيّنة، تبيّن لنا أنّه توجد على الأقلّ ثلاث تصوّرات مختلفة لعلم الدّلالة عند اللسانيين الغربيين.

أ. يعرّف أصحاب التصوّر الأوّل علم الدّلالة بأنّه العلم الذي موضوعه "دراسة المعنى"[2]. مثل هذا التعريف يظلّ عاما جدّا ويبدو لنا أنّه قائم على

1- انظر المقال الذي عنوانه " Les lois intellectuelles du langage : fragment de sémantique " والذي نشر في :

Annales de l'Association pour l'encouragement des études grecques en France, 1883, XVII, p.132-142.

2- انظر كتاب J. Lyons الذي ترجم إلى الفرنسيّة مرّة أولى تحت عنوان *Eléments de sémantique* ونشرته دار Larousse بباريس سنة 1977، ثم مرّة ثانية تحت عنوان Sémantique linguistique ونشرته نفس الدّار بباريس سنة 1978 (انظر ص9).

تصوّر غير دقيق للمعنى، على تصوّر ليس له أيّ صبغة علميّة، على تصوّر جماهيري لموضوع علم الدّلالة[1].

ب. أمّا التعريف الذي يقترحه أنصار التصور الثاني فإنّه يبدو أكثر دقة أو أقلّ تعميما وتعمية من الأول، إذ يجعل أصحابه من "دراسة معاني المفردات" موضوعا لعلم الدّلالة[2]. إلا أنّه يحصر الدّلالة في معاني المفردات والوحدات التي اصطلح على أنّها وحدات معجميّة[3]، باعتبار أنّها الوحدات التي يقوم عليها المعنى في مختلف اللغات. ويبدو لنا أنّ مثل هذا التصوّر للدّلالة بدائي في غاية السّذاجة لأنّ أنصاره يتصوّرون أنّ الإنسان يتكلم ويعبّر عن كل مقاصده بالاستناد إلى قائمة من المفردات.

ج. النوّع الثالث من التعريفات لعلم الدّلالة يجعل منه علما لا يقتصر على دراسة المعاني التصوّرية التي يسندها مؤلفو المعاجم إلى المفردات، وإنّما يشمل كذلك معاني المقولات النحويّة الصرفية والمعاني القائمة على أسس منطقية، وكذلك ما كان منها تداوليا راجعا إلى المقام[4]. هذا التصوّر الأخير يشمل إذن كل الظواهر المعنويّة، ما كان منها متصلا بالنظام وما كان منها راجعا إلى الإنجاز واستعمال اللغة.

المهمّ أنّ كل التصوّرات لا تتفق إلا في نقطة واحدة هي تعريف علم الدّلالة بأنّه دراسة للمعنى، إلا أنّ كلا منها ينظر إلى المعنى من زاوية مخالفة للتي للآخر. فليس هناك أيّ اتفاق بين أصحاب هذه التصوّرات بشأن موضوع هذا العلم ولا بخصوص المنهج الذي يجب توخيه لتحقيق الغاية المنشودة. فبعضهم استخدم مقاييس ذات طبيعة تاريخيّة ونفسيّة مثل Bréal، في حين أنّ البعض الآخر تبنى التيار البنيوي الذي قصر اهتمامه على المعاني في فترة

1- مثل هذا التصور نجده في كتاب مشهور نشره C.K.Ogden وI.A. Richards سنة 1923 تحت عنوان *The Meaning of Meaning*.

2- انظر مثلا P.Guiraud (1955) في كتابه الذي عنوانه La Sémantique، ص 5.

3- وذاك ما فعله Georges Mounin في كتابه Clefs pour la linguistique الذي نشرته دار Seghers بباريس سنة 1972.

4- انظر مثلا كتاب F.R.Palmer الذي عنوانه Semantics والذي نشر مرة أولى سنة 1976، ثم في طبعة ثانية سنة 1981.

محدّدة من حياة اللغة واعتنى بالبحث عن القواعد التي تحكم ما يربط بين العلاقات الدّلالية، كما فعل Palmer وMounin.

لا شيء يجمع إذن بين مختلف الإختيارات، ولعلّ الأفضل أن نحاول النظر في مختلف الفترات التاريخيّة التي مرّت بها دراسة الدّلالة.

3. علم الدّلالة عبر التاريخ

يمكن للناظر في تاريخ علم الدّلالة أن يلاحظ أنّه وجدت ثلاث تيارات متعاقبة قادت علم الدّلالة في اتجاهات مختلفة متقابلة. أوّلها تيّار الدّراسات اللغويّة المقارنة La linguistique comparée (historique) التي اهتمّت بالتطوّر والتغيّر وقامت على فكرة مؤسّسة هي فكرة النشوء والارتقاء، وتلاه تيّار اللسانيات البنيوية La linguistique structurale التي كان همّها الرئيسي بنيويّا وظائفيّا لا يعتني بدراسة الظواهر اللغويّة إلا في فترة محدودة من تاريخها. أمّا التيّار الثالث فهو ذلك الذي سعى فيه دارسو اللغة باقتراح مناويل لسانية La modélisation des langues.

ويبدو من الواضح أنّ هذه التيارات جعلت تاريخ علم الدلالة تاريخا تحدّده ثلاث فترات كبرى:

1- فترة النشوء والارتقاء التي سادت فيها الدّراسات اللغويّة المقارنة.

2- ثمّ فترة هجينة تميّزت بدراسة الدّلالات المعجميّة دراسة تاريخيّة بنيويّة في الآن نفسه.

3- وأخيرا فترة النظريات الشكلانيّة التي ظهر معها علم دلالة قائم على الإهتمام بالمعنى في مستوى الجملة وفي مستوى الخطاب.

1.3. فترة النشوء والارتقاء (أو تاريخ معاني المفردات)

ظهر في هذه الفترة التي يمكننا أن نقول إنّها امتدّت من سنة 1883 إلى سنة 1931[1] مفهوم جديد هو مفهوم النشوء والارتقاء عند كلّ من Spencer وDarwin خلال السّنوات 1857 و1859، وتبع ذلك ظهور عدّة تطبيقات لهذا المفهوم أثرت في الدّراسات العلميّة وخاصّة منها علم الأحياء la biologie،

1- لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه التواريخ تظلّ تقريبيّة إلى حدّ ما.

وأدّت إلى تعميمه وتطبيقه على مختلف الدّراسات العلميّة وتبني الدّراسات اللغويّة له، إذ وقع تقريب مفهوم بلاغي منطقي قديم هو مفهوم تغيّر المعنى من مفهوم جديد، هو مفهوم التطوّر. وبذلك أصبح موضوع الدّراسة اللغويّة في هذه الفترة محصورا على دراسة تطوّر الدّلالة في اللغات واعتبار أنّ هذا التطوّر تحكمه قوانين عامّة يمكن استخلاصها انطلاقا من مختلف الاستعلامات عبر التاريخ.

وبذلك وقع الانتقال من تصوّر منطقي سكوني statique للمعنى اللغوي إلى تصوّر حيوي dynamique متطوّر، ومن الإهتمام بالأصل المطلق للمعنى إلى الإهتمام بالتغيّرات المتعاقبة عليه عبر التاريخ، ومن مفهوم القاعدة المناسب للنحو العام وللمنطق التقليدي إلى مفهوم القانون والعلاقة الثابتة التي يمكن اكتشافها انطلاقا من دراسة مجموعة من الظواهر. إلا أنّ كلّ ذلك وقع دون أيّ تساؤل حول طبيعة المعاني والدّلالات، ودون أيّ تساؤل حول الأساس الذي تقوم عليها المعاني، إن كانت المفردات أو الجمل هي التي تمثل ذلك بالأساس.

إلا أنّه لا بدّ من الإعتراف، رغم كل ذلك، بأنّ الدّراسات الدّلاليّة في هذه الفترة سمحت بإثارة قضايا هامّة مثل القضايا المتعلّقة بتعدّد المعاني la polysémie والترادف la synonymie وتأثير معاني المفردات في بعضها البعض تأثيرا مرجعه ورودها في نفس السّياق وما ينجم عنه من تفاعل بينها.

أضف إلى ذلك أنّهم اهتمّوا بظواهر معنويّة مرجعها وجود الوحدات المعنويّة في فترة محدّدة، أو تطوّرها عبر مختلف الفترات التي تمرّ بها.

المهمّ بالنّسبة إلينا من الناحية النظريّة أنّه تولد عن هذه الدّراسات التي قامت أساسا على مفهوم التطوّر تياران لم يكن بوسع الدّراسات الدّلاليّة اجتنابهما، وهما التيّار الذي مثلته العلوم الطبيعيّة، والتيّار الذي مثلته الدّراسات التاريخيّة.

أمّا التيّار الأوّل فهو ذلك التيّار الذي اعتنى بدراسة الموجودات الحيّة والذي سيطر عليه مفهوم التحوّل الدارويني، والذي أدّى بالنسبة إلينا إلى إعتبار أنّ حياة المفردات ومعانيها لها، شأنها في ذلك شأن كلّ الكائنات الأخرى، حياة تحكمها قوانين وأسباب داخليّة خاصّة بها.

وأمّا التيّار الثاني فهو ذلك التيّار الذي جعل من أفعال الإنسان وآثاره مركزا لاهتماماته، وتولدت عنه دراسات لغويّة تقوم على المقارنة بين اللغات الهندوأوروبيّة التي يؤمن أصحابها بأنّ المفردات ومعانيها إنّما تحكمها قوانين وأسباب خارجيّة عنها، الأمر الذي أدّى إلى ربط الدّراسات الدّلاليّة بالتاريخ وبالعلوم الإجتماعيّة.

2.3. الفترة الهجينة (أو فترة التأريخ لمعاني المفردات وتحديد نظام المعجم)

نعتنا هذه الفترة بأنّها فترة هجينة لأنّه تعايشت فيها رؤيتان للدّلالة متقابلتان: رؤية قائمة على مفهوم التطوّر الذي هيمن على دراسات الفترة السّابقة، ورؤية أعطت الأولويّة لدراسة الظاهرة اللغويّة في فترة معيّنة محدودة في التاريخ، ومثلت تواصلا لما جاء في كتاب Ferdinand de Saussure الذي عنوانه Cours de linguistique générale والذي نشر سنة 1916[1] .

وستشهد هذه الفترة تغيّرا في الرؤية وفي وجهة النظر يمثل قلبا للأمور رأسا على عقب، وذلك راجع إلى الغاية الجديدة التي رسمت للدراسات اللسانية والمتمثلة تحديد معالم النظام une finalité systématique والتي ستتحوّل شيئا فشيئا إلى غاية بنيوية تحت تأثير منطلقات دي سوسير التي اعتبرت اللغة نظاما لا يخضع إلا إلى قوانينه الداخلية.

و هكذا فبعد أن كان المعنى يسم المفردات نفسها وتآلفها فيما بينها وإن كان مرجعها وغايتها موجودين في النشاط الفكري للإنسان، سيصبح المعنى رهين علاقات داخلية في النظام تربط بين مختلف العناصر المكوّنة له. وسيقيم الباحثون مقابلة بين القيمة المعنوية la signification (التي أطلقوا عليها في بعض الأحيان الأخرى مصطلح la dénotation) والعلاقة بين المفردة ومفهوم الشيء وحتى الشيء نفسه، وبين المعنى le sens أو مجموعة القيم المعنوية التي تحدّد الموقع الذي تحتله كل وحدة لغوية داخل شبكة من العلاقات.

1- لاحظ وجود التيارين في كتاب Ullmann الذي نشر سنة 1951 تحت عنوان The principles of Semantics وفي كتاب P.Guiraud الذي عنوانه La Sémantique والذي نشره سنة 1955، وخصص فيه الفصلين الثالث والرابع لتطور المعنى وأسبابه، والفصلين الخامس والسّادس للمقاربات البنيوية للمعنى.

ومع ذلك فإن القطيعة بين التيار التاريخي والتيار البنيوي الوظائفي لن تكون قطيعة تامّة وإنما سيكون للمفردة معنى علائقي مرجعه النظام الذي تنتمي إليه، بالإضافة إلى كونها صيغة مستقلة دالة تمثل مفهوما. وسنشهد بذلك نشأة مقاربة سكونيّة للمعنى لن تدخل الضيم على المقاربة التاريخية التي ستظل موجودة في هذه الفترة.

وستكون لنشأة هذا التيار البنيوي فتطوّره عدّة تبعات تخصّ علم الدلالة الذي يهمنا في هذا القسم.

1. فمفهوم المعجم le lexique، أي مجموعة الوحدات المعجمية التي تكوّن نظاما، سيزيح مفهوم مفردات اللغة le vocabulaire، باعتبارها قائمة من المفردات، ويحل محله بصفة نهائيّة. وسيستعمل مصطلح المعجمية la lexicologie[1] للإشارة إلى دراسة العلاقات بين المعاني المتواجدة في نفس الفترة، ليبقى مصطلح علم الدلالة la sémantique خاصا بدراسة تاريخ المفردات.

2. وستكون اختلافات كثيرة داخل التيار البنيوي، ولعلّ أهمّها الانشقاق الذي حدث بين من سيرى في المعجم مجموعة من الأبنية أو قل الحقول المختلفة المستقلة، ومن سيؤمن بضرورة إخضاع المعجم إلى تنظيم بنيوي عام.

أضف إلى ذلك أنّهم اختلفوا حتى داخل كل من الخيارين السّابقين بين من يؤمن بوجود أبنية معجميّة مغلقة لا تحكمها إلا قواعد استعمالاتها المختلفة، ومن اعتبر أنّ الأبنية المعجمية مفتوحة لأنّها مرتبطة ارتباطا عضويّا متينا لا سبيل إلى التغافل عنه بأبنية نفسيّة اجتماعيّة.

3. نقطة اختلاف أخرى لا يمكننا ألا نشير إليها، وهي تلك التي تتعلق بطريقة تشكيل الأبنية المعجمية. فلقد سعى بعضهم إلى ضبط علاقات دلاليّة بنيويّة مجرّدة تشترك فيها كل اللغات، بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّه لا يمكن تحديد الأبنية وضبطها إلا انطلاقا من ملاحظة العلاقات الكائنة بين

1- لاحظ أن Saussure كان أول من استعمل مصطلح lexicologie بهذا المعنى (انظر "دروس في اللسانيات العامة"، ص187-188).

وحدات معجميّة في لغة معيّنة، ولذلك فلا بدّ من تحديد متن وضبط مجموعة من المقاييس الاختباريّة واستقصاء عدد كبير من الشواهد.

ولعلّ النظريتين اللتين هيمنتا على دراسة المعنى في أوروبا في هذه الفترة هما نظرية الحقول الدّلاليّة les champs sémantiques ونظرية تحليل المعنى إلى سمات l'analyse sémique (ou componentielle). فأمّا النظريّة الأولى فيفترض أصحابها أنّ مفردات اللغة تتكوّن من مجموعات فرعيّة من الأبنية أو من الحقول[1] باعتبار أنّ الحقل وحدة تصوريّة أو حيّز مفهومي يسمح بتحديد العلاقات المعنوية الكائنة بين الوحدات المكوّنة له. وأمّا النظرية الثانية فيقترح أصحابها تنظيم المعجم انطلاقا من عدد محدود من العلاقات، أي انطلاقا من وحدات معنوية دنيا. هذه المكوّنات يقع تصنيفها باعتبارها وحدات لا تقبل التحليل ولا التجزئة، وباعتبارها سمات مميزة لتكوين حقل.

على كل يمكننا أن نؤكد أنّ علم الدّلالة البنيوي المعجمي هذا يظلّ بمختلف أشكاله وصيغه تواصلا للأصول والأسس التي وضعها ورسّخها De Saussure وCharles Bally من قبله. ذاك ما تميّزت به البنيوية في أوروبا عن المنحى والاتجاه اللذين ميّزا البنيوية في أمريكا.

فقد قامت البنيوية الأمريكية التي هيمن عليها Bloomfield منذ الثلاثينات، كما أثر فيها الإتجاه السلوكي التوزيعي le behaviorisme distributionnaliste، على إبعاد كل وصف للمعنى من برنامجها وإقصائه. وبذلك أولت أولى الدّراسات التوليديّة التحويليّة [2] الأهميّة الأساسيّة للتركيب وأسندت إليه موقعا مركزيا في النظام واعتبرته مكوّنا مستقلا، متخلية بذلك عن دراسة الدّلالة والمعنى باعتبار أنّهما من مشمولات الفلسفة والمنطق والرياضيات وعلم الأجناس اللغوي l'anthropologie linguistique.

وفي ختام هذا القسم يمكننا أن نشير إلى أنّ دراسات هذه الفترة سيكون لها أثران رئيسيان على دراسة المعنى والدّلالة. فلقد ساهم التيّار البنيوي من ناحية في حصر موضوع علم الدّلالة في دراسة المعجم باعتباره

1- انظر G.Ipsen (1924) و(1931 -1934) J.Trier .

2- انظر Z. Harris وكتابه Methods in structural linguistics الذي نشره سنة 1951، وكذلك Noam Chomsky في كتابه Syntaxic Structures الذي نشره سنة 1957.

شبكة من العلاقات بين المعاني، كما ساهم في إقناع عدد كبير من الدّارسين بصعوبة فصل الأبنية المعجميّة عن المعارف غير اللغويّة.

3.3 فترة ظهور المناويل اللسانيّة

وقع حدث خطير غيّر مسار الدّراسات الدّلاليّة في العالم، وذلك بين سنة 1963 وسنة 1965. فالمعنى الذي وقع إقصاؤه إلى حدّ هذا التاريخ من اهتمامات اللغويين سيغزو النحو التوليدي.

كلنا يذكر أنّ تشومسكي اعتبر سنة 1957 في كتابه "الأبنية النحوية" أنّ مهمّة النحو التوليدي الوحيدة تتمثل في التعريف بالأبنية النحويّة للغة باعتبارها مجموعات محدودة من الجمل ذات التركيب السليم des phrases grammaticales bien formées، الأمر الذي يؤكّد أنّ الفرضيّة التي انطلق منها تعتبر أنّ النحو ليس إلا دراسة شكلانيّة لأشكال الجمل وتراكيبها، مستقلة كل الإستقلال عن المعنى.

إلا أنّه ستتعالى بعض الأصوات التي سيلاحظ أصحابها أنّ اعتماد التركيب la syntaxe وحده لا يسمح بحلّ عدد كبير من المشاكل المطروحة وسيؤكد كل من Fodor وKatz منذ سنة 1963 على ضرورة تلقيح المكوّن التركيبي القاعدي بإضافة مكوّن دلالي. ثم سيقوم Katz وPostal سنة 1964 بتطوير مفهوم المكوّن الدّلالي وتوسيعه، وذلك حتى يقتنع تشومسكي ويتبنى وجهة النظر الجديدة في كتابه Aspects of Syntactic Theory الذي يمثل صياغة جديدة للنظرية التوليديّة التحويليّة.

إلا أنّ تراجع اللسانيات الشكلانيّة وأخذها المعنى بعين الإعتبار ستكون له تبعات خطيرة، يمكننا أن نذكر أهمّها في النقاط التالية:

1. سننتقل من علم دلالة معجمي مداره المفردات إلى علم دلالة مركز اهتمامه الجملة والخطاب.

2. ستترك المعاني التصوريّة المتعلقة بالمفردات المجال للمعاني ذات الطابع العلائقي.

3. سيقع إقصاء الاهتمامات التاريخيّة في دراسة الدّلالة نهائيّا لفائدة الاهتمامات السكونية التي لا يعنيها إلا دراسة المعنى في فترة معيّنة محدّدة.

4. ستجد دراسة الدّلالة، التي وقع الالتجاء إليها لسدّ ثغرات لا يمكن التغاضي عنها في النظريات البنيوية، نفسها مضطرة إلى الاعتناء بقضايا خاصّة بها نذكر منها تحليل الدّلالات الدّاخليّة للوحدات المعجميّة، فتهتمّ بكلّ ما هو معجم ومعاجم من ناحية، كما نذكر منها دراسة العلاقات الكائنة بين الجمل والتي لا يمكن لدراسة التراكيب الاهتمام بها ولا الانتباه إلى خصوصياتها، ومن ذلك ظواهر الترادف la synonymie والمشترك l'homonymie واللبس l'ambiguïté. كل ذلك بفضل خلق مفهوم جديد هو مفهوم المقبولية l'acceptabilité، الذي يختلف كل الاختلاف عن مفهوم سلامة التركيب la grammaticalité.

5. ستتجه دراسة الدّلالة، وهي التي اعتبرت مكوّنا ثانويّا داخل نظام لساني غاية أصحابه وضع نظام وقواعد منطقية رياضيّة، بدورها إلى الشكلنة وسيسعى عدد من أنصارها إلى إرساء نظام قواعدها الخاصّة بها داخل التصوّر المنطقي الرياضي المؤسّس للدّراسات البنيويّة التي اعتبرت المكوّن التركيبي مكوّنا مركزيّا. ومن هنا كانت نشأة علم (أو قل علوم) الدّلالة الشكلانيّة les sémantiques formelles.

6. وسيؤدّي تبعا لكل ذلك البحث عن منوال مجرّد للقدرة la compétence على حساب وصف الإنجازات les performances إلى بعث الحياة في نوع من الاهتمامات سعى Gustave Guillaume بدون جدوى في عصره إلى الدّفاع عنها، ونعني بذلك الاهتمام بالآليات الذهنيّة التي سيتكفل العرفانيون بإحيائها وبمحاولة فرضها في مجال دراسة اللغة.

المهمّ أنّ المكوّن الدّلالي سيكون على المستوى النظري مصدر فتنة ومواجهة ستنتهي بالقطيعة الكبرى بين النحو التوليدي وChomsky وKatz من ناحية، ودراسة الدّلالة وGeorges Lakoff من ناحية أخرى، وستنشأ عن تلك القطيعة الدّراسات الدّلالية الشكلانية والدّراسات الدّلالية القائمة على اعتبارات تداولية والدراسات الدّلالية العرفانية.

3. وضع النحو العرفاني في إطاره

1. موقف العرفانيين من النظريات اللسانيّة السّابقة

إنّ النحو العرفاني نظرية دلاليّة شاملة وقفت منذ ظهورها في وجه التصوّرات والإعتبارات والمسلّمات التي هيمنت على أغلب النظريات اللسانيّة الحديثة. وسنحاول فيما يلي استعراض أهمّ هذه الإعتبارات والمسلّمات التي يرفضها النحو العرفاني.

1. يرفض النحو العرفاني التصوّر الذي فصل بمقتضاه عدد من اللغويين بين مختلف المستويات التي تساهم في بناء المعنى وتشكيله. هذا التصوّر الذي جعل عددا من اللغويين يفصلون بين مستوى بنية الكلمة ومستوى بنية الجملة ومستوى المعجم ومستوى الدّلالة إلى غير ذلك من المستويات التي تساهم معا وفي الآن ذاته في تشكيل المعنى، بل إنّهم لم يكتفوا بذلك، وإنّما اختاروا كذلك الفصل بين مختلف المستويات التي ذكرناها وبين المعارف التي بحوزة المتكلم والمخاطب سواء منها ما كان له علاقة بمعتقداته وثقافته أو بكلّ ما يعرفه عن العالم الخارجي الذي يعيش فيه، ففصلوا بذلك بين ما سمّوه "المعنى اللغوي" le sens linguistique و"المعنى غير اللغوي" le sens extralinguistique. ونحن نجد مثل هذا التصوّر شائعا في النحو التوليدي التحويلي مثلا، وفي مختلف النظريات النحوية الجديدة التي حاول أصحابها تفادي بعض الأخطاء التي وقع فيها التوليديون أو تخلوا تماما عن بعض مبادئهم، مثل النحو السّياقي المعمّم[1] La Grammaire Syntagmatique Généralisée (GPSG)، والنحو المعجمي الوظائفي[2] La

---

1- وهو نحو توليدي تخلى أصحابه عن العمليات التحويلية ولم يعترفوا بوجود أبنية عميقة، أي أنكروا وجود مستوى تركيبي عميق. ويمكننا أن نذكر من أهمّ ممثليه Gerald GAZDAR.

2- وهو نحو يميز أصحابه بين مستوى التركيب ومستوى الوظائف ويعتبرون أنّ البنية الوظائفيّة تهتمّ ببعض الجوانب الوظائفيّة والدّلالية، ومن أبرز من يمثله الباحثان Bresnan وKaplan.

La Grammaire [1]والنحو المقولي Grammaire Lexicale Fonctionnelle .[2] Catégorielle

2. يعتبر النحو العرفاني أنّ للغات الطبيعيّة نظاما يختلف كل الإختلاف عن النظام الذي يميّز اللغات الإصطناعيّة والذي يقوم على مجموعة من المبادئ والمقوّمات الرّياضيّة المنطقيّة.

3. يرفض النحو العرفاني كذلك المبادئ التي تعتبر أنّ دراسة معاني الوحدات والأبنية اللغويّة لا تكون إلا بربطها بالعالم الخارجي الذي يعيش فيه المتكلم والسامع، ويؤمن أنصاره بأنّ المعاني اللغوية ينبغي أن تدرس باعتبارها قائمة على مجموعة من العمليات الذهنيّة التصوّرية لا باعتبارها موافقة أو مخالفة لحقيقة أو لمجموعة من الحقائق القائمة في العالم الخارجي.

فالنحو العرفاني يواجه عددا من المسلمات التي استبدّت بالدّراسات اللغوية منذ عشرات السّنين.

- إنّه يدافع عن ضرورة الجمع بين التركيب والدّلالة وعدم الفصل بينهما في الدراسة اللغوية في عصر اعتبر فيه أغلب اللغويين والإعلاميين أنّ التركيب مستوى شكلاني مستقلّ يمكن دراسته على حدة دون الإشتغال بالمعنى.

- ويطمح إلى تقديم نظريّة موحّدة شاملة لمختلف جوانب البنية اللغوية في وقت يدعو فيه أغلب الدّارسين إلى بناء نظريات مختصّة des théories locales لدراسة ميادين مستقلة، منفصل بعضها عن البعض الآخر.

1- اهتمّ أصحابه أساسا بوضع مجموعة من القواعد تسمح بائتلاف كل المقولات التي يمكن أن ترد متتابعة في مختلف السياقات لتكوّن مقولة مركبة، ويمثلهم خاصة Bach و Dowty و Steedman.

2- لمزيد التفصيل يمكن العودة إلى الدراسة القيّمة التي نشرتها دار Armand Colin بباريس للباحثة Anne Abeillé سنة 1993 تحت عنوان: Les nouvelles syntaxes : grammaires d'unification et analyse du français

- وأخيرا وفي وقت طغت فيه موضة الشكلنة وموضة الحاسوب والإعلامية التي يريد أصحابها صنع آلات تحاكي ذكاء الإنسان ومختلف قدراته الذهنيّة وخاصّة منها قدرته على فهم العبارات والجمل المناسبة للمقام وللمقال وعلى إنتاجها، يقترح النحو العرفاني التخلي وإن مؤقّتا عن مثل هذه الطموحات السّاذجة التي إن دلت على شيء فإنّما تدلّ على أنّ أصحابها غير واعين بمدى تعقد الأبنية اللغوية ومدى تعقد أبنية الفكر البشري.

يدعو أنصار النحو العرفاني إذن، وخاصّة "رونالد لانقاكر" إلى التخلّي عن مثل هذه الطموحات وإلى محاولة توفير تفسير للقضايا الأساسيّة، تفسير يعتمد على الذهن وعلى العمليات الذهنية العرفانية التي يقوم المتكلم بإنجازها لإنشاء جملة أو خطاب، والعمليات التي يلجأ إليها السامع لتأويل ذلك الخطاب وفك ألغازه.

لذلك فمشروع لانقاكر في نحوه العرفاني مشروع يعتبر بديلا للنظريات اللغوية السّائدة على الأقل منذ الخمسينات والتي أسندت المنزلة الأولى إلى التركيب وإلى الجوانب الشكلانية في اللغة على حساب المعنى والدّلالة. هذه النظريات، حتى في الحالات التي اعترف فيها أصحابها بأهميّة المعنى، فإنّها لم تخصّص للمعنى إلا منزلة ثانويّة وظل أصحابها يؤمنون بأنّ الدّور المركزي إنما هو الدور الذي يقوم به التركيب.

لكلّ ذلك، يمثل النحو العرفاني بهذا الاعتبار ثورة أو حركة تمرّد ضدّ هذه النظريات التي أفقدت مادّة الدّراسات اللغويّة جزءا كبيرا من محتواها كما حجبت جانبا هامّا من الثراء الذي تتسم به ملكة اللغة وشوّهت عددا كبيرا من الظواهر الغوية التي وصفتها.

2. النظريات الشكلانية والنظريات النحوية الجديدة

1.2. تشترك النظريات الشكلانية Les théories formelles وما عرف بالنظريات النحوية الجديدة les nouvelles syntaxes في مجموعة من الخصائص، نذكر من بينها الخصائص التالية:

أ. إنّ الغاية منها تقديم وصف بنيوي لمكوّنات الجمل، وذلك دون أيّ اعتبار للمعنى وهي تنطلق من فرضيّة تعنى أساسا بالشروط التي يجب لكل جملة أن توفي بها حتى يكون لها صورة صوتيّة وتأويل دلالي. والنحو في مثل هذه النظريات يقوم عادّة على مناويل des modèles منطقيّة رياضيّة.

ب. كلّ هذه النظريات تنطلق من فرضيّة أوّليّة مؤسّسة مفادها أنّ التركيب la syntaxe مكوّن مركزي، ولذلك لا بدّ أن يكون النحو الذي تقترحه النظرية نحوا شكلانيّا يحتلّ فيه التركيب منزلة مركزيّة في النظام.

ج. لا يعدو المكوّن الفونولوجي والمكوّن الدّلالي في مثل هذه النظريات أن يكونا مكونين تأويليين، يترجم أوّلهما الوصف البنيوي إلى سلسلة من العلامات الصّوتيّة بينما يُسند ثانيهما مضمونا أو معنى إلى ذلك الوصف البنيوي.

وعندما خابت آمال أنصار هذه المبادئ والاعتبارات، وخاصّة منها تلك التي علقوها بمركزيّة التركيب، وانتهت بهم إلى طريق مسدودة، اعترف بعضهم بأنّه لا مفرّ من الاهتمام بالمعنى، إلا أنّهم اختاروا في أغلب الأحوال وفي أحسنها إدراج بعض الجوانب الدّلالية ضمن المكوّن التركيبي وطعّموا نظرياتهم بأن أولوا مكانة خاصّة للمعجم دون أن يعيدوا النظر في مبدإ مركزيّة التركيب (انظر على سبيل المثال ما فعله أصحاب النحو المعجمي الوظائفي).

2.2. أغلب العرفانيين كانوا من أنصار النحو التوليدي في الفترة الكائنة بين الستينات والسّبعينات. إلا أنّهم عندما انتبهوا إلى أنّ الأسس التي قامت عليها هذه النظريّة لا يمكن أن تنتهي بهم إلا إلى طريق مسدودة انشقّوا وسعوا إلى إحياء المشاغل النفسيّة والمعرفيّة والاعتبارات الذهنيّة التي كانت موجودة في الدّراسات اللغويّة قبل ظهور التيار البنيوي الذي همّش الاعتبارات العرفانيّة وأقصاها عن مجال البحث في قضايا اللغة.

هؤلاء المنشقون سيتخلون عن مركزية التركيب وأولويّته وسيعتبرون أنّ الصرف والتركيب والمعجم والدّلالة ليست إلا مظاهر أو جوانب متصل

بعضها ببعض تخدم كلها نفس الغاية وتساهم في صياغة المعنى وتشكيله وهي متلاحمة متآزرة لأنّها تمثل مستويات يصعب ضبط الحدود الفاصلة بينها وتحديد مدى مساهمة كل منها في تكوين المعنى. لقد تبيّن لهم أنّها مستويات تكوّن مسترسلا un continuum، وهذا ما دعاهم إلى الدّفاع عن وصف إجمالي للمعنى une description holiste، والتخلّي عن الوصف التفصيلي la description componentielle الذي اعتمدته النظريات السّابقة، ذلك الوصف الذي يعتمد حزمة من السمات un faisceau de traits في وصفه للمعنى اللغوي. فعندما ننظر مثلا في الوحدات المعجميّة وفي الوحدات الصرفية والتركيبيّة نتبيّن بسرعة أنّنا بإزاء وحدات لا تختلف في ما بينها من حيث طبيعة كل منها، وأنّها تكوّن وحدات تنتمي إلى نفس السّلسلة المتكوّنة من عناصر متجانسة متواصلة، والرّابطة بين قطبين متطرّفين: المعجم في طرف والصرف والتركيب في الطرف الآخر، إلا أنّ الوحدات المعجميّة الصرفة أو الوحدات الصرفية والتركيبيّة المحضة قليلة جدّا، وأنّ أغلب الوحدات كائنة بين الطرفين، بعيدا عنهما في الآن نفسه. ولعلّ الفرق الرئيسي بين النوعين إنّما يتمثل في درجة التجريد، أي أنّ مضمون الوحدات الصرفية والتركيبيّة يبدو أكثر تجريدا من مضمون الوحدات المعجميّة والأمثلة التي تؤكّد ذلك كثيرة في عديد اللغات. فعبارة bien مثلا في الفرنسيّة لها عدد لا يستهان به من الاستعمالات المختلفة. إنّ استعمالاتها الإسميّة تفيد معنى الملكيّة والممتلكات كما في العبارات "un bien", "avoir des biens" ومعنى الارتياح والرّضى في "Cela m'a fait du bien"، كما تشير إلى قيمة أخلاقيّة في استعمالها اسما كما في قولك "faire le bien"، أو صفة في جملة من نوع (C'est un type bien). أمّا في استعمالاتها غير المعجميّة فإنّها تعبّر عن معنى الدرجة في جملة مثل "il a bien mangé" وتفيد التوكيد في قولك "C'est bien son écriture". وكذلك معنى الفعل "aller" في الفرنسيّة، الذي يفيد التنقل في المكان عند استعماله باعتباره وحدة معجمية في مثل قولك "Je vais faire les courses une fois par semaine"، بينما يفيد التنقل عبر الزمان عندما يستعمل باعتباره وحدة غير معجمية للتعبير عن المستقبل في جملة "Je vais faire les courses dans dix minutes".

كذلك نلاحظ في اللغة العربيّة تردّد النحاة أنفسهم عند معالجتهم لبعض وحدات اللغة التي تتأرجح بين عدّة أقسام من أقسام الكلام. فالوحدة "ما" قد تكون حرف نفي في (ما أنا بقارئ)، وحرفا مصدريّا في (آمنوا كما آمن النّاس) وفي (سأفعل الخير ما دمت حيّا)، واسما موصولا في (له ما في السّموات وما في الأرض)، وأداة شرط وأداة تعجّب وأداة استفهام في غير ما ذكرنا من الإستعمالات.

فما العمل إذن إن نحن تمسكنا بالتمييز المتصلب الذي فرضته علينا النظريات النحوية واللسانيّة التقليديّة؟ هل أنّ عبارة"bien" في الفرنسيّة أو "ما" في العربيّة وحدة معجميّة أم وحدة غير معجميّة؟ هل أنّ الفعل "aller" [1] فعل تامّ أم فعل مساعد يفيد المستقبل؟

أضف إلى ذلك أنّنا نلاحظ في العربيّة أنّ الجدول التصريفي يؤدّي في عدد لا يستهان به من الحالات إلى تغيير المعنى المعجمي للفعل. فالفعل "أحبّ" في الماضي يدلّ على حدث نقطيّ محدود في الزمان، في حين أنّ نفس الفعل يدلّ في المضارع على حالة متواصلة[2]. كذلك الفعل "علم" الماضي يترجم إلى الفرنسيّة بعبارة "apprendre une nouvelle"، بينما يقابل المضارع "يعلم" الفعل savoir، وكذلك "حكم" الماضي يقابل عبارة "prononcer un verdict" الفرنسيّة، في حين أنّ مضارعه "يحكم" يترجم عادة بالفعل "gouverner". وبالتالي فإنّ عددا من الأفعال يكون معناها رهين الزمن والمظهر le temps et l'aspect اللذين ينظمان مضمونها المعجمي ويؤثران نتيجة لذلك في معناها.

كلّ هذه الأمثلة قدّمناها لنبيّن أنّه لا يمكن في الحقيقة الفصل بين الصرف والمعجم ولا بين التركيب والدّلالة.

1- وقل نفس الشيء بالنسبة إلى الأفعال العربيّة التي من نوع "أخذ" و"جعل" و"كان"، وغيرها كثير.

2- "أحبّ" الماضي يقابله في لغة كالفرنسيّة tomber amoureux de، بينما "يُحبّ" المضارع يقابله aimer.

3.2. لن تكون المقاربات العرفانية تواصلا للنحو التوليدي كما كان علم الدّلالة التوليدي على الأقلّ في بداياته، وإنّما ستمثل قطيعة نوعيّة في دراسة اللغات الطبيعيّة، وستمثل رؤية جديدة للأشياء.

أ. فالقضية المطروحة على الدّارسين لم تعد مركزة على تصوّرنا للنحو وللنظرية النحويّة وإنّما أصبحت تتعلق بتصوّر للعمليات الذهنيّة التي تؤسّس الأبنية والتراكيب النحوية. ذلك أنّ العمليات الذهنيّة في رأي العرفانيين عمليات منتظمة مطردة des processus réguliers. وبذلك فقدت القواعد بأنواعها وأشكالها المختلفة منزلتها وقيمتها وأصبح الأساس كائنا في التمييز بين جهاز من العمليات un dispositif يُعتمد لمعالجة العناصر والوحدات (أو قل التصوّرات)، أي مجموعة العمليات الذهنيّة العرفانية المنتظمة، ومجموعة العناصر والوحدات التي تعالجها وما يوافقها من أبنية وتراكيب.

ب. ثمّ إنّ إعادة الاعتبار مع العرفانيين للدّلالة ولمختلف المعاني التداولية ووضعها في منزلة رئيسيّة أدّى إلى النظر إلى النحو لا باعتباره جهازا يسمح بصياغة مجموعة العبارات ذات التركيب المستقيم des formules bien formées في لغة من اللغات، وإنّما أصبح الدّارسون ينظرون إلى النحو في معناه العام باعتباره قائمة من الصيغ والتراكيب المصطلح عليها، باعتباره نظاما يسمح بتشكيل أبنية اصطلاحية متواضع عليها تسمح بتصنيف المعاني وإدراجها ضمن مقولات Un dispositif de construction de structures conventionnelles de catégorisation de la signification. وبذلك أصبح النحو عبارة عن تحليل (أو دراسة) للعلاقات القائمة بين مجموعة من الأصوات المتعاقبة والدّلالات المسندة إليها.

ج. أضف إلى ذلك أنّ موضوع الدّراسة اللسانية والغاية منهما قد تغيّرا. فلو ألقينا نظرة ولو سريعة إلى ما جاء في نظرية Richard Montague النحوية (النحو المفهوميّ) للنظر في الغاية التي أرادها لنحوه للاحظنا أنّه أراد أساسا ضبط العلاقات القائمة بين عبارات اللغة الطبيعيّة من ناحية، والذوات والأحداث الموجودة خارج اللغة، أي الموجودة في العالم الموضوعي من ناحية أخرى. ولذلك كان الفضاء التأويلي عنده لا يتكوّن إلا من ثلاث مجموعات: مجموعة من الذوات un ensemble d'entités individuelles، ومجموعة من

القيم القائمة على الصدق والكذب un ensemble de valeurs de vérités (Vrai/ Faux)، ومجموعة من الأزواج السياقية المتكوّنة من مجموعة الأزمنة l'ensemble des temps ومجموعة العوالم الممكنة l'ensemble des mondes possibles.

أمّا مع النحو العرفاني فسيقع التخلي عن كل ذلك، أي عن الفكرة التي مفادها أنّ المعنى يتمثل في العلاقات الكائنة بين العبارات اللغوية والعالم الخارجي، وستحظى بالاهتمام الطريقة التي يلجأ إليها المتكلم والمخاطب لتشكيل المعنى أو لإعادة تشكيله. أي أن الأولوية ستصبح للعمليات الذهنيّة التي تنظم المعنى وتصوغه. وهكذا فإنّه لم يعد تصوّر دراسة اللغة ممكنا إلا في نطاق رؤية قائمة على تشكيل المعنى. وذاك ما أدّى بالنحو العرفاني إلى الإعتراض على فرضيّة الاستقلال المزدوجة التي أسّست النحو التوليدي كما أسّست مختلف النظريات النحوية الجديدة التي ظهرت في الثمانينات خاصّة والتي حاول أصحابها اجتناب بعض التعسّف الذي وقع فيه التوليديون، دون التخلي تماما عن المسلمات الرئيسيّة التي أقاموا عليها تصوّرهم للدّراسة اللغويّة.

ونعني بفرضيّة الإستقلال المزدوجة فرضيّة استقلال اللغة واستقلال تحليلها عن تحليل القدرات العرفانية الأخرى من ناحية، وفرضيّة استقلال المكوّن التركيبي عن باقي المكوّنات الذي ترتّب عنه القول بمكانة التركيب la syntaxe المركزيّة في دراسة اللغة.

3. منزلة الدّلالة والتركيب في النظرية اللسانية

- إنّ العلاقة بين تركيب عبارة ما[1] أو بنية عبارة ما ومعناها تُعَدّ أساسيّة بالنسبة إلى كل نظريّة لغويّة. ولقد اختار النحو العرفاني أن يعبّر عن هذه العلاقة بطريقة مباشرة، أي دون المرور مثلا ببنية منطقية تكون ترجمة للعبارة اللغوية كما فعل Richard Montague في نظريته النحوية la grammaire intensionnelle. ولعلّ أحد الأهداف الرئيسيّة للنحو العرفاني

1- مصطلح "عبارة" يطلق على كل وحدة لغوية مهما كان حجمها، أي سواء كانت هذه الوحدة مفردة أم جملة، وهو الاستعمال المتعارف عليه عند عدد من العرفانيين.

يتمثل في إدراك الوظيفة الرّمزية التي للغة، أي التجاء المتكلم إلى سلاسل أو متتاليات صوتيّة des chaînes phoniques تستعمل رموزا للتصورات les symbolisations. ولذلك لا توجد في النحو العرفاني إلا ثلاث أنواع من الوحدات: الوحدات الفونولوجية، والوحدات الدّلالية والوحدات الرّمزية. والوحدة الرّمزية هي الجمع بين وحدة دلالية معنوية ووحدة فونولوجية. وكل بنية (أي كل صيغة صرفية وكل تركيب نحوي) له معنى، وهذا المعنى يكون عادة معنى مجرّدا، أكثر تجريدا من معنى الوحدة المعجمية.

- مبدأ آخر من مبادئ النحو العرفاني يتمثل في اعتبار أنّ المعنى والتصوّر عبارتان مترادفتان. فالمعنى لا يعدو أن يكون إلا تصوّرا معيّنا، ومعنى عبارة ما إنّما هو ذاك البناء أو التشكيل الخاص الذي تفرضه العبارة على مشهد تصوّري. وبذلك يتمثل التحليل الدّلالي لعبارة ما في إبراز الطريقة الخاصّة التي وقع اعتمادها في تلك العبارة لتشكيل المشهد وبنائه بطريقة معيّنة مخصوصة.

- أمّا الطبيعة الرّمزية لهذه النظرية فإنّ لها تبعات خطيرة على العلاقة بين المعنى والصّيغة وعلى الوسائل والأدوات المستعملة للرّبط بينهما. فالبنية الصرفية أو التركيب النحوي لعبارة ما إنّما يحدّده ويبرّره تشكيلها الدّلالي، ولذلك لا يمكن بحال من الأحوال أن نفصل بين صيغة العبارة وتنظيمها الدّلالي. ولا بدّ من أن نشير في هذا الصّدد إلى أنّ هذا التصوّر للدّلالة لا يعني إنكار شرعية وجود أبحاث ودراسات تعتني بالتركيب وبالبنية، وإنّما كل ما في الأمر هو أنّ العرفانيين يرفضون الفكرة القائلة بأنّ التركيب ليس له ما يبرّره معنويّا، ويعتبرون أنّ كل صيغة أو بناء مهما كان المستوى الذي يوجد فيه إنّما تبرّره وتفرضه اعتبارات دلاليّة، مع العلم أنّ الإعتبارات التداوليّة les considérations pragmatiques بالنّسبة إليهم ليست إلا جزءا من الإعتبارات الدّلاليّة.

- مبدأ ثالث من مبادئ النحو العرفاني يتمثل في إعادة الاعتبار لما سمّي بالبنية السطحيّة. فالبنية السطحيّة لعبارة لغوية ما تعكس تنظيما ذهنيّا عرفانيا خاصّا، واختلاف الصيغ والتراكيب وتنوّعها يعكسان الفوارق القائمة بينها، ويمثلان تجليا للاختلافات التصوّرية التي تميّز بينها. وهكذا لا يمكن لتحليل الشكل أو الصيغة أن يُتصوّر بمعزل عن دراسة المعنى

وتحليله، لأنّ الصيغة أو الشكل إنّما هو اصطلاح لغوي يعكس بناء ذهنيّا للمشهد الذي تستعمل الصيغة للإشارة إليه. فالجملة أو العبارة المنطوقة أو المكتوبة بمكوّناتها وبالعلاقات التي تربط بين تلك المكوّنات هي المعتمدة في دراسة المعنى وتحليله في النحو العرفاني، ولا موجب لتأوّل وجود بنية عميقة أو خفيّة غير ظاهرة في مستوى السّطح لاعتمادها في ضبط ملامح المعنى.

كل تلك المبادئ جعلت الغاية الأساسيّة من اللسانيات منحصرة في التحليل المنتظم لأنواع المشاهد المختلفة التي يختار المتكلم صيغا وأبنية مختلفة للتعبير عنها، وذلك لإبراز خصوصيّة كل نوع وبيان أنّ كل بنية لغويّة تعكس تنظيما ذهنيّا معيّنا للمضمون. فدراسة المعنى هي الغاية الأولى والأخيرة للسانيات في نظر العرفانيين. ولا يفوتنا أن نؤكد أنّ دراسة المعنى تتضمّن دراسة الصيغ والأبنية والتراكيب لأنّه، كما تقول Wierzbicka، ما دمنا نعرّف الدّلالة بأنّها دراسة للمعنى من خلال العبارات الاصطلاحيّة التي تواضع عليها متكلمو لغة طبيعيّة ما، فإنّ علم التركيب لا يمكن تصوّره إلا باعتباره جزءا من علم الدّلالة. ونحو "لانقاكر" العرفاني الذي نقدّمه في هذا الكتاب عني أساسا بمعاني الأبنية اللغويّة، التي تختلف عن المعاني المعجميّة دون أن تكون منفصلة عنها. إنّه يعني بالطبيعة الاصطلاحيّة لمجموعة المظاهر التي تشكل بنيتنا الذهنيّة، باعتبار أنّ البناء والتنظيم في اللغة ليسا إلا تطبيقا لقدرات وعمليات ذهنيّة أعمّ يستعملها الإنسان في مختلف الأنشطة التي يقوم بها، وما اللغة إلا نشاط من تلك الأنشطة.

أسس نظريّة لأنقاكر العرفانية وأصولها

1. بعض المفاهيم الأساسيّة

سنحاول في هذا القسم أن نقدّم أهمّ المفاهيم التي يقوم عليها النحو العرفاني وسنعرض بالترتيب القدرات العرفانية العامّة واستعمالاتها في اللغة، فالمجالات العرفانية والفضاءات الذهنيّة، ثم المضامين المعجميّة وطرق تشكيلها. ثم نختم هذا القسم بالتعرّض إلى العلاقة بين المعنى والتركيب.

1. القدرات الذهنيّة العامّة

إنّ معالجة الوحدات اللغويّة وإنشاءها يقع إنجازهما بفضل عدد من القدرات الذهنيّة العامّة التي لا تخصّ نشاط الإنسان اللغوي فحسب وإنّما تهمّ مختلف الأنشطة التي يقوم بها في كل ميادين المعرفة وحتى في حياته اليوميّة. من بين هذه القدرات يمكننا أن نذكر قدرة الإنسان على إنشاء تصوّرات منظمة وتشكيلها، وقدرته على تصوّر مستويات متعدّدة متنوّعة تختلف في ما بينها من حيث درجة التجريد للتعبير عن الحالات والوضعيات بمختلف أنواعها. ويمكننا كذلك أن نذكر قدرته على التأليف بين أبنية بسيطة وإقامة علاقات بينها لتكوين أبنية مركبة أكثر تعقيدا، وكذلك قدرته على تنظيم نفس المضمون بطرق مختلفة.

2. المجالات العرفانية

إنّ استعراض أهمّ الخاصيات الدّلالية لعبارة لغوية ما يكون بربطها بمجموعة من الأبنية المعرفية التي نطلق عليها في النحو العرفاني مصطلح

"مجال عرفاني" أو "مجال تصوّري" un domaine cognitif ou un domaine conceptuel. فالوحدة المعنوية "كتاب" مثلا تحيل على المجال العرفاني الخاص بالأشياء الماديّة الملموسة les objets physiques باعتبار أنّ الكتاب شيء مادي له حجم وشكل ووزن وما إلى ذلك من الخاصيات، وعلى مجال الطباعة، ومجال اللغات، ومجال كل ما هو مكتوب، ومجال التعليم، ومجال المبادلات التجارية باعتبار أنّ الكتاب بضاعة لها ثمن وتباع وتشتري، إلى غير ذلك من المجالات الممكنة.

بعض هذه المجالات بسيط أوّلي، إلا أنّ أغلب العبارات اللغوية تحيل على مجالات مركبة معقدة. المهمّ أنّ كل نظام معرفي وكلّ تصوّر يمكنه أن يمثل مجالا لتحديد الخصائص المعنوية لعبارة لغوية ما. وتكوّن المجالات المختلفة والمعنية في معنى العبارة ما يسمّى بالحقل الدّلالي le champ de prédication لتلك العبارة. وقد تستعمل بعض المناويل، التي تكوّن جزءا من تصوّرنا الاصطلاحي لبعض المفاهيم، باعتبارها مجالات عرفانية تسمح بتحديد بعض خصائص عبارة ما. فمنوال الزمان مثلا يقع استحضاره وتنشيطه كلما استعمل المتكلم عبارة "يوم الجمعة" مثلا.

3. الفضاءات الذهنيّة

قد يقع كذلك تحديد الخصائص المعنوية لعبارة لغوية ما بالرّجوع إلى فضاء ذهني[1] معيّن. والفضاء الذهني عبارة عن وضعيّة une situation معقدة إلى حدّ ما تشتمل على مجموعة من العناصر وعلى علاقات معيّنة بين تلك العناصر. من بين هذه الفضاءات الذهنيّة، يمكننا نذكر المعتقدات والحالات الشعورية ورغبات المتكلم وتصوّره للواقع، كما يمكننا أن نشير إلى بعض الفضاءات التي يمكنها أن تكون بديلة لفضاء الواقع مثل الوضعية التي تعرضها علينا رواية أو مسرحيّة أو شريط سينمائي ما.

هذه الفضاءات الذهنيّة المختلفة ليست منفصلة عن بعضها البعض بل كثيرا ما يكون بعضها متفرعا عن بعض. ففضاء النص المكتوب الذي أثرناه منذ قليل وفضاء النص المنطوق متفرعان عن فضاء النصّ.

1- انظر بالخصوص كتاب Gilles Fauconnier الذي عنوانه Les espaces mentaux.

ولكن لسائل أن يتساءل عن الفائدة من إثارة مفهوم الفضاءات الذهنيّة وعن مدى الحاجة إليه في دراسة معاني العبارات اللغويّة.

للإجابة عن مثل هذه التساؤلات، يمكننا أن نشير مثلا إلى أنّ وجود وحدة ما في فضاءات مختلفة قد يسمح بتفسير بعض الظواهر اللغوية وبعض الاختلافات الدّلالية الهامّة. فالفرق بين الدّلالتين اللتين أشرنا إليهما يمكن إرجاعه إلى وجود الوحدة المعنوية في فضاء واحد أو وجودها في الآن نفسه في فضاءين مختلفين. فعندما يتلفظ المتكلم بجملة "أبحث عن راقصة"، فإمّا أن تكون هناك راقصة بعينها حاضرة في ذهنه يبحث عنها، وإمّا أن يكون بصدد البحث عن أي امرأة تتوفر فيها الخاصيات التي تجعلها تنتمي إلى مجموعة الرّاقصات. أي أنّ الفعل "أبحث" يحيلنا في هذه الحالة الأخيرة مثلا على فضاء ذاتي للمتكلم، على فضاء يختلف عن الفضاء الواقعي الذي يتحدّث فيه المتكلم، وذلك يعني أنّه يبحث عن أي كائن تتوفر فيه تلك الصّفة. أمّا إذا كانت الرّاقصة المعنية موجودة في الوقت نفسه في الفضاء الواقعي وفي الفضاء الذاتي للمتكلم، فهذا يعني أنّ المتكلم يبحث عن راقصة بعينها لا عن أي راقصة كانت، وفي هذه الحالة الأخيرة تكون هناك علاقة une correspondance بين الرّاقصتين الموجودتين في الفضاءين المذكورين: فضاء المتكلم الذهني والفضاء الواقعي الذي يمثل إطار حدث الخطاب. هذا الفرق بين التأويلين الممكنين للمركب الإسمي النكرة هو ما تعارف عليه اللسانيّون بالمقابلة المشهورة بين la lecture (ou interprétation) générique وla lecture spécifique، أي اعتبار المركب الإسمي (راقصة) دالا على الجنس أو على فرد بعينه.

ولا بدّ من أن نلاحظ في هذا السّياق أنّ الدّلالة على الإنتماء إلى فضاء ذهني ذاتي ليست خاصّة بالنكرات وأنّ المركب الإسمي المعرفة، شأنه في ذلك شأن المركب الإسمي النكرة، يمكنه أن يفيد "مجرّد حصول الصّفة على وجه الإفتراض" على حدّ تعبير عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" إذ يقول:

"فهذا ونحوه على أنّك قدرت إنسانا هذه صفته وهذا شأنه وأحلت السّامع على من يتعيّن في الوهم دون أن يكون قد عرف رجلا بهذه الصّفة. ومن لطيف هذا الباب قوله: وإنّي لمشتاق إلى ظل صاحب يروق ويصفو إن

كدرت عليه قد قدّر كما ترى ما لم يعلمه موجودا ولذلك قال المأمون: خذ مني الخلافة وأعطني هذا الصاحب. فهذا التعريف الذي تراه في الصاحب لا يعرض شك في أنّه موهوم."[1]

كذلك يمكننا أن نبيّن أهميّة الفضاءات الذهنيّة في نظام الفعل العربي وخاصّة في الفرق بين مختلف جداوله التصريفيّة. فالماضي والمضارع المرفوع مثلا يضعان الحدث الذي يعبّر عنه المركب الإسنادي في فضاء الواقع، بينما يشير المضارع المنصوب إلى الحدث باعتباره منتميا إلى فضاء ذهني من نوع خاص، مثل فضاء الرغبات وغيره من الفضاءات الذاتيّة. أي أنّ الماضي واجب والمضارع المرفوع ممكن إلا أنّهما موجودان في فضاء الواقع، في حين أنّ المضارع المنصوب كائن في فضاء الإمكان. وقل تقريبا نفس الشيء في التمييز بين الجهتين اللتين يعبّر عنهما النحو الفرنسي بمصطلحي l'indicatif وle subjonctif. فالأوّل يعبّر عن الحدث باعتباره كائنا في الواقع الموضوعي، بينما يعبّر عنه الثاني باعتباره كائنا في فضاء ذاتي غير موضوعي.

4. تنظيم المضامين الدّلالية

رأينا في ما تقدّم أنّ المجالات الذهنيّة التي يستدعيها معنى عبارة ما ضروريّة لبيان خصائص معنى تلك العبارة، إلا أنّها غير كافية لأنّها لا تهمّ إلا المضمون الإعلامي le contenu informationnel. والنحو العرفاني يتبنّى وجهة نظر ذاتيّة أو قل رؤية ذاتيّة للمعنى، رؤية تعتبر أنّ دلالة عبارة ما تتكوّن من مضمون ذهني تصوّري، ومن طريقة خاصّة يختارها المتكلم ويعتمدها في تنظيم ذلك المضمون وتمثيله، أي أنّ معنى العبارة يشمل في الآن ذاته كل المعارف والمعلومات التي يستدعيها مضمونها، وكذلك الصّياغة الخاصّة التي يفرضها المتكلم على ذلك المضمون. وهنا يتجلى البعد الهام الذي تكتسيه عملية الصّياغة والتنظيم والذي يتمثل في القدرات التي بحوزة الإنسان والتي يمكنه بفضلها إبراز جانب واحد من جوانب القاعدة الدّلالية أو وجه واحد يمثل قيمة العبارة ومعناها. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ القاعدة الدّلالية la base تتكوّن بالطبع من عدّة مجالات عرفانية وثيقة الصلة بالعبارة، وأنّ هذه المجالات وإن أمكن استحضارها وتنشيطها كلما

1- انظر "دلائل الإعجاز في علم المعاني" لعبد القادر الجرجاني، ص142.

استعملت تلك العبارة، فإنّه لا يقع استحضارها جميعا ولا استدعاؤها في نفس الوقت. ويسمّى الجانب الذي يؤدّي التنظيم الخاص، الذي اختاره المتكلم، إلى إبرازه وجعله متميّزا على حساب الجوانب الأخرى الوجه le profil، وهو موضع جزئي موجود داخل القاعدة الدّلالية يفيد معنى العبارة. وبروز الوجه ليس خاصية ذاتيّة من خصائص القاعدة الدّلالية، وليس خاصية من خصائص البنية الداخلية لها une propriété inhérente، ولذلك يمكن لمجموعة من العبارات أن تكون لها نفس القاعدة الدّلالية، أي نفس المجالات الضروريّة لتخصيص معنى كل منهما، وأن تتمايز في ما بينها بطبيعة الوجه، أي باختلاف الموضع أو الحيز الجزئي الذي تعيّنه كل منها. فمثلا تشترك العبارات الإطار la jante والشعاع le rayon والحلقة المركزية le moyeu في نفس القاعدة الدّلالية التي هي العجلة la roue إلا أنّ كلا منها تبرز وجها متميّزا من وجوه تلك القاعدة المشتركة.

بالإضافة إلى مستوى المعجم، يلجأ العرفانيون إلى مفهوم الوجه في دراسة بنية الوحدات المعنوية الدنيا وفي تحليل العلاقة التي تمثل أساس كل تركيب وكل جملة في اللغة. فهم يستخدمونه في التمييز بين عديد المقولات الصرفية النحويّة فالعبارات "مجموعة" و"جمَع" و"يجمع" و" جامع" و" مجموع" و" مع" و"معا" تشترك في نفس المضمون الدّلالي، وكل ما يميّز بينها إنما يكمن في الطريقة التي وقع توخيها في تنظيم كل منها، تلك الطريقة التي تجعل كل عبارة تعيّن وجها خاصّا من وجوه القاعدة المشتركة وتبرزه بطريقة خاصّة.

ويسمح كذلك مفهوم الوجه بالتمييز بين مكوّنات المركبات النحوية من حيث منزلة كل منها في العلاقة المؤسسة للتركيب. فمن بين الذوات المشاركة في علاقة ما هناك طرفان بارزان أكثر من غيرهما. الأوّل وهو الوحدة الأكثر بروزا وتمثل الوجه البارز في العلاقة la figure de la relation، وكثيرا ما يقوم الفاعل بهذا الدور في الجملة الفعلية، والمبتدأ في الجملة الإسميّة. أمّا الطرف الثاني الذي يشارك هو الآخر بطريقة مباشرة في العلاقة فهو أقلّ بروزا. ففي عبارة "كتاب محمد" مثلا، تكون العبارة "كتاب" الطرف الأول في العلاقة وهو أكثر بروزا من عبارة "محمد" لأنّه رأس المركب ولأن العبارة المركبة ككل تعين الكتاب لا محمدا، ويمثل هذا الأخير الطرف الثاني من طرفي العلاقة.

أمّا عبارة "علي مهندس" فتكون العلاقة فيها علاقة تماثل يعبّر عنها التركيب المؤسّس للجملة الإسميّة في العربيّة، ويمثل " علي " الطرف الأكثر بروزا من بين طرفي العلاقة، إذ تنتظم كل عناصر الجملة حوله وانطلاقا منه. أمّا "مهندس" فتمثل الطرف الثاني الذي يدلّ على المهنة التي أسندت إلى الطرف الرئيسي باعتبارها سمة من سماته. ولا يمكن الحديث عن درجة بروز كل طرف من أطراف العلاقة أو إثارتها إلا داخل الجملة، أمّا في مستوى الجملة ككل فأعلى درجات البروز إنما هي تلك التي تتمتع بها العلاقة الإسناديّة القائمة بين المبتدإ وخبره. وقل نفس الشيء بالنسبة إلى مركب مثل " أكل محمد تفاحة". فالعلاقة الإسناديّة التي يعبّر عنها الفعل " أكل" هي البارزة في مستوى الجملة ككل، ولا يمكن الحديث عن بروز الأطراف المشاركة في العلاقة إلا داخل العلاقة ذاتها، أي في مستوى آخر أدنى. ثم إن بروز هذه العلاقة التي يمثلها فعل " أكل" ينزل درجة وينتقل هو بدوره إلى مستوى ثانوي أدنى بالنسبة إلى الفعل الرّئيسي " علم" في جملة " علمت أن محمدا أكل تفاحة" مثلا. فالبروز إذن أمر نسبي يظل رهين مستوى التركيب الذي نحن بصدد النظر فيه ودراسته.

2. الدّراسة اللغوية بين التركيب والمعنى

1. تعريف اللغة وتحديد مهمة علم النحو

لا بدّ إذن اللغوية أن تأخذ بعين الإعتبار وأن تضع على قدم المساواة للدّراسة المضامين الدّلالية والطريقة المعتمدة في صياغتها في الآن نفسه لأنّ هذين الجانبين يتفاعلان على الدّوام ويؤثر كل منهما في الآخر في تشكيل المعنى وإنتاجه. ولذلك فاللغة عند العرفانيين عبارة عن مسترسل من الوحدات الرمزية un continuum d'unités symboliques. والنحو عبارة عن قائمة منظمة من الوحدات اللغوية الاصطلاحيّة التي وقع التواضع عليها والتي تمثل المعرفة الحاصلة لدى متكلم ما عن اصطلاح لغوي قائم متفق عليه. ويكون البناء النحوي تبعا لذلك نظما وضمّا لأبنية رمزية، ضمّا يحدّد الطريقة التي يقع حسبها إدماج عبارتين مكوّنتين أو أكثر لتكوين وحدة مركبة أكبر. وتظل إمكاني اندماج وحدة ما أو عبارة ما مع عبارة أخرى في تركيب من التراكيب متوقفة على البنية الدّلالية للعبارتين المترشحتين للاندماج، لأنّ

تلك البنية هي التي تحتّم وتبرّر إمكانية الإندماج أو استحالته. ففعل "وضع" مثلا يتطلب بحكم بنيته الدّلالية مكوّنا ضروريا يدلّ على المكان، رغم أنّ النحاة درجوا في أغلب اللغات على اعتبار المفعول فيه مفعولا اختياريا un complément optionnel.

كل وحدات اللغة إذن وحدات رمزية، ونعني بوحدات اللغة كل الوحدات التي أدرجها اللغويون ضمن المعجم أو الصرف أو التركيب. وكل منها تجمع بين قطبين: قطب فونولوجي وقطب دلالي. هذه الوحدات بأنواعها تمثل مسترسلا لا يمكن إقامة حدود واضحة بين العناصر المكوّنة له ولا اعتبار مجموعة منها مكوّنا منفصلا عن باقي المكوّنات. بعبارة أخرى، لا يمكن اعتبار التركيب والصيغة والمعجم والدّلالة مستويات مختلفة متفاصلة عند التحليل اللغوي، لأنّ صيغة العبارة وسلوكها اللغوي في التركيب إنما يحدّدهما مضمونها الدّلالي والبناء التصوّري الذي اتخذه ذلك المضمون. لذلك لا يمكن الفصل بين الصيغة والتركيب من ناحية والمضمون من ناحية أخرى. فكل بنية نحوية تحمل بنية دلالية معيّنة، بل إنّ دلالتها على معنى هي المبرّر الوحيد لوجودها كبنية « sa raison d'être » على حدّ تعبير Wierzbicka (1988). ولذلك فوصف بنية ما وتحليلها لا يمكن أن يقع في النحو العرفاني إلا باعتباره بنية خاصة تفرضها تلك العبارة على مضمون تصوّري دلالي. ولذلك فالتحليل الدّلالي إنّما يرمي إلى الكشف عن الطريقة الخاصّة التي وقع اعتمادها في تشكيل المشهد أو المضمون التصوّري الذي تصفه وتدلّ عليه.

فكلّ ما هو نحوي له أساس عرفاني، ومهمّة عالم النحو تتمثل أساسا في السّعي إلى الكشف عن الأسس التي تسمح بالتمييز بين مختلف الأبنية الرمزية. صحيح أنّ السلوك الصرفي والتركيبي لوحدة ما يسمح بالتعرف على المقولة الصرفية النحويّة التي تنتمي إليها تلك الوحدة، إلا أنّ هذا السّلوك ليس إلا أمارة وعلامة تقوم دليلا على قيمة تلك العبارة الدّلالية، لا تمدّنا بما يكفي من المعلومات للكشف عن محتوى تلك القيمة بالوضوح المطلوب.

2. تصوّر العرفانيين للدّلالة

لعلّ أهمّ ما يميّز الدّراسات العرفانية عامّة ونحو لانقاكر بصفة خاصّة تصوّرهما الخاص للدّلالة. فما يعتبره أغلب اللسانيين عادة معارف تداولية أو

ثقافيّة أو عقائدية إنّما هو جزء من المعنى. إنّ كل المعارف الحاصلة لدى المتكلم بشأن عبارة لغوية ما تساهم في تحديد معنى تلك العبارة. ثم إنّ تحليل معنى عبارة ما يجب أن يسمح بتوضيح كل استعمالاتها بدون استثناء، بما في ذلك، بل وخاصّة، استعمالاتها المجازية التي تركها أغلب اللسانيين والنحاة جانبا وأهملوها طيلة قرون واعتبروها جزءا من اهتمامات البلاغيين والأسلوبيين التي لا تعني عالم النحو في شيء.

فالتحليل الدّلالي لعبارة "قاعدة" في اللغة العربية مثلا ينبغي أن يسمح بفهم معانيها عندما تستعمل في علم الكيمياء بمعنى ما يستعمل مع حامض لينتج ملحا، وفي علم الهندسة في عبارة " قاعدة المثلث"، وفي استعمالها عند علماء الحساب والجبر وعلماء اللغة وعند النقابيين ورؤساء الأحزاب السياسيّة في عبارات من نوع " لابدّ من استشارة القاعدة قبل اتخاذ القرارات" وفي عبارات من نوع "قاعدة عسكرية " والقاعدة باعتبارها تنظيما إرهابيّا ينسبه جورج بوش وعصابته إلى السّعودي ابن لادن، إلى غير ذلك من الاستعمالات. وقل نفس الشيء بالنسبة إلى عبارة "table" في الفرنسيّة في مختلف استعمالاتها "table ronde", "table de cuisine", "table à repasser", "table de multiplication", "les dessous de table", "rouler sous la table", "jouer cartes sur table", etc.) وبالتالي فالنحو العرفاني لا يميّز بين ما يسمّيه اللسانيّون عادة معنى لغويّا ومعنى تداوليّا، وإنّما يعتبر أنّ المعنى موسوعي encyclopédique أو لا يكون.

3. كل ما في اللغة موجود لخدمة المعنى

لا يمكن إذن لأي كان أن يتجاهل المعنى أو أن يحاول التخلص منه في الدّراسة اللغوية لأنّ كل الوحدات الرّمزية التي تلجأ إليها اللغات لا وزن لوجودها ولا مبرّر له إن لم يكن لها معنى ينبغي أن تؤدّيه، متعاضدة في ذلك مع الوحدات المتواجدة معها في نفس السّياق والمقال.

و ما دامت اللغة لا يمكنها أن تعكس الواقع الموضوعي كما هو ولا أن تقدّم صورة فوتوغرافيّة وفيّة له، وما دام دورها لا يمكنه إلا أن يكون تصوّرا لذلك الواقع، وبالضرورة إعادة تشكيل له يرجعان أساسا إلى الأدوات والوسائل التي مني بها الإنسان لإدراك ما حوله والتي فرضتها عليه تركيبته

الجسديّة ومنزلته البشريّة، فإنّ معنى عبارة لغويّة لا يكمن في إمكانية الحكم بالصدق أو بالكذب على مضمون عبارة ما، لأنّه لا علاقة له بوجود ما يعبّر عنه في العالم الخارجي وبعدم وجوده، وإنّما هو رهين مضمون العبارة الدّلالي التصوّري والطريقة التي اعتمدت في بناء ذلك المضمون وصياغته.

ولذلك يجب البحث عن المعنى في العمليات الذهنيّة العرفانية التي يلجأ إليها المتكلم وينجزها لصياغة خطابه، والتي يلجأ إليها السّامع لفك رموز ذلك الخطاب وإدراك محتواه. فكل عبارة تفرض صورة خاصّة في مجالها، وهذه الصّور المختلفة تجسّم قدرة الإنسان على إدراك نفس المضمون بطرق مختلفة وتشكيله في صيغ مختلفة. فالمتكلم الذي ينظر إلى السّماء ليلا يمكنه أن يرى النجوم المعلقة في السّماء فيميّز مثلا بين الدبّ الأكبر والدبّ الأصغر، أو أن يرى فيها مجموعات من النجوم لا أكثر ولا أقل إن لم تكن له أبسط المعارف الفلكية، بل يمكنه ألا يرى إلا نقاطا مضيئة.

كل هذا جعل لانقاكر يلحّ على الأهمية الخاصة التي تكتسيها طريقة التصوّر والتشكيل التي أطلق عليها مصطلح imagerie. ومفاد هذا المصطلح أنّ المتكلم قادر على تصوّر نفس المضمون بطرق مختلفة، ولعلّ أهمّ ما يميّز هذه القدرة يتمثل في تمييز المتكلم بين الوجه le profil (ou la figure) والقاعدة (أو الخلفية) la base (ou le fond). وقاعدة المعنى هي مجموعة الأبنية والمجالات العرفانية التي تخصصه. أما الجانب الذي يقع إبرازه فهو بنية صغيرة من أبنية تلك القاعدة أو الخلفية تحيل عليها العبارة وتشير إليها. وهكذا فمجموعة المضامين والمعارف تكوّن مع العمليات الذهنية التي تسلط عليها (و ما إبراز الوجه la mise en profil de la figure إلا عمليّة من تلك العمليات) محتوى فضاء التأويل l'univers d'interprétation.

3. مكوّنات فضاء التأويل

يتكوّن فضاء التأويل في النحو العرفاني من نوعين من العناصر: مضامين تصوّرية (أو قاعدة تصوّرية) تشمل كل المعارف التي يستدعيها معنى العبارة وتتجمع في شبكة من المجالات العرفانية (أو التصوّرية) les contenus conceptuels (ou les bases conceptuelles) وعمليات ذهنيّة تصوّرية تشكل تلك المضامين وتنظمها les opérations de conceptualisation (ou l'imagerie).

1. القاعدة الدّلالية

كل وحدة معنوية prédicat تتكوّن من قاعدة دلاليّة تحتوي على شبكة من المجالات العرفانيّة. بعض هذه المجالات أوّلي بسيط لا يقبل مزيد التبسيط ولا الاختزال مثل تجربتنا ومعرفتنا للزمان والمكان، وكذلك كل حقول إمكانيات الإدراك الحسّي مثل رؤيتنا للألوان وتمييزنا بينها. إلا أنّ أغلب المجالات التي نلتمسها ونلجأ إليها في اللغة ليست أوّلية لأنّها تتكوّن من أبنية عرفانيّة على درجة من التعقيد، فالعبارات "فصل" و" باب" و" صفحة" تعيّن حيّزات كائنة في مجال غير أوّلي هو مجال الكتب والمؤلفات. كذلك العبارات التي من نوع "الثلاثاء" و" شهر" و" أسبوع" و" فصل" مثلا تعين حيّزات واقعة في مجال غير أوّلي مكوّن من مناويل مجرّدة مثل الرزنامة والأقيسة التي ابتدعها الإنسان لتحديد الوقت والزمان.

وقد يقع الإلتجاء إلى مجال واحد أو إلى عدّة مجالات لتحديد خصائص وحدة معنويّة ما وذلك بحسب مدى تعقد قاعدتها الدّلالية. فعبارة "موزة" مثلا يقع تحديد خصائصها باعتبار مجموعة من المجالات، مثل المكان واللون والمذاق وكونها تزرع في بلدان استوائيّة، إلى غير ذلك. وفي مثل هذه الحالة، أي عندما يستلزم تحديد خصائص وحدة معنوية ما عدة مجالات، فإنّ هذه المجالات المختلفة لا يمكن أن تكون لها نفس المنزلة، لأنّ واحدا منها سيكون أهمّ من البقية، وهو المجال الرّئيسي le domaine primordial. فبالنسبة إلى عبارة "كتاب" مثلا يكون المجال الرئيسي هو مجال الآثار المكتوبة التي لها مضمون والتي تتكوّن من مجموعة من العلامات الخطية. إلا أنّ هذا صحيح بالنسبة إلى العبارة المذكورة خارج كل سياق أو في سياقات يكون فيها الكتاب موضوع تأليف أو مطالعة. أمّا في جملة من نوع "ثمن هذا الكتاب تسعون دينارا"، فإنّ المجال الرّئيسي للعبارة سيصبح مجال البضائع التي لها ثمن معيّن في مجال المبادلات التجاريّة، وفي جملة من نوع "هذا الكتاب يزن كذا كيلوغراما"، يصبح المجال الرئيسي مجال الأشياء الماديّة التي لها شكل ووزن.

من ناحية أخرى، يمكننا أن نلاحظ أنّ المجال الرئيسي لوحدة معنوية ما قد يكون هو الآخر وحدة معنوية لها بدورها مجال رئيسي، فالعبارة "ظفر"

مثلا مجالها الرّئيسي العبارة "إصبع"، وهذه العبارة الأخيرة مجالها الرئيسي "يد"، إلى غير ذلك.

باختصار، كل معارفنا تساهم في تكوين معنى الوحدة المعنوية مهما كان السّياق الذي ترد فيه. ويجب أن يكون المعنى الذي يحدّده عالم اللغة لوحدة معنوية ما صالحا لتحليل المعاني التي تؤدّيها تلك الوحدة في كل استعمالاتها.

2. العمليات التصوّرية

هذه العمليات تعكس كما قلنا قدرة الإنسان على تصوّر نفس المضمون بطرق مختلفة. وهي عبارة عن آليات des mécanismes تسمح للمتكلم بتنظيم المجالات وإعادة تنظيمها بحسب ما يريد التعبير عنه. وهكذا فمعاني العبارات التي تشترك في نفس المجالات العرفانية إنّما تتميّز فيما بينها بالأهمية الخاصّة التي يوليها المتكلم لبعض مكوّنات المضمون على حساب البعض الآخر. هذه الإختلافات يمكن إرجاعها إلى ضروب من التنسيق des ajustements متنوّعة. ومن ضروب التنسيق تلك، سنذكر على سبيل المثال لا الحصر ما يتعلق بالانتقاء la sélection، وما يتعلق منها بالمنظور la perspective.

1.2. التنسيق القائم على الانتقاء

قد يقوم المتكلم بانتقاء المجال أو المجالات التي تنطبق عليها العبارة، وذلك باختيار المجال الرئيسي الذي تنطبق عليه العبارة، أو باختيار إحدى الأبنية الفرعية المكوّنة للقاعدة الدّلالية، كما قد يلجأ إلى اختيار درجة من درجات سلم المقاييس. لنضرب أمثلة لمختلف هذه الإمكانيات.

- قد تشترك بعض العبارات في نفس القاعدة الدّلالية وتختلف في ما بينها من حيث البنية الفرعية التي تنطبق عليها كل منها. كنا ذكرنا في ما تقدّم مثال العجلة ومكوّناتها (الشعاع والحلقة المركزية والإطار).

- قد تشترك بعض العبارات في المعنى وتختلف فيما بينها بالقياس إلى المجالات التي تنطبق عليها. لننظر على سبيل المثال في استعمالات العبارتين الفرنسيتين proche de وprès de اللتين يبدو لنا لأوّل وهلة

أنّهما مترادفتان، فنحن يمكننا أن نقول للتعبير عن نفس المعنى تقريبا "l'arrêt le plus proche de la gare" و"l'arrêt le plus prêt de la gare". إلا أنّه إن أمكن لنا أن نقول "deux couleurs proches l'une de l'autre" و"un ami proche de moi" و "un intellectuel proche de Jean-Marie Le Pen" فإنّه لا يمكننا أن نقول مثلا "* deux couleurs près l'une de l'autre" ولا "* un ami près de moi" ولا "* un intellectuel prés de Jean-Marie Le Pen". أي أنّ العبارتين رغم التقارب المعنوي الكبير بينهما فإنّهما لا تنطبقان على نفس المجالات، وإنّما تشتركان فقط في الانطباق على مجال الفضاء l'espace. أمّا بالنّسبة إلى باقي المجالات، أي مجال الألوان ومجال العلاقات بين الأشخاص والمجال الإيديولوجي، فإنّه لا يمكن للمتكلم أن يستعمل "près de" [1]. إذن فقد تختلف العبارات المترادفة من حيث مناسبتها لنوع من المجالات دون غيره.

- قد تشترك كذلك عبارتان في تعيين نفس الوحدة المعنوية، وتختلفان في المجال الرّئيسي إذ تختار كل منهما مجالا رئيسيّا مختلفا عن الذي للأخرى. ولدينا مثال واضح لذلك في الفرنسية، فعبارة "œuf d'esturgeon" وعبارة "caviar" لهما نفس القاعدة الدّلالية وتستعملان للإشارة إلى نفس المعنى ونفس المرجع (بيض نوع من الأسماك) إلا أنّ المجال الرئيسي للأولى هو مجال التناسل، في حين أنّ المجال الرّئيسي للثانية هو المجال الإجتماعي ومجال المأكولات والمنزلة الاجتماعيّة المرتبطة بهما، لذلك عندما نتحدّث عن أكل هذا البيض لا يمكننا أن نقول إلا "N'importe qui ne peut pas se permettre de manger du caviar (*de l'œuf d'esturgeon)"

- قد تشترك أيضا بعض العبارات في المعنى وتنطبق على نفس المجالات، إلا أنّها تختلف في ما بينها من حيث سلم المقاييس، أو قل من حيث درجة السلم التي تنطبق عليها كل من العبارتين. فالصفتان "petit" و"menu" في الفرنسية مثلا، وإن كان لهما نفس المعنى فإنّ

1- وكذلك في العربية، فعبارتا " جبين" و"جبهة" لا تنطبقان على نفس المجالات.

المتكلم يمكنه أن يتحدث عن "un petit doigt" و"un doigt menu"، وعن "une petite monnaie" و"une menue monnaie"، إلا أنّه وإن أمكنه أن يقول "une petite montagne" و"une petite nation" و"une petite galaxie"، فإنّه لا يمكنه أن يتحدّث عن "* une menue montagne" ولا عن "* une menue nation" ولا عن "* une menue galaxie".

- بعض العبارات تكون لها نفس القاعدة الدّلالية إلا أنّها تختلف في بعض خصائصها، فلا تصدق مثلا على نفس الأحجام ولا على نفس الأشياء من حيث الطول أو العرض: انظر مثلا في العربية العبارتين " خيط" و" حبل" وفي الفرنسية العبارات fil وficelle وcorde، وكذلك العبارات "طريق" و" ثنية" و" شعاب" و" سبيل" و" مسلك"، وفي الفرنسية العبارات "sentier, chemin, route, autoroute"، ثم العبارات " نهج" و" شارع" وفي الفرنسيّة "rue", "avenue", "boulevard" وكذلك مثلا عبارتي "poil" و"cheveu".

- قد نجد كذلك بعض الأزواج التي يكون أحدها تصغيرا للآخر، فتدل العبارتان على نفس الشيء مع اعتبار الصغر بالنّسبة إلى أحدهما. وقد يترتب عن ذلك اختلاف في الوظيفة. انظر مثلا الأزواج "arbre, arbrisseau" و"mur, muret" و"coffre, coffret" و "sac, sachet" و"fourche, fourchette"، إلى غير ذلك. وقد تتميّز العبارتان أو العبارات عن بعضها باعتبار المحتوى، كما هو الحال في الفروق بين "carafe, carafon, flacon, fiole, fiasque و bouteille". وقد تتميّز بعض العبارات عن بعضها بالمساحة التي تغطيها كل منها كما في "sandale، chaussure، bottine، botte".

بعض الأفعال قد تشير كذلك إلى نفس الحدث وتختلف فيما بينها من حيث الشدة. انظر مثلا الفروق بين العبارات " همس" و" تكلم" و"صرخ" وكذلك بين "ابتسم" و"ضحك" و"قهقه" في العربيّة، وبين "chuchoter، parler، crier"، وكذلك بين "rire" وsourire"، وبين "pleurer" و"sangloter".

2.2. التنسيق القائم على المنظور:

إنّ ضروب التنسيق التي من هذا النوع متعدّدة، ولن نذكر منها إلا نوعين نعتبرهما أساسيين، وهما التنسيق القائم على المقابلة بين الوجه la figure والخلفية le fond، والتنسيق القائم على وجهة النظر le point de vue.

1. التنظيم أو التنسيق باعتبار الوجه والخلفية:

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه المقابلة هي من نفس نوع المقابلة التي كنا رأيناها بين الوجه le profil والقاعدة la base، بل إنّ المقابلة بين الوجه والقاعدة ليست إلا حالة خاصّة من حالات المقابلة العامة بين الوجه والخلفية.

إنّ هذا التنسيق باعتبار الوجه والخلفية مظهر أساسي من مظاهر النشاط العرفاني الذهني للإنسان، وهو ضرب من التنظيم نجده في الأبنية الدّلالية وفي الأبنية النحوية. وما الوجه إلا بنية فرعيّة نتصوّرها وندركها منفصلة عن باقي مكوّنات القاعدة الدّلالية، عن باقي مكوّنات الخلفية. وهي تتمتع بنوع من التميّز ولها درجة من البروز يجعلان منها القطب الذي يسمح بتنظيم كل جزئيات المضمون ويقع تنسيق كل مكوّنات المشهد بالقياس إليه.

والملاحظ أنّه يظل من الممكن دائما أن يعيد المتكلم بناء نفس المشهد وتنظيمه باختيار حيّز آخر واعتباره وجها للقاعدة الدّلالية، ويمثل التباين le contraste (المتمثل مثلا في اختيار دائرة سوداء وسط جدار أبيض) أو الحركة (أي اختيار العنصر المتحرك داخل إطار ساكن) عاملا مؤثرا تأثيرا كبيرا في اختيار الوجه.

2. التنظيم أو التنسيق باعتبار وجهة النظر:

تمثل وجهة النظر الطريقة التي نعتمدها في النظر إلى الشيء أو إلى المشهد la manière de voir، ولها ثلاثة أدوار رئيسيّة:

أ. تقترن وجهة النظر بنافذة إشاريّة une fenêtre de monstration شبيهة كل الشبه بعمليّة التأطير التي يقوم بها ملتقط الصّور أو المصوّر في السينما. فالمشهد وكذلك مكوّنات المشهد لا يقع تعيينها أو الإشارة إليها كاملة بكل جوانبها وأبعادها، وإنّما يقع اختيار جزء من المشهد أو جانب من الشيء

الذي نصفه أو نتحدث عنه، ونقوم بإبرازه وتعيينه. فمثلا عندما أستعمل المضارع في جملة عربيّة من نوع "كان علي يعبر النّهر"، فأنا أشير فقط إلى مرحلة من مراحل الحدث الذي يعبّر عنه الفعل ولا نجد أثرا في الجملة التي أستعملها لبداية الحدث ولا لنهايته. وكذلك عندما أستعمل l'imparfait في الفرنسية في قولي "Pierre traversait le fleuve"، لأنّ كلامي لا يشير من ناحية إلى بداية عبور النهر ولا يهتمّ به، ولا يعني من ناحية أخرى أنّ عبور النهر قد تمّ وانقضى رغم أنّ l'imparfait يعبّر عن الزمن الماضي، وإنّما يشير إلى طور من أطوار الحدث كان المتحدّث عنه أثناءه بصدد عبور النهر، وقد يكون غرق قبل أن ينتهي من عبور النهر وقد يكون عبره وبلغ غايته، إلا أنّ كل ذلك لا يمثل جزءا من اهتماماتي ولا ممّا يمكن لجملتي أن تعبّر عنه.

أمّا عندما أقول "عبر علي النهر" أو "Pierre traversa le fleuve"، فأنا أشهد أنّ عملية العبور قد تمّت وانتهت.

ب. تسمح وجهة النظر أيضا بتنظيم عناصر المشهد وبالتمييز بين البؤرة le focus والخلفيّة l'arrière-fond (the back ground). انظر مثلا الفرق بين الجملتين التاليتين في اللغة الفرنسيّة:

(1) C'est le lendemain matin que Pierre avoua son crime à son meilleur ami.

(2) C'est à son meilleur ami que Pierre avoua son crime le lendemain matin.

فالبؤرة في (1) غير البؤرة في (2)، لأنّ العنصر الذي فضّل المتكلم إبرازه في (1) هو الإطار الزماني، بينما فضل في الجملة الثانية إبراز شخص الصديق على باقي مكوّنات المشهد.

ج. تعبّر كذلك وجهة النظر عن العلاقة التي يقيمها المتكلم بينه وبين المشهد الذي يصفه أو المدلول الذي يعبّر عنه. فقد يتبنّى المتكلم المضمون الذي تعبّر عنه عبارته كما في قولك " لا يحترم الطلبة هذا الأستاذ"، وقد يعبّر عن تحفظه بإزاء ما يتحدّث عنه فيقول مثلا " يعتقد هذا الأستاذ أنّ الطلبة لا يحترمونه".

ولا بدّ أن نلاحظ في ختام عرضنا لمفهوم " وجهة النظر" أنّ هذا المفهوم هامّ جدّا كذلك في عمليات الإدراك الحسّي، فأنت لا تدرك من الكلية مثلا نفس الجوانب عندما تنظر إليها وأنت واقف أمام المدخل الرّئيسي للمبنى، أو داخل المبنى، أو عندما تكون موجودا وراءه أو راكبا في طائرة تحلق فوق الحيّ الذي توجد فيه الكلية.

المهمّ هو أنّ مفهوم وجهة النظر أو زاوية النظر تقوم على اعتبارين أساسيين: الموقع الإستراتيجي le point stratégique والإتجاه l'orientation، أي الموقع الذي يقع اختياره لالتقاط الصّورة انطلاقا منه، والإتجاه الذي يتحكم فيه الشخص القائم بعملية الإدراك. هذان الإعتباران هما اللذان يسمحان مثلا بالتمييز بين أزواج من الأفعال من نوع " دخل" (الذي يركز على نقطة الوصول) و" خرج" (الذي لا يهتمّ إلا بنقطة الانطلاق)، وبين " باع" و" اشترى" وغيرها كثير يكاد لا يحصى.

تعتبر كذلك الخصائص التي مرجعها الموقع والإتجاه أساسيّة في التمييز بين معاني الكثير من العلاقات في اللغة وتفسّر المقابلات الكائنة بين حروف الجرّ: بين "من" و" إلى"، وبين "عن" و" في"، وبين اللام و"على" إلى غير ذلك.

4. بعض المناويل والفرضيات التي قام عليها النحو العرفاني

يعتبر كل العرفانيين أنّ تصوّرنا للعالم وإدراكنا لما حولنا تحكمه مجموعة من المناويل العرفانية المثالية (أو المؤمثلة بحسب الترجمات) des modèles cognitifs idéalisés أو Idealized Cognitive Models (ICM) التي لها منزلة تجعلها قريبة جدّا ممّا يعرف في الدّراسات الدّلالية الأخرى بالأنماط الكبرى les archétypes والتي هي عبارة عن أبنية تنظم تصوّرنا للعالم ولكل ما يحيط بنا.

1. المناويل العرفانية المؤمثلة

يفترض العرفانيون وجود مناويل عرفانية مؤمثلة تمثل المرجع في تكوين المقولات وفي تأسيس النماذج النمطية les prototypes. يقول جورج لايكوف (1987، ص68) " **إنّنا ننظم معارفنا بواسطة أبنية نسمّيها مناويل عرفانية مؤمثلة**". هذه المناويل عبارة عن مجموعات منظمة حسب أربعة مبادئ: أبنية

تقوم على قضايا des structures propositionnelles كالتي نجدها في ما يسمّى les frames في نظرية Fillmore، وأبنية قائمة على خطاطات وصور مجرّدة كتلك التي اعتمدها لانقاكر Ronald Langacker في نحوه العرفاني، وضروب من الجوازات والتوسّعات القائمة على الاستعارة، وضروب أخرى قائمة على الكناية des extensions métaphoriques et des extensions métonymiques كالتي اعتمدها Lakoff وJohnson (1985).

فالمقولة " يوم الثلاثاء" مثلا تحدّد خصائصها بالاستناد إلى منوال عرفاني مؤمثل منظم حسب المبدإ الأول المذكور أعلاه (انظر Lakoff (1987، ص 68- 69))، والذي يتضمّن الدورة الطبيعيّة التي تمثلها حركة الشمس، والوسائل المتعارف عليها لتحديد نهاية يوم وبداية يوم آخر، والدّورة التي تمثل أيام الأسبوع السّبعة. فيكون يوم الثلاثاء اليوم الثالث في الدّورة. هذه الدّورة تعدّ مؤمثلة باعتبار أنّه ليس هناك وجود موضوعي للأسبوع كما نعرفه، ولا أدلّ على ذلك من وجود تصوّرات للأسبوع متنوّعة مختلفة بحسب الثقافات.

كذلك تمثل عبارة bachelor (أعزب) في اللغة الإنجليزيّة مقولة من نفس النوع، ما دام تحديد مدلولها يقع داخل منوال، لا يكون فيه الزواج إلا ابتداء من سنّ معيّنة، ولا يقبل تعدّد الأزواج ولا تعدّد الزوجات، إلى غير ذلك من الشروط. والمنوال لا يوفق بالطبع كل الوضعيات والحالات التي قد تصادفنا في الواقع كوضعية البابا ووضعيات الرجال والنساء الذين يفضلون ممارسة الجنس مع من يماثلهم، ووضعية الأرامل، وغير ذلك من الوضعيات التي لم يحسب لها المنوال أي حساب.

أمّا درجات إنتماء بعض العناصر أو بعض المقولات الفرعيّة إلى المنوال وبالتالي إلى النموذج النمطي فمرجعها ومأتاها مدى التوافق والتشابه بين المنوال العرفاني المؤمثل والوضعيات والحالات الموجودة في الواقع. فإذا وافقت خصائص كهل ما خصائص المنوال الممثّل لمقولة العبارة bachelor (أي أن يكون ذكرا كهلا غير متزوّج)، اعتبر هذا الكهل ممثلا جيّدا للمقولة. أمّا إذا جعلت منه خصائصه حالة غير منتظرة ولا متوقعة في المنوال فإنّه سيكون عنصرا غير نموذجي، عنصرا غير نمطي بل ممثلا ضعيفا للمقولة.

إنطلق لانقاكر من هذا التصوّر لتنظيم الإنسان لمعلوماته ومعارفه، وارتضى لنفسه بعض هذه المناويل والفرضيات واعتبرها أصولا للنحو العرفاني ومفاهيم وتصوّرات مؤسّسة له. سنعرض من هذه المناويل بالتفصيل فيما يلي منوالين أساسيين بالنّسبة إلى النحو العرفاني، ثم نستعرض بعد ذلك في عجالة بعض المناويل الأخرى التي وإن كانت ذات أهميّة كبرى في الدّراسات العرفانية عامّة فإنّ حاجتنا إليها في تقديم النحو العرفاني تظل محدودة نسبيًا.

2. المناويل العرفانية الأساسيّة

يعتمد لانقاكر في نحوه على منوالين عرفانيّين أساسيين، هما منوال لعبة الكريّات الخشبيّة le modèle de boules de billard الذي يسمح له بتحديد خصائص مضمون التراكيب والأبنية النحوية التصوّري، ومنوال المشاهد le modèle scénique الذي يمثل تجارب الإنسان الحسيّة، وخاصّة منها تجاربه البصريّة.

1.2. منوال لعبة الكريات الخشبية:

حسب منوال لعبة الكريات الخشبيّة، يتصوّر الإنسان العالم عامرا بأشياء وذوات متفاصلة متمايزة des objets discrets يمكن إدراكها بالحواس. هذه الأشياء والذوات تتحرك في الفضاء وتتفاعل فيما بينها ويؤثر كل منها في الآخر عندما يلتقي به أو يتصل به اتصالا مباشرا. وتنشأ الحركة عن الطاقة التي تستقيها بعض الأشياء والذوات من مخزونها وبوسائلها الخاصّة، في حين توجد أشياء وذوات أخرى ليس لها طاقة ولا تملك أي قوّة في ذاتها، وإنما يمكنها أن تكتسب الطاقة التي ترد عليها أو تأتيها من الخارج. وعندما تؤدّي الحركة إلى اتصال ماديّ فاعل un contact énergique بين شيئين يحصل انتقال الطاقة من الشيء المتحرك إلى شيء آخر ساكن، فيصبح هذا الأخير متحركا ويساهم بذلك في تفاعلات أخرى interactions.

تصوّر العالم المحيط بنا بهذه الطريقة يمثله لانقاكر بمنوال لعبة الكريات الخشبية. ويبدو أنّ لهذا المنوال تأثيرا كبيرا على نشاطنا الفكري اليومي وعلى تفكيرنا العلمي، لأنّه يعكس حسب لانقاكر مظاهر أساسيّة

من نشاطنا العرفاني وتنظيمنا لمختلف المعلومات والمعارف التي نتعامل معها في كل لحظة من لحظات حياتنا.

ويبدو أنّ أهميّة هذا المنوال الأولى عند لانقاكر تتمثل في أنّه يوفر قاعدة تصوّرية لمجموعة من الأبنية النحوية وخاصّة للمقولتين اللغويتين الرئيستين، مقولة الاسم ومقولة الفعل. فالذوات الماديّة المتفاصلة المتمايزة تمثل نموذج مقولة الاسم، والتفاعل بينها يمثل نموذج مقولة الفعل. ووجود هاتين المقولتين في أغلب لغات العالم والمنزلة التي تحتلانها في البنية النحوية يتناسبان مع اعتبار منوال لعبة الكريات الخشبية نموذجا مثاليا يقوم عليه الفكر والتفكير البشريين.[1]

وتمثل الأشياء من ناحية والتفاعلات من ناحية أخرى على مستوى التصوّرات المفارقة القصوى والتباين الأقصى، لأنّ لهما قيما متقابلة. فهما يختلفان فيما بينهما باعتبار المجال الذي يتجسم فيه كل منهما (أي الفضاء أو المكان بالنسبة إلى الأسماء والزمان بالنسبة إلى الأفعال)، وباعتبار المكوّن الأساسي بالنسبة إلى كل منهما (المادة la substance من ناحية وانتقال الطاقة من ناحية أخرى le transfert de l'énergie، وباعتبار إمكانية تصوّر أحدهما مستقلا عن الآخر دون أي اعتبار للآخر (الإستقلال التصوّري بالنسبة إلى أحدهما والتعلق وعدم الإستقلال بالنسبة إلى الآخر). فمنوال لعبة الكريات الخشبية يمثل تصوّرنا للأحداث ولكل ما يجري حولنا، وهو حاضر في تحديدنا لخصائص الجملة ووصفنا لبعض مظاهر بنيتها.

هذا بالنسبة إلى الحدث والأحداث، أمّا عندما نتحدث في النحو العرفاني عن " سلسلة الأحداث" la chaîne d'actions، فإنّما نعني أنّ الشيء عندما يتحرّك بفضل الطاقة التي يحتوي عليها ويتصل اتصالا فاعلا بشيء آخر فإنّه يُحدث انتقالا للطاقة ويدفع بذلك الشيء الثاني الذي اتصل به فيتحرك هو بدوره ويتصل بشيء ثالث تنتقل إليه الطاقة، وهكذا إلى أن تنفد الطاقة وتصبح عاجزة عن إحداث أي اتصال. ويسمّى الشيء أو الذات الأولى التي

1- مكوّنات هذا المنوال أربعة: الفضاء l'espace والزمان le temps والمادة la substance matérielle والطاقة l'énergie، وهي تذكرنا ولا شك بالعناصر الأربعة التي قام عليها الفكر اليوناني، أعني الهواء والماء والأرض والنار.

انطلقت منها الحركة رأس السلسلة، وتسمّى الذات الأخيرة التي نفدت الطاقة في مستواها ذيل السلسلة. وأبسط ضروب الأحداث المتولد بعضها عن بعض هو ذاك الحدث الذي يتفاعل فيه الرأس مباشرة مع الذيل بدون أي واسطة، أي ذاك الحدث الذي لا تشارك إلا ذاتان فقط في عملية التفاعل التي يقوم عليها الحدث. ويقع تحديد مختلف الأدوار الدلالية الأساسية مثل الفاعل l'agent، والمفعول به le patient، والوسيلة le moyen ou l'instrument، والمستفيد من الحدث le bénéficiaire بحسب الدور الذي يقوم به هذا المكوّن أو ذاك وبحسب مرتبته في سلسلة الأحداث.

2.2. منوال المشاهد:

المنوال العرفاني الأساسي الثاني يخص الدّور الذي يقوم به الشخص الذي يدرك الأشياء أو الأحداث إدراكا حسيّا، وهذا الدّور مماثل للدّور الذي يقوم به المتفرج الذي يشاهد مسرحية أو شريطا سينمائيّا ما. ورؤية المشاهد هي بصفة عامّة رؤية من الخارج، فالمشاهد يشمل في كل لحظة حقل الرؤية le champ de vision ولا يغطي إلا جزءا ممّا يوجد أمامه أو يحيط به، فيركز على حيز معيّن أو موضع معيّن، شأنه في ذلك شأن المتفرج الذي يركز رؤيته على مشهد من المشاهد أو على جزء من مشهد، خصوصا وأنّ كل مشهد يتكوّن من إطار ساكن ثابت يتحرّك داخله عدد من الممثلين والفاعلين المتفاعلين. ويتميّز هؤلاء المشاركون في الحركة بأنّهم أصغر من مكوّنات الإطار المحيط بهم وأكثر حركية منها. وهكذا فالإدراك الحسي وكذلك التصوّر إنما هو تنظيم خاص، وبناء أو إعادة بناء لمكوّنات وضعيّة من الوضعيات أو مشهد من المشاهد.

منوال المشاهد هذا ومنوال لعبة الكريات الخشبية يسمحان لنا بتصوّر المنوال القاعدي للحدث.

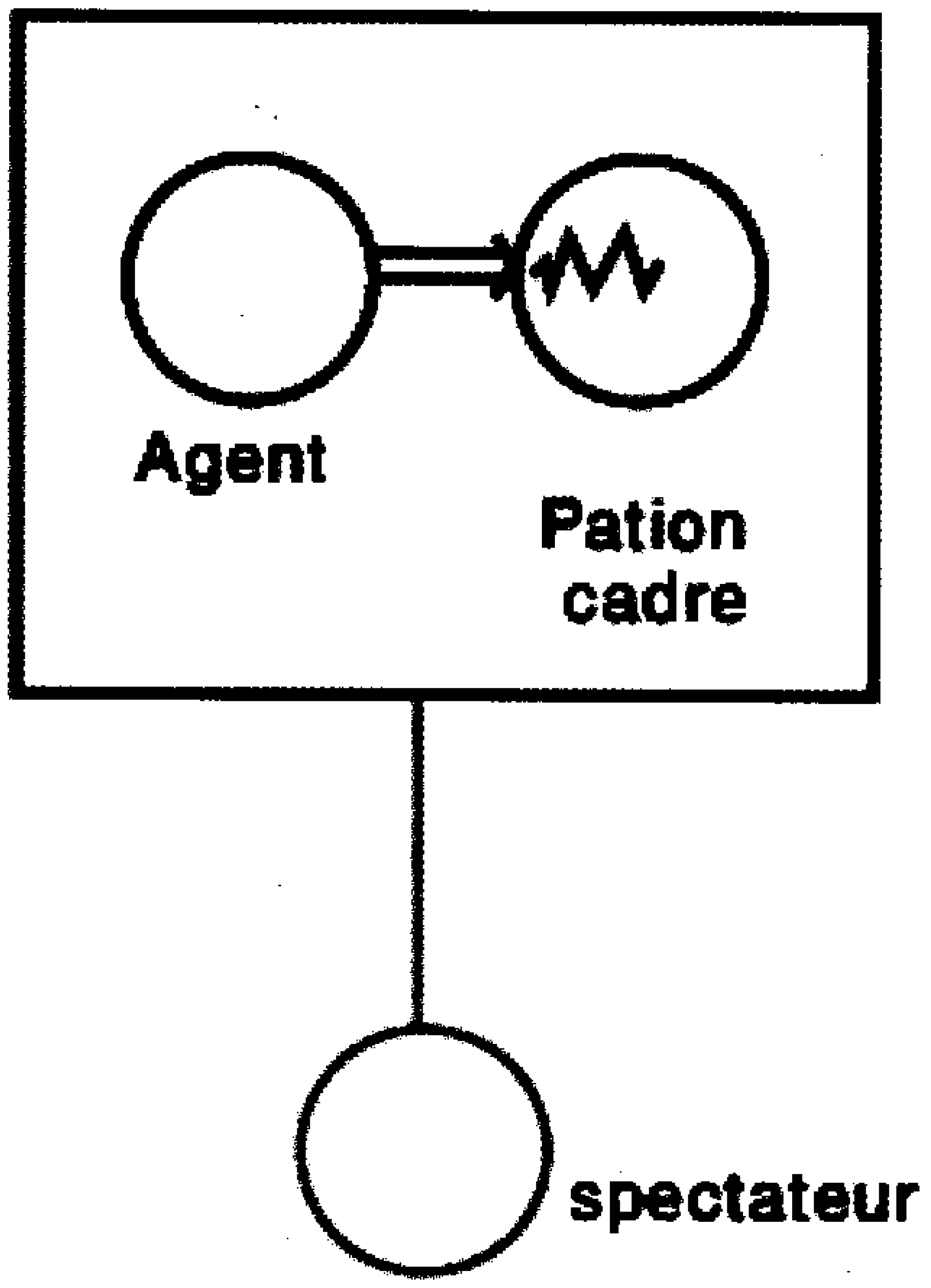

الشكل (1): النموذج القاعدي للحدث[1]

هذه المفاهيم التي استعرضناها تظل كلها مفاهيم قبلغوية des notions prélinguistiques يمكن اعتمادها في تصوّر حدث ما (حدث يمكن تمثله باعتباره سلسلة من الأحداث يشارك فيها ثلاثة أطراف participants هي القائم بالفعل والوسيلة أو الآلة والمفعول به) بطرق مختلفة انطلاقا من نفس القاعدة الدّلالية التصوّرية، باعتبار أنّ كل طريقة يناسبها بناء نحوي متميّز.

ففي الشكل (2) نجد إمكانيات ثلاث (a وb) وc) لتنظيم نفس الحدث. أمّا في (a) فقد وقع ذكر كل المساهمين في الحدث، بينما لم يقع التصريح إلا بطرفين منهما في (b)، أمّا في (c) فقد وقع الاكتفاء بذكر طرف مشارك واحد:

1- تقرأ الأشكال من الشمال إلى اليمين.

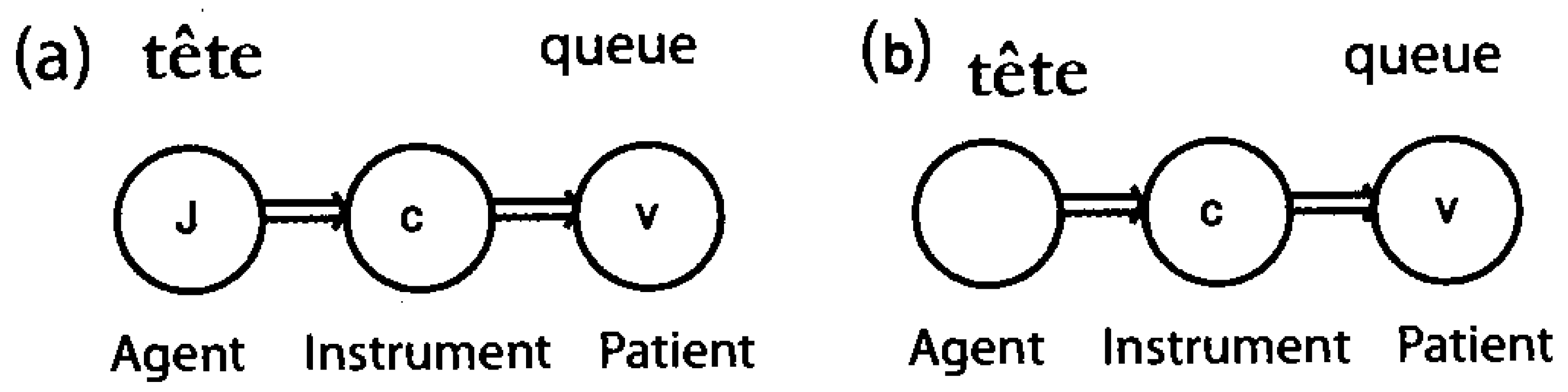

(a) Jeant a cassé lavitre avec un caillou.
(b) Un caillou a cassé la vitre.

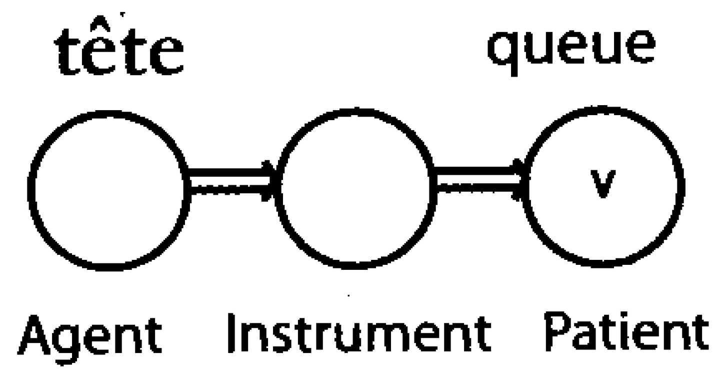

(c) Lavitre a cassé

الشكل (2): سلسلة أحداث

كاملة في (a) وجزئية في (b) ودنيا في (c)

ويكون المسند إليه في الجملة عادة رأس سلسلة الحدث بينما تكون المفاعيل وخاصة منها الأخير في المرتبة ذيل السلسلة. مع الملاحظ أنّه يمكن للمتكلم أن يختار من بين الأطراف المشاركة في الحدث عنصرا آخر غير القائم بالفعل فيجعل منه مسندا إليه في الجملة بقطع النظر عن دوره الدّلالي، بل يمكنه أحيانا أن يختار الإطار المكاني أو الإطار الزماني فيجعل منه مسندا إليه كما في الجمل التي من نوع " شهدت هذه القاعة مناقشات حادة".

3. مناويل عرفانية أخرى

إنّ تحديد خصائص تصوّر حدث ما وصياغته صياغة لغويّة يقتضيان منا أن نولي اهتماما خاصّا لبعض الإعتبارات الأساسيّة التي تخصّ الطاقة والزمان والوجود في موضع ما la localisation والأطراف المشاركة في الحدث. هذه الإعتبارات ترجع إلى مناويل عرفانية مختلفة متمايزة وإن كانت تربط بينها علاقات عضوية متينة.

ولذلك فبالإضافة إلى المنوالين الأساسيين السّابقين اللذين قدّمناهما، يمكننا أن نكتفي بأن نستعرض بسرعة منوالين آخرين هما منوال الوحدات المراجع le modèle des points de référence ومنوال الواقع le modèle de la réalité، إلا أننا سنخصّص بعد ذلك فقرة طويلة لنظرية النموذج النمطي la théorie du prototype باعتبارها منوالا أساسيّا اعتمده كل العرفانيين في تصنيف التمثلات والتصوّرات والوحدات اللغوية.

1.3. منوال الوحدات المراجع

من بين الخصائص المميّزة لمعرفتنا للعالم تلك التي تجعلنا ننظر إلى العالم المحيط بنا على أنه عامر بعدد كبير من الأشياء والذوات المتنوّعة، ونعتبر أنّ بعض هذه الأشياء بارز أكثر من البعض الآخر، ولذلك يلجأ المتكلم إلى استعمالها مرجعا للإشارة إلى الأشياء الضعيفة البروز وتعيينها. هذا المنوال مفيد في تحليل خصائص الإضافة في اللغة مثلا، وفي إبراز خصائص الأبنية غير الشخصية les constructions impersonnelles وما وقع الاصطلاح على تسميته بعبارة les topicalisations.

2.3. منوال الواقع

مظهر آخر من مظاهر صياغتنا للأحداث صياغة لغوية وتعبيرنا عن الأحداث باستعمال اللغة هو اعتبار أنّ الحدث متصوّر على أنّه موجود في الواقع أو خارج الواقع. ويشمل هذا المنوال ما قد حصل من الأحداث وانقضى، وما هو بصدد الحصول، وما سيحصل في المستقبل. ويمكن استغلال هذا المنوال لتحليل مقولتي الزمن والجهة la modalité، وللتمييز بين جهتي l'indicatif و le subjonctif في لغة كالفرنسية.

فالأحداث التي ستحصل في المستقبل لا تحصل اتفاقا، وإنما هي مظهر من مظاهر تطور الواقع، فحركه التطور تسيّر الواقع وتقوده حسب عدد محدود من المسالك الممكنة، وتستبعد في الآن نفسه مسالك أخرى. وتمثل المسالك التي يمكن للواقع أن يتطور حسبها وأن ينتهي إليها ما يمكننا تسميته بالواقع المحتمل la réalité potentielle. فالفعل pouvoir في الفرنسيّة مثلا يضع الحدث ويحلّه في الواقع المحتمل في جمل مثل:

(3) Je ne vois pas de lumière, il peut rentrer chez lui que demain.

وقد يحدث كذلك أن يكون الواقع مقيّدا إلى درجة أنّ وقوع حدث ما في المستقبل يمكن التنبؤ به لأن القيود المسلطة على الواقع تقوده وتسيّره نحو مسلك واحد، ونجد مثل هذه الحالات في ما يمكن تسميته بالواقع الراجح la réalité projetée. انظر مثلا الفعل الفرنسي "devoir" الذي يضع الحدث ويحله في الواقع الراجح في جمل من نوع:

(4) Il a laissé la porte ouverte, il doit revenir bientôt.

5. نظرية النموذج النمطي

تمثل نظرية النموذج النمطي la théorie du prototype نظرية أساسيّة تناسب المقاربات العرفانية، وقد أطلق عليها Georges Lakoff اسم الواقعيّة التجريبيّة le réalisme expérienciel. ويقترح هذا التصوّر إجابات جديدة عن تساؤلات قديمة تهمّ الفهم والذكاء البشريين. إنها تساؤلات من نوع: ما العقل؟ كيف ينظم الإنسان تجاربه؟ ماذا تعني عبارة " نظام تصوّري" un système conceptuel ؟ ما هي بنية هذا النظام؟ وكيف تنتظم مكوّناته؟ وهل أنّ كل الآدميين يستعملون نفس النظام التصوّري أم لا؟

في إحالة الإجابة بالإيجاب، نواصل فنتساءل: ما هو هذا النظام؟ أمّا في حالة الإجابة بالسّلب، فإنّنا نواصل بطرح السّؤال التالي: ما هي الخصائص المشتركة بين أنظمة التصوّر التي يستعملها الآدميون؟

1. الموضوعية والواقعية التجريبيّة

توجد بالطبع إجابات قديمة تقليديّة عن هذه التساؤلات ورثناها عن التراث اليوناني وظلت تحكم تصوّرات عدد كبير من الباحثين وتسيطر عليها إلى يومنا هذا. هذه الإجابات التي جمعها "لايكوف" تحت تسمية التيار الموضوعي l'objectivisme، يمكن تلخيص أهمّ فرضياتها في النقاط التالية:

- إنّ العقل مجرّد وليس له أيّ علاقة بالجسد ولا بما هو ماديّ ملموس.

- إنّ عملية التفكير le raisonnement تتصل بمجموعة من القضايا التي يمكن وصفها موضوعيا بالصدق أو بالكذب (le vrai ou le faux).

- إنّ الفكر منطقي بالمعنى الذي حدّده الفلاسفة والمناطقة لهذه الصّفة، ولذلك يمكن تحديد خصائصه باستعمال أنظمة من نوع الأنظمة الرياضية.

- إنّ الفكر يعكس الطبيعة باستعمال رموز مجردة خاصة به لتمثل الواقع الخارجي.

أمّا الواقعيّة التجريبيّة التي كانت ثمرة الإلتقاء والتلاقح اللذين حصلا بين عديد الإختصاصات، أي بين علم النفس واللسانيات والفلسفة والذكاء الاصطناعي والإعلاميّة، فإنّها تقترح إجابات مختلفة عن الإجابات التقليديّة التي يقترحها التيار الموضوعي، ويمكننا تلخيصها فيما يلي:

- تعتبر الواقعيّة التجريبية أنّ الفكر متجسّد la pensée est corporalisée وأنّ أبنية الإنسان التصورية مأتاها تجربته الجسديّة الماديّة، بل أنّ الأبنية التصورية لا تكتسب كل معناها وكل قيمتها إلا من خلال علاقتها بتجارب الإنسان المادية وإدراكه إدراكا حسيا لما حوله.

- تولي الواقعيّة التجريبيّة مكانة أساسيّة لكل ما هو خيال وتخيّل، وتبعا لذلك لكل ما هو استعارة وكناية وصور ذهنيّة في نظامنا التصوّري.

- ثم إنّ الواقعية التجريبية تتخلى عن الرّؤية المنطقية للفكر والتفكير، وتعتبر أنّ الفكر إنّما يشتغل باستعمال صور كليّة شاملة Gestalt، لا بجمع أو ضمّ مكوّنات جزئيّة لتشكيل صورة مركبة.

هاتان النظريتان تتفقان في نهاية الأمر في الإعتراف بوجود عالم واقعي، وبوجود معرفة قارّة لهذا العالم، إلا أنّهما تعالجان قضية التصنيف، تصنيف الأشياء وإدراجها ضمن مقولات، بطريقتين مختلفتين متباينتين.

2. عمليّة التصنيف

إنّ عمليّة التصنيف عمليّة أساسيّة ضروريّة لا بدّ منها لإرساء كل أنواع المعارف والعلوم، وتتمثل أساسا في إرجاع التعدّد إلى الوحدة وإرجاع الخاص إلى العامّ. إنّها عملية تسمح لنا بأن نضع مجموعة من الأشياء والموجودات في صنف واحد، وتمكننا من أن نضع آلاف الموجودات في عدد محدود ومحدود جدّا من الأصناف والمقولات. وهذه العملية حاضرة في كل عملياتنا

الفكرية، كما أنها موجودة في كل أنشطة الآدميين من إدراك للأشياء التي حولهم إدراكا حسيّا، وفي الكلام واللغة وفي كل الأعمال التي ينجزونها. فكلما أدرك الواحد منا شيئا مفردا باعتباره نوعا ينتمي إلى هذا الصنف أو ذاك، فذلك يعني أنّه قام بعمليّة تصنيف للأشياء ووضعها ضمن مقولات.

فالتصنيف والمقولات أمران أساسيان في حياتنا وإن كنا نتعامل معهما بطريقة غير واعية في أغلب الأحوال. إنّهما عنصران أساسيان في التنظيم الذي نخضع له تجاربنا ونفرضه عليها. ولولا هذه القدرة التي بحوزة الإنسان والتي تسمح له بتجاوز الذوات المفردة مادية كانت أم مجرّدة والوصول إلى تنظيم تصوّري لكان محيطنا والوسط الذي نعيش فيه فوضويّا متجدّدا على الدّوام ولكنا مضطرين إلى إدراك كل شيء موجود على أنّه فريد ولكان مصيرنا الغرق في التنوّع المطلق واللامحدود لتجاربنا.

إذن فالفكر البشري يتعامل أساسا مع المقولات ويشتغل باستعمال المقولات، وأغلب التصوّرات والتمثلات الذهنيّة تستعمل مقولات لا موجودات بعينها. ولذلك فمن الضروري لكل من يريد أن يقدّم مقاربة للفكر والتفكير البشريين أن يقدّم اقتراحا واضحا أو فرضيّة واضحة تبيّن الطريقة التي يتمّ بها التصنيف إلى مقولات، أي أن يكون له تصوّر واضح للطريقة أو للطرق التي يتمّ بها تصنيف الأشياء إلى مقولات.

كيف يتمّ التصنيف إذن حسب أنصار التيار الموضوعي وحسب أنصار التيار الواقعي التجريبي؟

يذهب أنصار التيار الموضوعي إلى أنّ التصنيف إلى مقولات يقوم على أساس الخصائص أو السّمات المشتركة les propriétés communes، أي أنّ العناصر التي تنتمي إلى نفس المقولة يجب أن تكون لها نفس السّمات والخصائص. فإن بدا لك أنّ شيئا ما شجرة، فهذا يعني أنّ لهذا الموجود كل الخصائص التي تحدّد مقولة الشجرة. فالإنسان حسب هذه الرّؤية يضع الموجودات ضمن نفس المجموعة على أساس الخصائص المشتركة بينها.

أمّا أصحاب التيار الواقعي التجريبي فإنّهم ينظرون إلى القضية من وجهة نظر أخرى مختلفة تماما، إذ أنّهم يعتمدون نظرية النموذج النمطي التي تمثل

قطيعة مع التصوّر الأرسطاليسي الكلاسيكي للمقولة. فالتصنيف إلى مقولات عندهم لا يجعل من الخصائص المشتركة بين العناصر شرطا ضروريا للانتماء إلى المقولة. وهم بذلك يتخلون عن المقولات التي تنعت بأنّها مقولات منطقية يقع تحديدها بالإلتجاء إلى قائمة من الشروط الضرورية والكافية les conditions nécessaires et suffisantes (CNS)، ويتبنّون تحليلا للمقولات التي تنعت بأنّها مقولات طبيعية des catégories naturelles، تحليلا يرمي قبل كل شيء إلى وصف البنية الداخلية والبنية الخارجيّة للمقولة باعتبار الوظائف المتصلة بها.

3. منوال الشروط الضرورية والكافية (le modèle des CNS)

تقوم عملية التصنيف في هذا المنوال على افتراض وجود خصائص مشتركة، أي أنّه يقع إدراج مجموعة من الموجودات أو الأشياء ضمن نفس المقولة إذا كان لتلك الموجودات عدد من الصفات المشتركة. فإذا توفرت في موجود ما الخصائص المشتركة بين القطط أمكن اعتباره قطّا وإدراجه ضمن مقولة القطط. هذه الصفات المشتركة لا بدّ من توفّرها جميعا في عنصر من العناصر كي يتسنّى إدراجه ضمن المقولة التي تحدّدها تلك الصفات والخصائص.

هذا المنوال الأرسطاليسي يقوم في نهاية الأمر على مجموعة من المفاهيم والفرضيات التي يعتبرها أنصار هذا المنوال مسلما بها، والتي يمكننا أن نذكر أهمّها في ما يلي:

أ- إنّ المتصوّرات والمقولات وحدات تفصل بينها حدود صريحة واضحة.

ب- إنّ انتماء وحدة معيّنة إلى هذه المقولة أو تلك يستجيب لمستلزمات نظام قائم على المقابلة بين الصدق والكذب، بين الإيجاب والسلب. فالعنصر إما أنّه من صنف القطط وإمّا أنّه ليس من صنف القطط بحسب ما إذا توفرت فيه أو لم تتوفر فيه كل الشروط الضرورية والكافية للانتماء إلى مقولة القطط.

ج- إنّ العناصر التي تنتمي إلى مقولة ما متساوية في مدى انتمائها إلى تلك المقولة (tous les membres ont un statut catégoriel égal)، ما دام

لكل منها نفس الخصائص والصّفات التي يقتضيها حدّ المقولة. وهذه الخصائص منفصلة، مستقلة عن بعضها البعض[1].

ولا يفوتنا أن نلاحظ هنا أنّ الإستناد إلى منوال كهذا في دراسة المعاني المعجمية مثلا سيؤدّي حتما إلى اعتبار مجموعة الشروط الضرورية والكافية لإدراج عنصر ما ضمن مقولة ما ممثلا للمعنى المعجمي للعبارة أو المفردة التي تطلقها اللغة على تلك المقولة أو تستعملها للإشارة إليها. وبالتالي فمعنى مفردة ما سيكون متكوّنا من مجموعة من السّمات المستقلة عن بعضها البعض.

هذا المنوال يثير رغم شيوعه عددا كبيرا من المشاكل التي يمكننا أن نكتفي بالإشارة إلى أهمّها في النقاط التالية:

- إنّه منوال يستبعد ولا يأخذ بعين الاعتبار السّمات العرضية أو قل الأعراض الممكنة الوجود في تعريف معنى العبارة المعجميّة الذي يؤدّي إليه. ولذلك نلاحظ أنّ أنصار هذا المنوال يميّزون دائما بين المكوّنات المعنوية اللغوية والمكوّنات المعنويّة غير اللغويّة في اعتبارهم، بين المعنى اللغوي le sens linguistique والمعنى الخارج عن نطاق اللغة le sens extralinguistique الذي ليس لعالم اللغة أن يأبه به. إنّه منوال لا يحتفظ إلا بالسّمات والخصائص الضرورية والكافية.

- إنّ هذا المنوال لا يمكن تطبيقه على عدد هامّ من قطاعات المعجم، فالألوان مثلا لا يمكن إخضاعها إلى تحليل يعتمد توفر مجموعة من السمات الضرورية المشتركة، إذ لا يوجد شرط ضروري آخر غير شرط اللون مثلا يمكنه أن ينطبق على صفات مثل الأحمر والأزرق والأصفر ويصدق عليها جميعا.

- بل إنّنا نتبيّن بسرعة حدود هذا المنوال حتى في قطاع الأجناس الطبيعيّة، إذ كيف يمكننا مثلا أن نقوم بضبط الشروط الضرورية والكافية التي تصدق على كل الطيور الموجودة في عالمنا. فالخصائص التي

1- الخصائص التي تحدّد مقولة الطير مثلا (أن يكون له منقار + أن يكون له جناحان + أن يتكاثر بوضع البيض لا بالولادة + أن يكون قادرا على الطيران، إلخ) ليس بينها أي علاقة تذكر.

من نوع " حيوان" و" له منقار" و" جسمه مكسوّ بالريش" و" له جناحان" لا تسمح بالفصل بين مقولة الطيور والمقولات الأخرى.

أضف إلى ذلك أنّ هذه السّمات التي تبدو مميّزة للطيور ليست مشتركة بين كل العناصر التي نعتبرها طيورا، فالنعامة مثلا والبطريق والأفراخ لا تطير. أمّا الكيوي (وهو طائر من طيور زايلندا الجديدة) فليس له أجنحة. وهكذا لا يمكن في نهاية الأمر تحديد مقولة الطيور بالاستناد إلى الشروط الضرورية والكافية، لأنّ هذا المنوال بافتراضه وجود حدود واضحة فاصلة بين المقولات أصبح منوالا متصلبا ليس له من المرونة ما يسمح له بأن ينطبق على كل الحالات التي تمثلها العناصر المنتمية إلى نفس المقولة ولا سيما الحالات الهامشية منها.

- أضف إلى ذلك أن تنظيمه الداخلي للمقولة على أساس الجامع أو القاسم المشترك تنجم عنه عدّة عيوب ونقائص نذكر منها اثنين على الأقلّ:

1. أوّلهما أنه يفترض وجود تجانس كبير بين العناصر التي تنتمي إلى نفس المقولة ما دامت هذه العناصر متكافئة متساوية في مدى انتمائها إلى المقولة، والحال أنّنا نشعر جميعا أنّ العصفور le moineau مثلا هو أفضل من يمثل مقولة الطيور. إنه يمثل على الأقل هذه المقولة أكثر مما تمثلها الإوزة أو النّعامة. أي أنّ هناك تدرّجا في البنية الدّاخلية للمقولة، بالإضافة إلى أنّ العناصر المختلفة لا تنتمي إلى المقولة بنفس الدّرجة.

2. أمّا العيب الثاني فيتمثل في أنّ الإكتفاء بالشروط الضرورية والكافية والإحتفاظ فقط بهذا النوع من الشروط لا يسمح بتفسير انتماء بعض العناصر إلى المقولة، ونعني بذلك ما لم يكن مركزيا من تلك العناصر، وهذا يؤدّي إلى استبعاد خصائص كان من الأفضل الإحتفاظ بها في تعريف معاني المفردات، والإبقاء عليها ضمن حدّ المقولة.

المهمّ أنّ هذا المنوال لاقى صعوبات كثيرة خاصّة في دراسة الظواهر اللغوية ووجد أنصاره أنفسهم عاجزين عن تحليل ظاهرة أساسية مثل ظاهرة تعدّد المعاني la polysémie. فمعالجة قضية كهذه باعتماد منوال الشروط الضرورية والكافية تجعل الباحث أمام خيارين. أوّل هذين

الخيارين أن يعتبر أنّ مختلف المعاني التي يمكن لمفردة أن تعبّر عنها في سياقات مختلفة معان متفاصلة لا علاقة بينها، ويحلّ الإشكال بأن يعتبر أنّ تلك الوحدة اللغوية هي من باب المشترك اللفظي les homonymes، ويكون عدد المقولات التي يقرّها مساويا لعدد المعاني المختلفة التي تعبّر عنها الوحدة اللغوية في مختلف السياقات. هذا الحلّ يمكننا أن نعدّه حلا مقبولا بالنسبة إلى الوحدات اللغوية التي لها أكثر من معنى والتي لا نرى بشأنها أي علاقة ممكنة بين المعاني المختلفة التي تؤدّيها، كما هو الحال بالنسبة إلى كلمة avocat الفرنسيّة التي قد تشير إلى الثمرة المعروفة وقد تشير إلى المحامي الذي يدافع عن المتهمين أمام المحاكم. إلا أنّه لا يمكن قبول حل كهذا إذا كانت العلاقة واضحة بين المعنيين أو بين المعاني المختلفة التي تعبّر عنها الوحدة اللغوية، كما هو الحال بالنسبة إلى كلمة veau الفرنسيّة التي تشير إلى الحيوان ذاته في الجملة "j'ai acheté un veau hier"، وإلى لحم نفس الحيوان في الجملة "j'ai mangé du veau à midi".

أمّا بالنسبة إلى ما يهمّنا في دراسة اللغة، فلا بدّ من أن نلاحظ أنّ منوال الشروط الضرورية والكافية لا يسمح لنا بوضع حدّ يصدق على كل أنواع الجمل في لغة مثل اللغة العربية. وإلا فما هي الشروط الضرورية والكافية التي تسمح لنا بأن نعتبر أنّ تركيبا ما ينتمي أو لا ينتمي إلى مقولة الجمل؟ ما هي الشروط الضرورية والكافية التي تصدق مثلا على كل المركبات الإسمية الممكنة في اللغة العربية (مثل: الجبل، كاتب، قراءة الجريدة، إنشاد علي القصيدة، أن تصوموا، أنّه صادق...) ؟

4. منوال النموذج النمطي

1.4. تعريف المفهوم

ظهر مصطلح النموذج النمطي le prototype [1] بالمفهوم الذي يهمّنا في هذا المقال أوّل ما ظهر في دراسات علم النفس وعلم الأجناس، وخاصّة في المقال الذي نشرته الباحثة Eleonor Rosch سنة 1973 والذي عنوانه "المقولات

1- سنكتفي ابتداء من الآن باستعمال كلمة النموذج للإشارة إلى هذا المفهوم وذلك رغبة منا في الاختصار.

الطبيعيّة". وعرّفت Rosch في مقالها ذاك النموذج النمطي بأنّه المثال المركزي l'exemplaire central، أي أفضل ممثل للمقولة le meilleur représentant de la catégorie، أو قل أكثر العناصر تمثيلا للمقولة. ويستند هذا التعريف للنموذج على الفكرة الأساسية التي مفادها أنّ المقولات لا تشتمل على عناصر متساوية في تمثيلها للمقولة، وإنّما تكون بعض العناصر التي تنتمي إلى نفس المقولة ممثلة تمثيلا للمقولة أفضل من تمثيل البعض الآخر لها. فالمقولة تشتمل على عناصر متفاوتة في مدى تمثيلها لها. والناطقون باللغة الفرنسية يعتبرون مثلا أنّ التفاح أفض ممثل لمقولة الغلال، لأنه يمثلها في اعتبارهم (أو قل في ما اتفقوا عليه في ثقافتهم وفي ما استقرّ في وعيهم الجماعي) أكثر ممّا يمثلها الإجّاص أو السفرجل أو التين الهندي أو الزيتون مثلا. وهم يذكرون بعد التفاح باعتبار الترتيب التنازلي لمختلف العناصر المنتمية إلى هذه المقولة في سلّم مراتب التمثيل l'échelle de représentativité البرقوق، فالأناناس فالفراولة فالتين.

ولا بدّ من الإشارة منذ الآن إلى أنّ علماء النفس قد ربطوا مفهوم النموذج منذ نشأته ربطا أساسيّا بالأشخاص، أي أنّ النموذج هو المثال الذي تواضع عليه متكلمو لغة من اللغات، أو قل الأشخاص الذين ينتمون إلى ثقافة معيّنة. فالنموذج لا يكون عادة مشتركا بين مختلف الثقافات ولا بين مختلف الأجناس. إنّه العنصر الذي يعتبره شعب أو أمّة ما ممثلا لمقولة ما أحسن تمثيل. ولذلك يتمتّع هذا العنصر النموذج بنوع من الاستقرار لدى المتكلمين ويحظى بإجماعهم، أي أنّه توجد في ذاكرة المتكلمين تمثلات دلاليّة ذهنيّة des représentations mentales قارّة ثابتة إلى حدّ لا يستهان به، ويكون موضوع دلالة النموذج منحصرا في وصف حقل المعرفة النموذجية المشتركة. وهكذا يعتبر عنصر ما أفضل نموذج لهذه المقولة أو تلك إن كان اعتباره كذلك متواترا بين المتكلمين كلما طلب منهم تعيين نموذج المقولة موضوع السّؤال. ويكون النموذج بهذه الطريقة مرتبطا في الأذهان بالمقولة، أي أنّ هناك نوعا من الاصطلاح والتواضع بشأن النموذج لدى المتكلمين. وتستمدّ مراتب التمثيل les degrés de représentativité التي تسند إلى مقولة ما شرعيّتها بين متكلمي نفس اللغة من ذلك التواضع والاصطلاح.

ولا بدّ من أن نلاحظ في هذا الصّدد أنّنا عندما تسأل متكلم لغة من اللغات مثلا عن أفضل ممثل لمقولة الطيور أو مقولة الأثاث أو مقولة وسائل النقل، فإنّه لا يجيبك بذكر فرد معيّن من الأفراد الذين تصدق عليهم المقولة وإنّما يجيبك بذكر مقولة فرعيّة من تلك التي تتكوّن منها المقولة. أي أنه لا يجيبك مثلا بقوله "هو عصفور أختي"، أو "التفاحة التي أكلتها أمس"، وإنّما يجيبك بقوله " العصفور" أو " العقاب" بالنسبة إلى مقولة الطيور، وبقوله "الكرسي" بالنسبة إلى مقولة الأثاث.

بالطبع قد يبدو لنا أنّ بعض الإجابات مناقضة لهذا المبدأ. فعندما تسأل أحدهم مثلا عن نموذج لاعب التنس أو لاعب كرة القدم، فقد يجيبك المخاطب بذكر اسم لاعب محترف معروف مثل Nadal أو " زين الدين زيدان"، إلا أنّ مثل هذه الإجابة تخفي في الواقع الطريقة التي يعتمدها المتكلمون في إدراك النماذج وتصوّرها لأنّ إجابة الشخص الذي سألته في مثل هذه الحالة إنّما تعيّن فردا يعتبر مثاليا، أي أنّ المقصود بالإجابة ليس الفرد أو الشخص عينه، وإنّما طريقته في اللعب التي يعتبرها المخاطب مثالية. لذلك يمكننا أن نؤكد أنّ الصّورة المجردة لأفضل ممثل للمقولة ليس المقصود منها الذات المفردة وإنّما المقصود منها المتصوَّر le concept، أي الذات المجرّدة. وهذا ما يؤسّس في رأينا أهمية نظرية النموذج بالنسبة إلى كل من يريد دراسة المعنى والدّلالة ومختلف الظواهر اللغوية.

2.4. المقولات والتصنيف المقولي

يقوم هذا التصوّر على مجموعة من الفرضيات والإعتبارات التي سنذكر أهمّها فيما يلي:

ا- للمقولة بنية داخلية، وهذه البنية تقوم على مراتب تمثيل المقولة، أي أنّ البنية الدّاخليّة للمقولة بنية سُلميّة une structure scalaire.

ب- إنّ درجة تمثيل عنصر من العناصر لمقولة ما رهينة مدى انتمائه إلى المقولة وبذلك يحتلّ النموذج الموقع المركزي ويكوّن الوحدة المركزية التي تنتظم حولها المقولة كلها، وتحتل العناصر التي تعدّ أمثلة رديئة أو ضعيفة للمقولة مواقع أو مواضع بعيدة عن المركز وتكون قريبة أكثر فأكثر من حدود المقولة بحسب مدى رداءة تمثيلها للمقولة أو ضعف تمثيلها لها.

فالانطلاق يكون من المركز الذي يوجد فيه أفضل ممثل للمقولة ويقع التدرّج شيئا فشيئا من أكثر العناصر تمثيلا لها إلى أقلّ العناصر تمثيلا لها، وهكذا حتى نصل إلى الحدود، أي إلى المواضع التي تستقرّ فيها أضعف العناصر تمثيلا لها. فدرجة الإنتماء مرتبطة بدرجة التمثيل، ولذلك تكون للعصفور مثلا درجة تمثيل لمقولة الطيور مرتفعة أكثر من الدرجة التي للإوزّة، أي أنّه كطائر هو أفضل من الإوزّة، هو "أكثر طيرا" منها.

ج- ويترتّب عن كل ما ذكرناه أنّ الحدود بين المقولات وبالتالي بين المفاهيم ليست في الحقيقة حدودا صريحة واضحة، وإنّما هي حدود ضبابيّة غائمة باهتة.

وإذا كانت درجة التمثيل تحدّد درجة الانتماء فإنّه لا يمكننا أن نعتبر أنّ انتماء العناصر التي ندرجها ضمن نفس المقولة يخضع إلى توفر مجموعة من الشروط الضروريّة والكافية.

وهنا يبرز سؤال يفرض نفسه علينا وهو الآتي: إن لم تكن هناك شروط ضروريّة وكافية تربط بين العناصر التي تنتمي إلى نفس المقولة، فما هي العلاقة التي يمكنها أن تربط بين هذه العناصر وتوحّد بينها؟ أو بعبارة أخرى، إن نحن تخلينا عن الشروط الضرورية والكافية، فما هو البديل الذي يمكننا أن نقترحه؟

د- حسب المنوال الذي يعتمد نظرية النماذج النمطية، لا توجد ضرورة سمات مشتركة أو خصائص مشتركة بين كل العناصر التي تنتمي إلى نفس المقولة، وإنّما يوجد بينها نوع من الشبه الأسرويّ une ressemblance de famille، أي شبه يجمع بين أفراد الأسرة الواحدة، ويكون التنظيم الداخلي للمقولة هو الذي يسمح بوجود علاقات بين تلك العناصر دون أن تكون هناك ضرورةً سمة أو مجموعة سمات مشتركة بينها جميعا لتحديد المقولة. فكلّ عنصر له على الأقلّ سمة يشترك فيها مع عنصر آخر أو مع مجموعة من العناصر، لكن لا توجد سمة أو خاصية واحدة تشترك فيها كل العناصر. وميزة مفهوم الشبه بين أفراد الأسرة الواحدة، أي بين عناصر المقولة، تتمثل في أنّه يبيّن كيف أنّ اجتماع العناصر ضمن المقولة الواحدة لا يعود إلى الصّدفة، وأنّه ليس قائما كذلك على تماثل راجع إلى شروط ضرورية

وكافية. إنّ ما يجمع بين هذه العناصر المختلفة إنما هي ضروب من الشبه متقاطعة des ressemblances qui s'entrecroisent.

ولا يفوتنا في ختام هذه الفقرة أن نلحّ على أنّنا لا ندرج إذن عنصرا ما داخل مقولة من المقولات بعد التثبّت من اشتماله على السمات المحدّدة للمقولة، وإنّما نصنّف العناصر انطلاقا من مقارنتها بنموذج المقولة، انطلاقا من مدى شبه العنصر موضوع التصنيف بالنموذج النمطي.

5. نظرية النموذج النمطي والدّراسات اللغويّة

إنّ علماء اللغة كانوا ولا يزالون إلى يوم الناس هذا محتاجين ومتعطشين إلى نظرية تشفي الغليل وتسمح لهم كما تسمح لكل العلماء بإرجاع الكثرة إلى القلة وبإدراج المعطيات التي لا حصر لها في مقولات معدودات. وحاجتهم إلى ذلك قديمة خصوصا وأنّ أغلب المقترحات التقليديّة القديمة لا تصدق إلا على جزء ضئيل نسبيّا من المعطيات لا يمثل في الحقيقة أي إشكال. أمّا المعطيات المشكلة فإنّها ظلت عبر التاريخ تؤرّق الباحثين وتضطرّهم إلى تأويلات غريبة لا مبرّر لها وألعاب بهلوانيّة ما أنزل الله بها من سلطان، وذلك سواء في مستوى دراسة المعجم أو في مستوى تحديد المقولات الصرفية النحوية أو في مستوى تعريف التراكيب النحوية.

لا شكّ أنّ هذا الوضع، بالإضافة إلى أنّ كل نظريّة تتعلق بالمقولات تؤدّي إلى نظرية دلالية تقترح رؤية جديدة وتصوّرا جديدا للتصنيف ولدراسة المعنى، جعل اللغويين يهتمّون بنظرية النموذج النمطي ويحاولون أن يعيدوا النظر في ما دأبوا عليه وما ألفوه من مقاييس وتصوّر للأشياء. ولذلك اتخذ بعضهم، وخاصّة منهم أولئك الذين سيصرّحون بتبنّيهم للمقاربات العرفانية، نظريّة النموذج النمطي مثالا يحتذونه ليجعلوا منه نظرية دلاليّة تسمح بتصوّر جديد لمعاني الكلمات ولتصنيف المعطيات المتعدّدة وإدراجها ضمن عدد محدود من المقولات.

هذا الاختيار سيسمح لهم بالإعراض وبالتخلي عن التعريفات المرجعيّة الكلاسيكيّة القائمة على الشروط الضرورية والكافية لتعويضها بعمليات أساسها المقارنة بين المعنى موضوع الدرس والمعنى النموذجي للوحدة اللغوية المعنيّة في حالة دراسة المعاني المعجمية، أو بين العنصر المراد تصنيفه ونموذج

المقولة، والنظر في مدى الشبه بين طرفي عملية المقارنة. إلا أنّ معالجتهم للمعطيات اللغوية جعلتهم يحيدون بعض الشيء عمّا جاء في نظرية النموذج النمطي كما ظهرت في بدايتها في دراسات علماء الأجناس وفي مقال Eleonor Rosch المذكور في بداية هذه الدّراسة، لأنّهم لم يقتنعوا بأنّ النموذج النمطي لمقولة من المقولات يمكنه أن يكون شيئا بعينه une instance particulière أو حدثا مفردا une occurrence spécifique، أو مقولة فرعية une sous-catégorie مثل التفاح بالنسبة إلى مقولة الغلال أو الكرسي أو المائدة بالنسبة إلى مقولة الأثاث. وانطلاقا من هذه الاعتبارات وقع تطوير مفهوم النموذج النمطي ليصبح عبارة عن متصوّر ذهني un concept mental، أو حدث ذهني un événement mental. وبالتالي فعندما نقول إنّ العصفور هو النموذج النمطي لمقولة الطيور، فهذا يعني أنّ كلمة النموذج لا تحيل على فرد بذاته ولا على مقولة فرعية معيّنة من بين تلك التي تندرج ضمن مقولة الطيور وإنّما تشير إلى وحدة مجرّدة. فالنموذج النمطي صورة عرفانية مجرّدة une image cognitive يكوّنها المتكلمون ذهنيّا لتمثل المقولة. إنّ النموذج شيء ذهني، صورة مجرّدة مرتبطة في أذهان المتكلمين بوحدة لغوية. والنموذج بهذا الإعتبار، خلافا لما ذهبت إليه E.Rosch ومن لفّ لفّها، عبارة عن بنية ذهنيّة ناتجة عن مجموعة من العمليات العرفانية كما تبيّن ذلك في أعمال Langacker الذي اهتمّ أساسا بالنحو العرفاني وأعمال غيره من العرفانيين من أمثال L. Talmy وJackendoff وVandeloise وغيرهم كثيرون.

المفاهيم والمقولات الأساسية في نظرية لانقاكر

1. المدلولات les prédicats

يقوم النحو العرفاني الذي يقترحه رونالد لانقاكر على تصنيف للمقولات يستند إلى مفهوم الصّورة المجرّدة أو الخطاطة schéma، والخطاطة عبارة عن مثال مجرّد، عن متصوَّر يشتمل على عدد محدود جدًّا من الخصائص والتفاصيل. عدد هذه الخصائص أقلّ بكثير من تلك التي تتوفر في العناصر التي تجسّد ذلك المثال وتنتمي إليه. هو إذن عبارة عن صورة إجماليّة عامّة لمختلف العناصر التي تنتمي إلى المقولة. فالعناصر التي تعتبر أسماء مثلا في لغة ما ليست إلا أمثلة للصّورة المجرّدة التي لمقولة الإسم. وقل نفس الشيء بالنسبة إلى المقولات الصرفية النحوية الأخرى.

إنّ اختيار هذا المنوال باعتباره أنسب المناويل التي يمكن اعتمادها في عملية التصنيف واختيار تصوّر خاصّ للدّلالة حملا لانقاكر على اقتراح مجموعة من التعريفات التصوّرية العرفانية لمختلف المقولات اللغوية الأساسيّة.

يستعمل لانقاكر مصطلح " المدلول" أو " المدلولات" le prédicat للإشارة إلى الأبنية الدّلالية مهما كان حجمها. ويقع ضبط خصائص هذه الأبنية بالإعتماد على المجالات العرفانية les domaines cognitifs التي تحيل عليها. والمجال الدّلالي مفهوم وقع التواضع عليه للإشارة إلى كل ما قد يكون مجرّد تجربة حسيّة أو حتى نظاما كاملا من المعارف. بعض هذه المجالات أوّلي لا يمكن تحليله إلى أجزاء أو مكوّنات أكثر بساطة، مثل تجربتنا للزمان وتجربتنا للمكان وإدراكنا الحسي للألوان، وما إلى ذلك. إلا أنّ أغلب المجالات العرفانية التي تتطلبها اللغة ليست مجالات أوّلية وإنّما هي تتضمّن أبنية عرفانيّة على درجة كبيرة من التعقيد.

والمدلول لا يشير عادة إلى مجال واحد، وإنّما يشير بصفة خاصّة إلى مجموعة من المجالات تعتبر ضروريّة لتحديد خصائصه وتمثل ما يسمّى بحقل المدلول le champ du prédicat. هذه المجالات المتعدّدة تمكن من تحديد جوانب مختلفة من المدلول المشار إليه. أمّا الإختلاف والتباين بين مدلولين فإنّه يرجع عادة إلى عدد المجالات التي تحيل عليها العبارة اللغوية وإلى مدى بروز بعضها على حساب البعض الآخر. فكل المجالات ليس لها نفس الوزن ولا نفس القيمة، وأهمّها المجال الرئيسي le domaine primordial. انظر مثلا إلى الفروق بين العبارات "كتابات" و" منشورات" و" آثار" التي وإن كان لها نفس المرجع فإنّها تختلف في ما بينها من حيث الأهميّة التي توليها كل منها إلى مجال ما دون المجالات الأخرى.

وتنقسم مدلولات العبارات إلى نوعين: مدلولات اسميّة ومدلولات علائقيّة، والفرق بين النوعين لا يكمن في المضمون وإنّما يتمثل في طريقة التنظيم الذهني والتشكيل العرفاني للمضمون. فعبارتا " يكتب" و" كتابة" لهما نفس المضمون الدّلالي، ما دامتا تشتملان على نفس المضمون المتكوّن من أشياء وعلاقات، إلا أنّهما تختلفان في العمليات العرفانية التي تنظم ذلك المضمون المشترك. فمدلول الاسم وإن اشتمل على علاقات فإنّه يبرز الأشياء التي تربط بينها تلك العلاقات، بينما يبرز مدلول الفعل العلاقات وإن اشتمل على أشياء وذوات. أي أنّ الفرق الدّلالي بين النوعين وانتماءهما إلى مقولتين لغويتين مختلفتين يرجع أساسا إلى التباين القائم بين التنظيم الذي يفرضه كل من المدلولين على المضمون المشترك بينهما. انظر كذلك الفرق مثلا بين العبارتين " معا" و"مجموعة" الذي يتمثل في بروز العلاقات مع العبارة الأولى (انظر (3a)) وفي بروز كل الحيز الذي يشمل الأشياء والعلاقات مع العبارة الثانية (انظر (3b))، كما هو واضح في الشكل البياني التالي:

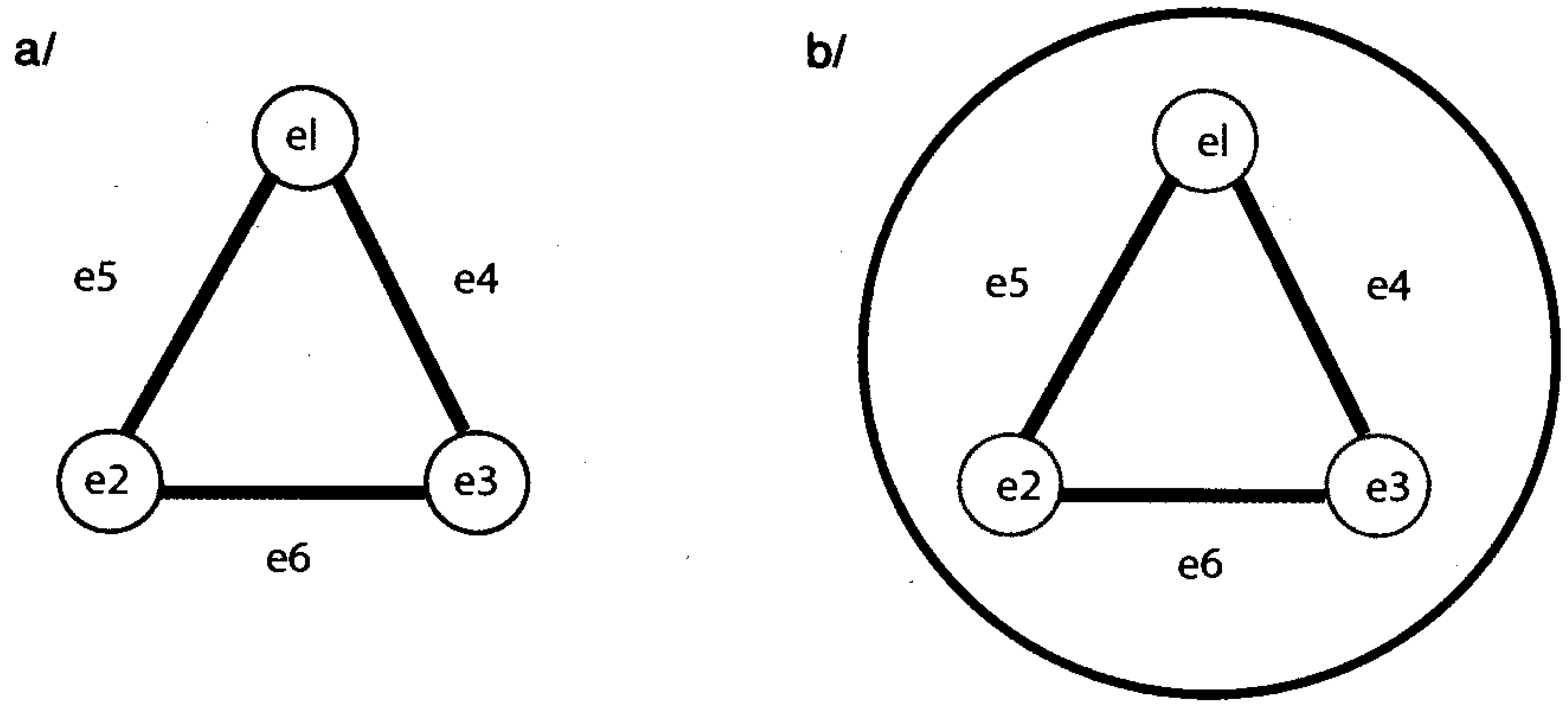

الشكل (3): الأشياء والعلاقات

2. الأسماء

يعيّن الإسم حيّزا أو منطقة une région داخل مجال معين. هذا الحيز قد تكون له حدود في المكان وقد لا تكون له حدود. وتسمح هذه السمة بالتمييز بين الأسماء المعدودة les noms comptables والأسماء غير المعدودة les noms de masse.

ويمكننا لتوضيح هذا الفرق أن نتصوّر شخصا واقفا على بعد خمسة أمتار من جدار مدهون باللون الأبيض وتتوسطه دائرة حمراء اللون.

هذا الشخص يمكنه أن يقول "أرى بقعة حمراء" لأنّه يرى في مثل هذه الحالة البقعة الحمراء والخلفية البيضاء التي ترسم حدودها. فالحدود في مثل هذه الحالة موجودة ضمن حقل المدلول، أي ضمن الحقل المرئي، ويدرك الرائي بحاسة البصر اللون الأحمر وقد احتلّ حيزا محدّدا.

فالاسم يشير إلى بقعة، هي تلك التي يدركها المُبصر.

لنتصوّر الآن نفس الشخص وهو ينظر إلى نفس الجدار، إلا أنّه يكون هذه المرة قد اقترب من الجدار إلى حدّ أنّه لم يعد يرى إلا الجزء الملوّن باللون

الأحمر، ولا يرى اللون الأبيض المحيط به. وفي مثل هذه الحالة، يمكنه أن يقول مثلا " لا أرى إلا حمرة (الحمرة) " "je ne vois que du rouge"، وتعتبر كلمة "حمرة" في حالة كهذه اسما غير معدود un nom de masse.

هذا هو الفرق الرّئيسي الذي يقيمه لانقاكر بين الأسماء والذي يسمح له بالتمييز بين ما هو قابل للعدّ والإحصاء وما لا يقبل ذلك. ويقترح لهذين النوعين من الأسماء التعريفين التاليين:

1. الاسم المعدود هو الاسم الذي يشير إلى حيز محدود في مجاله الأساسي.

2. الاسم غير المعدود هو الاسم الذي لا يشير إلى حيز غير محدود في مجاله الأساسي.[1]

1. الأسماء المعدودة

تشير الأسماء المعدودة النموذجية إلى حيّزات أو مناطق محدّدة في مجال عرفاني أوّلي مثل الفضاء المكاني (مثل الأسماء "خط " و"كرسي" و"أسطوانة"...) أو الفضاء الزماني (مثل الاسمين "لحظة" و"مدة"...) أو في مجال عرفاني غير أوّلي. والحدود التي يستلزمها اسم معدود هي التي تسمح بالفصل بين الحيز الذي يشير إليه والحيّزات الأخرى. إلا أنّ هذه الحدود ليست دوما حدودا واضحة بيّنة. فوحدات دلاليّة مثل "جانفي" أو "حزيران" أكثر دقة من وحدات من نوع "فصل" (من فصول السنة) أو "ربيع" أو "خريف"، أي أنّ حدود هذه العبارات الثلاث الأخيرة حدود ضبابيّة غائمة. فالحدود التي تسمح بالفصل بين الحيز الذي يعيّنه مدلول ما ويشير إليه وباقي الحيّزات الأخرى ليست دائما واضحة، بل يمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك، فنقول إنّ الحدود التي يستلزمها اسم معدود قد لا يكون لها أي وجود فعلي. وإنّما قد تكون حدودا مفترضة، حدودا خيالية متوهّمة وقع

1- فمدلول عبارة " قوس" مثلا ينتمي إلى مجال الفضاء المكاني، إلا أنّ علاقته بهذا المجال ليست علاقة مباشرة، وإنّما هي علاقة تقع إقامتها من خلال تصوّرنا لدائرة هي التي تمثل المجال الأساسي le domaine primordial والحقل المباشر le champ immédiat للمدلول " قوس".

تصوّرها وتشكيلها ذهنيّا، وليس لها أي وجود واقعي موضوعي. انظر على سبيل المثال في حدود مدلولات من نوع "بئر" و"غابة" و"حفرة" و"مغارة" و"سنام".

لكل ذلك يجب علينا أن نستعمل مصطلح "منطقة" أو "حيّز" بكثير من الحذر، لأنّ هذا المصطلح مأخوذ من مجال المكان الذي توجد فيه أشياء لها شكل وأبعاد وكيان مادّي، وأن نفهمه ونتصوّر مدلوله بما يكفي من التجريد حتى يصدق على كل الأسماء المعدودة ولا يبقى مرتبطا بالمسميات المادية التي تحتل مكانا معيّنا. فالحيز أو المنطقة la région عبارة عن مجموعة من الذوات المترابطة، والتي قد تكون الرّوابط بينها قائمة على علاقات موضوعيّة، وقد تكون راجعة فقط إلى عملية التصوّر ذاتها. خذ مثالا لذلك العلاقة التي يقيمها المتصوّر بين اللاعبين الذين ينتمون إلى نفس الفريق أو نفس النادي الرياضي، أو العلاقات التي نقيمها بين حروف الهجاء. فالحيز يكون محدودا عندما تكون هناك حدود تفصل بين مجموعة العناصر التي تنتمي إليه، ومجموعات العناصر التي ليست منه وإنّما تنتمي إلى حيّزات أخرى. أو قل بعبارة أخرى، عندما لا يكون الحيز قابلا للتوسيع إلى ما لا نهاية له. فحروف الهجاء مثلا تكوّن حيزا محدودا لأنّ هناك حرفا يعتبر العنصر الأول للمجموعة وحرفا آخر يعتبر العنصر الأخير للمجموعة. والأفراد الذين ينتمون إلى نفس النادي تربط بينهم علاقة مرجعها أنّهم يشاركون في نشاط نتصوّره على أنّه مجهود يرمي إلى نفس الغاية. فالاسم المعدود يعيّن مجموعة من العناصر تمثل منطقة أو حيزا متماسكا لأنّنا نتصوّر تلك العناصر على أنّها أجزاء تتحقق وحدتها في مستوى أكبر، في مستوى أعلى، وتتحقق هذه الوحدة بنيويا(كما هو الحال في عبارة "قط" مثلا) أو وظائفيّا (كما هو الحال في عبارتي "درّاجة" و"سيّارة").

2. الأسماء غير المعدودة

إنّ المجال الرئيسي الذي يقع في مستواه التمييز بين الأسماء المعدودة والأسماء غير المعدودة هو المجال الذي يمكن فيه لعيّنة من عيّنات المقولة أو لفرد من أفرادها أن يتجسّد. هذا المجال هو مجال التحديد الكمي، مجال

التسوير la domaine de la quantification الذي يمثله المكان بالنسبة إلى الأشياء المادية les objets physiques.

ولقد كنّا رأينا منذ قليل أنّ الاسم المعدود، على عكس الاسم غير المعدود، يشير إلى حيز محدود في مجاله الأساسي في الحقل المباشر للمدلول. إلا أنّ هذه الخاصية ليست الخاصية الوحيدة التي تسمح بالتمييز بين هذين النوعين من الأسماء، وإنّما هناك خاصيّات أخرى ليست مستقلة عن التي ذكرناها وتسمح كذلك بالتمييز بينهما. ويمكننا أن نذكر من هذه الخاصيات الأزواج التالية: التجانس وعدم التجانس l'homogénéité vs. l'hétérogénéité، وقابلية التوسيع والإختزال l'expansion vs. la réduction، والتعدّد la réplicabilité وعدم التعدد.

إنّ الماهية أو المادّة la substance التي يشير إليها اسم غير معدود مثل "عسل" أو "خمر" أو "ماء" مادة يعتبر المتكلم أنّها متكوّنة من عناصر متجانسة داخليا. بالطبع كلنا يعرف حق المعرفة أنّ عيّنتين أو عنصرين من نفس المادّة لا يكونان أبدا متماثلين كل التماثل من وجهة نظر علمية موضوعيّة، إلا أنه يقع تصوّرهما في مستوى من التجريد عال يقع فيه تحييد الاختلافات الجزئية الكائنة بينهما وعدم أخذها بعين الاعتبار. فكمية ما من الماء تكون متجانسة باعتبار أنّ كل مجموعة فرعيّة أو عيّنة منها تدرك على أنها ماء، وبالتالي فكل عينة من المجموعة الكبرى تنتمي إلى نفس المقولة التي تنتمي إليها تلك المجموعة الكبرى، وتعتبر ممثلا للمقولة التي يشير إليها الاسم غير المعدود. هذه الخاصّية تجعل من المادة التي يشير إليها اسم غير معدود مادّة قابلة للتوسيع والإختزال مع بقائها منتمية إلى نفس المقولة.

على العكس من ذلك نلاحظ أنّ جزءا ما من أجزاء مدلول الاسم المعدود أو مكوّنا من مكوّناته لا يمكن اعتباره ممثلا للمقولة. فرأس القط ليس قطا وذيله لا ينتمي إلى مقولة القطط. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ العناصر المنتمية إلى مقولة يشير إليها اسم معدود يمكن إضافة بعضها إلى بعض وبالتالي يمكن عدّها وإحصاؤها، ولذلك تقبل الأسماء المعدودة الإفراد والتثنية والجمع. أمّا الأسماء غير المعدودة فلا تقبل ذلك لأنّها قابلة للتوسيع

والإختزال. ولذلك يمكننا أن نتحدّث عن خمر قليل وماء غزير بينما نتحدّث عن قط آخر وكرسي آخر، لأنّ وجود الحدود يحول دون التوسيع والإختزال.

ومع ذلك فقد تستعمل الأسماء المعدودة للإشارة إلى مادّة غير قابلة للعدّ والإحصاء، كما يدلّ على ذلك استعمال كلمة chat في الجملة التالية:

(5) Lorsque le chat s'est fait écraser, il y avait du chat sur toute la route.

وكأنّ الأجزاء المكوّنة للقط وقد اختلطت بعد أن داسته إحدى السيارات أصبحت متشابهة متماثلة لا يمكن للرائي أن يميّز بينها، وكوّنت مادّة متجانسة كل ما يميّزها أنّها أجزاء من كتلة هي جسم القط، وبذلك أصبحت بمثابة مادّة متكافئة الأجزاء ككل الموادّ التي يشار إليها في اللغة باستعمال أسماء غير معدودة des noms de masse.

كذلك قد يستعمل الاسم غير المعدود هو الآخر للإشارة إلى مسميات قابلة للعدّ والإحصاء، فتستعمل هذه الأسماء في صيغة الجمع كما في قولنا "مياه معدنيّة" و"الديوان القومي للخمور" و"خمور إسبانية" و"خمور تونسيّة". وقد تستعمل كذلك في صيغة المفرد أو المثنى أو الجمع للدلالة على نوع معيّن من الخمور مثلا في عبارات من نوع un vin de Bourgogne أو un vin d'Alsace، أو على كميّة محدودة متواضَع عليها كما في قولك deux bières أو un whisky وما شاكل ذلك.

وتكتسي هذه الجوازات في استعمالات الأسماء أهميّة خاصّة، لأنّها ترجع إلى أنّ الحدود المعتبرة في مثل هذه الحالات ليست حدودا لها علاقة بالكمّ وأنّ مضمون المدلولات لا يقع إرساؤه في الفضاء المكاني، في مجالها الأساسي باعتبارها تعيّن أشياء ماديّة.

ولعلّ ما ينبغي التذكير به في سياق كهذا هو أنّ مجموعة المجالات التي يستلزمها تحديد خصائص اسم من الأسماء تتضمّن مجالا أساسيّا بحسب الاعتبار الخاص الذي نختاره، كما تتضمّن في الآن ذاته عددا معينا من المعايير والمقاييس des paramètres.

إنّ عبارة "خمر" مثلا اسم غير معدود لأنّها تشير إلى مادّة قابلة للتوسيع وليس لها حدود في مجالها الأساسي. إلا أنّه من البديهي أنّ هذه المادّة يجب أن تكون لها حدود في فضاء ما من الفضاءات حتى يتسنّى التمييز بينها وبين المواد الأخرى وخاصّة منها السوائل. هذا التمييز لا يمكنه أن يحصل إلا داخل فضاء يقع تحديده بمجموعة من المجالات الصّالحة للتمييز بين المواد تمييزا نوعيّا، فضاء يسمح بالتمييز بين الأنواع un espace qualitatif. ويمكن لمجالات هذا الفضاء أن تشتمل على مجموعة من المقاييس التي تخصّص اللون والطعم والرّائحة والثخانة la viscosité وما إلى ذلك.

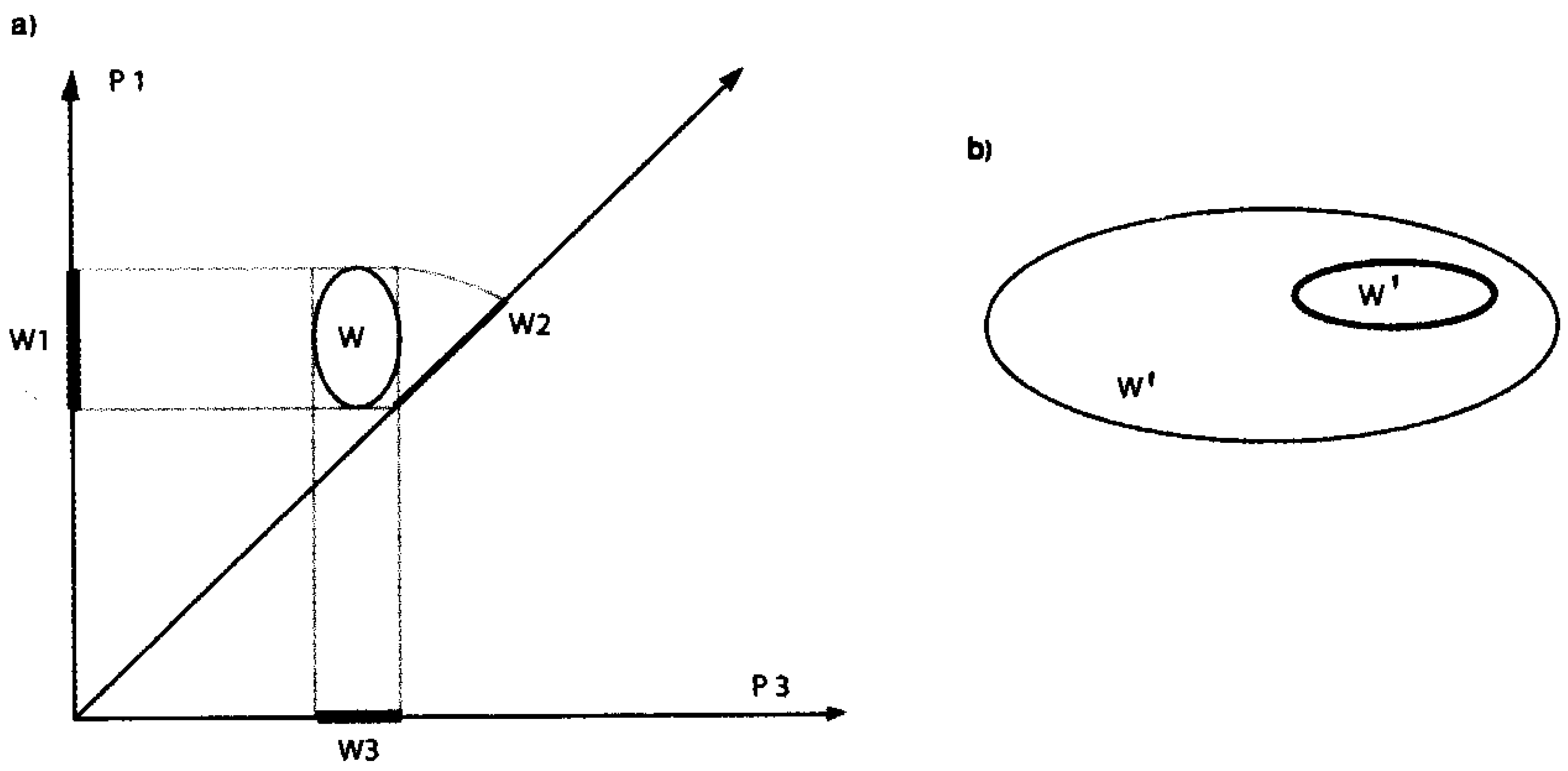

الشكل (4): فضاء الأنواع

لا يشتمل الشكل (4a) إلا على ثلاثة مقاييس P1 وP2 وP3. والخمر باعتبارها مادّة سائلة من نوع خاصّ تحدّدها مجموعة من القيم W1 وW2 وW3، توجد كل منها على مقياس من المقاييس الثلاثة التي وقع الاحتفاظ بها. وترسم هذه القيم المتنوّعة المتعدّدة حدود منطقة معيّنة في فضاء الأنواع. هذا الفضاء يسمح بالتمييز بين هذه المادّة وغيرها من المواد الأخرى، وهكذا فنحن نميّز عند تحليلنا لعبارة "خمر" بين مجالها الأساسي (الفضاء المادي، الكمّي) ومجموعة المجالات التي تسمح برسم حدود لها والتي تكوّن فضاء الأنواع.

من ناحية أخرى، لا بدّ من الإشارة إلى أنّه مادام المعنى يقوم على ضروب من التمييز تخصّ النوع في هذه الاستعمالات، فإنّ فضاء الأنواع يصبح المجال

الأساسي. ثم إنّ المنطقة w البارزة في المجال الأساسي لعبارة "خمر" (الشكل (4b)) تعتبَر الحقل المباشر للمدلول النوعي ومعنى "خمر" يشير في هذه الحالة إلى منطقة لها حدود معيّنة في مجالها الأساسي كما هو شأن كل اسم معدود. والمنطقة الفرعيّة 'w ليست المنطقة الوحيدة الممكنة الوجود، لأنّ هناك أنواعا متعدّدة مختلفة من الخمور يقع إنتاجها في جهات ومدن مختلفة، ولها نكهة وروائح وضروب من الطعم متنوّعة.

هذه المنطقة الفرعيّة يشار إليها باسم معدود، باسم قابل للورود في مختلف الصيغ من إفراد وتثنية وجمع.

3. العلاقات

العلاقات نوعان. منها ما يكون مقرونا بزمان ومنها ما لا يكون مقرونا بزمان ويبدو أنّ أغلب اللغات تلجأ إلى مقولة الاسم للإشارة إلى الأشياء، وإلى الفعل المصرّف في زمن معيّن للإشارة إلى العلاقات المقرونة بزمان. أمّا العلاقات التي يقيمها الذهن خارج الزمان وبقطع النظر عنه فمتنوّعة متعدّدة وتستعمل اللغات باقي المقولات الأخرى التي ليست اسما ولا فعلا للتعبير عنها والتي تشمل الصّفات والظروف والحروف وما إلى ذلك.

ويقع التمييز في النحو العرفاني بين هذين النوعين من العلاقات بفضل زوجين من المفاهيم: الزمان المتصوَّر le temps conçu وزمان التصوّر le temps de conceptualisation من ناحية، والمسح الإجمالي l'enregistrement (ou le balayage) global والمسح المتتابع l'enregistrement séquentiel من ناحية أخرى. أما الزمان المتصوّر فهو الزمان الذي يستغرقه المشهد la scène أو الوضعيّة la situation، فهو إذن موضوع تصوّر، وأمّا زمان التصوّر فهو الزمان الذي تستغرقه عملية التصوّر، أي عملية المسح والتسجيل، فهو إذن وسيلة تصوّر.

في حالة المسح الإجمالي تتراكم مختلف أطوار الوضعيّة لتكوين تمثيل مركب une représentation complexe تظل مختلف أطواره حاضرة ناشطة خلال عملية المسح (انظر الشكل (5b)). ويناسب هذا النوع من المسح العلاقات غير المقرونة بزمان. أما في حالة المسح المتتابع (انظر الشكل (5a))

فإنّ كل طور من أطوار الوضعيّة المتطوّرة يقع تنشيطه ويظل كذلك ما دام القائم بعملية التصوّر لم ينتقل إلى الطور الموالي. وما إن ينتقل إلى الطور الموالي حتى يمّحي ذلك الطور تاركا المكان لما يليه من الأطوار. ويناسب هذا النوع من المسح التغيّر الذي يميّز كل ما هو سيرورة سواء في الحالات أو في الأحداث.

فالفعل إذن علاقة مقرونة بزمان باعتبار أنّ الوضعيّة يقع تتبّعها بكل أطوارها من البداية حتى النهاية. انظر مثلا العلاقة الزمانية التي يعبّر عنها فعل "سقط"، "يسقط" والتي يمثلها الشكل البياني (5a). أمّا العلاقة غير المقرونة بزمان فإنّه يقع تصوّرها باعتماد المسح الإجمالي مطبّقا على نفس الوضعيّة (انظر الشكل (5b)).

مثال آخر لعله يوضح أكثر الفرق بين هذين النوعين من العلاقات. إنّ حرف الجرّ "الكاف" يشير إلى علاقة يقع تصوّرها دون أي اعتبار للزمان على عكس العلاقة التي يعبّر عنها الفعل " أشبه" "يشبه" الذي يناسبه المسح المتتابع لنفس العلاقة في الزمان المتصوّر. فحرف الجرّ والفعل المذكوران لهما نفس المضمون إلا أنّهما يختلفان في نوع عملية المسح التي تفرضها بنية كل منهما على المضمون المشترك.[1]

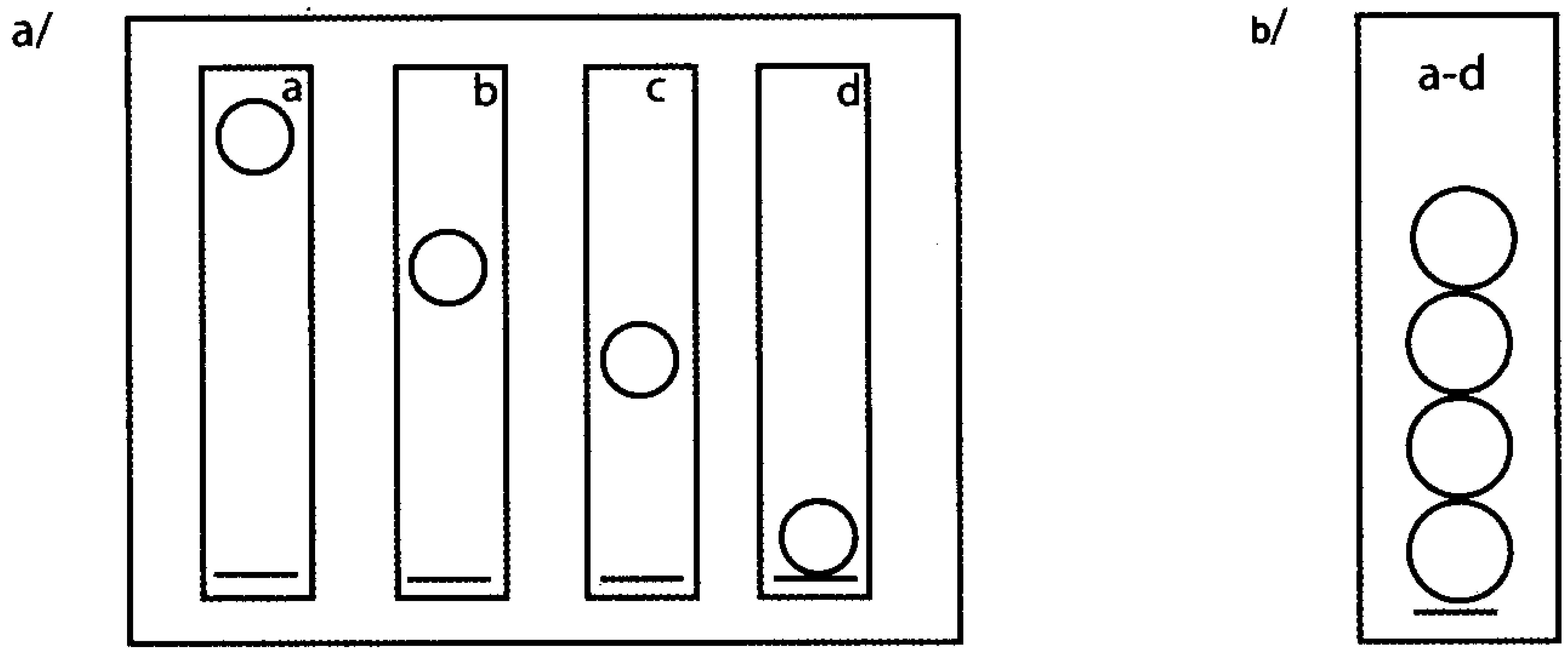

الشكل (5): المسح الإجمالي والمسح المتتابع

1- وقل نفس الشيء بالنسبة إلى الفرق بين العبارة "عبْر" والفعل "عبَر" و"يعبُر".

وقد تكون العلاقات غير المقرونة بزمان بسيطة ساكنة statique عندما تتكوّن من طور واحد أو مرحلة واحدة وتعبّر عندها عن حالة un état مثل الظرف "عند". وقد تكون مركبة complexe عندما تتكون من مجموعة أطوار كما هو حال الظرف "أثناء". ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ نفس العبارة قد تدلّ على علاقة بسيطة في بعض السّياقات وعلى علاقة مركبة في بعض السياقات الأخرى. ويمكننا أن نذكر كمثال لذلك عبارة le long de التي تشير في الفرنسيّة إلى علاقة بسيطة في قولك :

(6) Il y a un chemin le long de la rivière.

وعلى علاقة مركبة في قولك :

(7) Il a marché le long de la rivière.

كذلك حال واو المعية في اللغة العربية في قولك "كيف أنت وأخاك" وفي قولك " سرتُ والنيل".

ويعود ذلك في رأينا على الأقل إلى سببين: أوّلهما أنّ العلاقات غير الزمانية المركبة شبيهة بالعلاقات الزمانية باعتبار أنّ كلا منهما يتكوّن من مجموعة من الأطوار، وأنّ كل ما يميّز بينهما إنما يتمثل في أنّ محور الزمان بارز في إحداهما وغير بارز في الأخرى. أمّا السّبب الثاني فيرجع إلى نوع الجملة العربيّة التي تستعمل فيها الواو، لأنّ الجملة الإسمية تعبّر عادة عن الحالات والوضعيات السّاكنة، بينما تستعمل الجمل الفعلية وخاصّة منها تلك التي يكون فعلها في صيغة الماضي للتعبير عن التغير والسيرورة، أي عن الوضعيات التي تتسم بالحركيّة les situations dynamiques. (انظر الشكل البياني (6)).

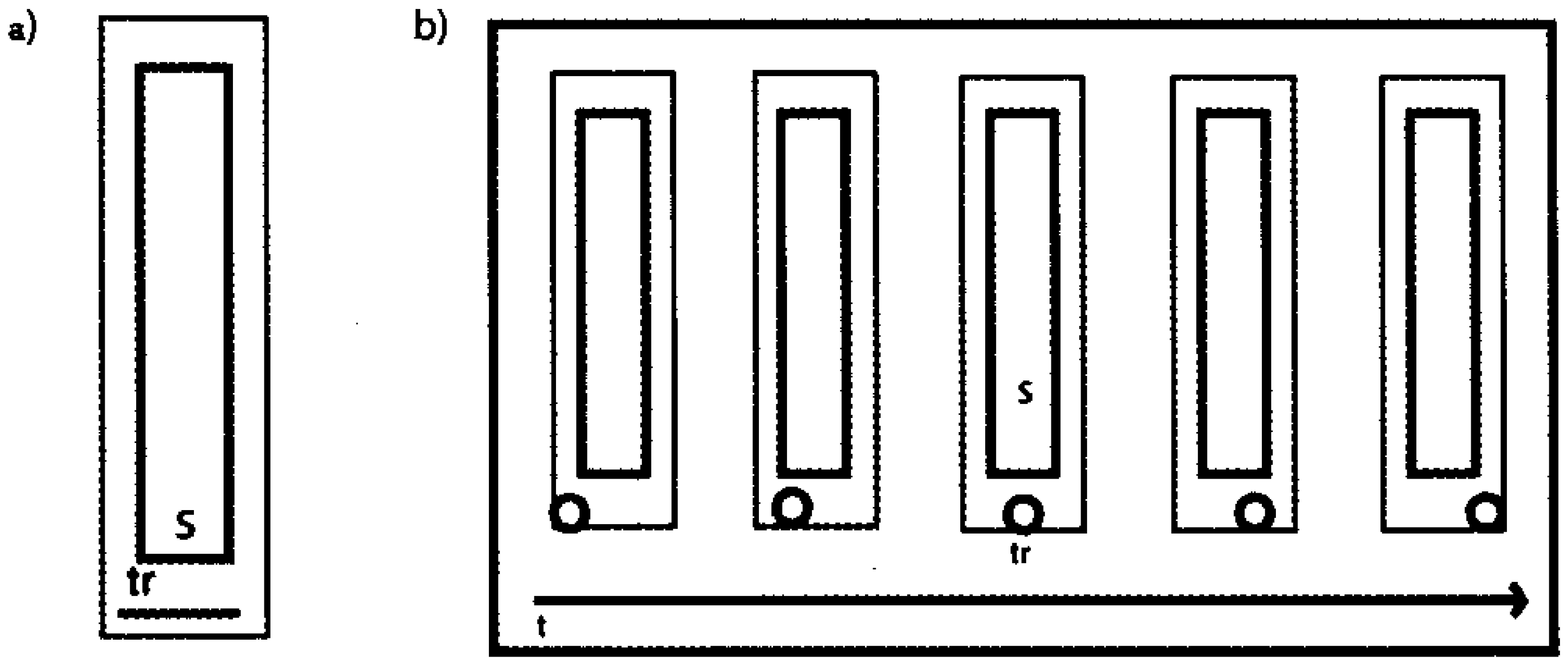

الشكل (6): البساطة والتركيب في العلاقات غير المقرونة بزمان

إنّ تصنيف المقولات الذهنية العرفانية بهذه الطريقة له تبعات خطيرة لأنّه يقودنا حتما إلى إعادة النظر في التصنيفات التي ارتضاها النحاة القدامى لوحدات لغاتهم المتنوعة. فالفعل المصدري l'infinitif وأسماء الفاعلين وأسماء المفعولين les participes التي اعتبرها نحاة اللغات الهند وأوروبية صيغا فعلية غير مصرّفة des formes verbales non finies ليست إلا علاقات غير مقرونة بزمان في اعتبار المقاربات العرفانية.

صحيح أنّ الدّلالة على الحدث موجودة في جذرها المعجمي إلا أنّها غير بارزة لأنّ بنية الصفات والأسماء المشتقة التصوّرية تعتمد المسح الإجمالي للمضمون الدلالي الذي تعبّر عنه جذور تلك المشتقات، والذي لا يأخذ بعين الاعتبار محور الزمان وإنما يتركه خارج الوجه البارز le profil.

فالفعل المصدري l'infinitif الذي يمثله الشكل البياني (7a) تبرز فيه كل الأطوار التي مرت بها العلاقة، بينما لا يشير اسم المفعول الذي يرد صفة والذي يمثله الشكل (7b) إلا إلى نتيجة الحدث، أي إلى الطور الأخير من أطواره. أمّا اسم المفعول الذي نجده في صيغة المبني للمجهول في اللغة الفرنسية مثلا فإنّنا نجده ممثلا في الشكل البياني (7c).

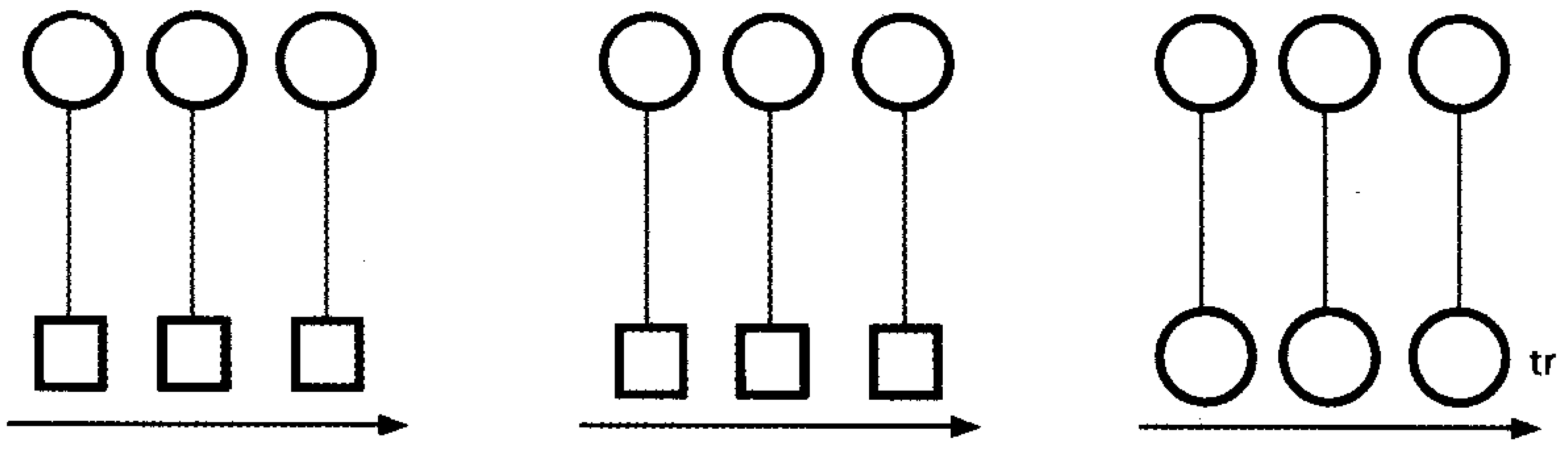

الشكل (7): العلاقات غير الزمانية المشتملة على حدث في قاعدتها الدلالية

هذه العلاقات غير المقرونة بزمان التي تبيّنها الأشكال (7) تشترك على الأقل في خاصيتين: أولاهما لا توجد إلا في العلاقات غير المقرونة بزمان التي تتضمّن قاعدتها الدّلالية حدثا، أي لا توجد إلا في الصفات والأسماء المشتقة، أمّا الخاصيّة الثانية فتهمّ كل العلاقات غير المقرونة بزمان وتتمثل في عدم اعتبارها للزمان. هذه الخاصية الأخيرة تشترك فيها الحروف والأدوات والظروف مع الأسماء والصّفات المشتقة من الأفعال. فليس في عبارة "مريض" ولا في عبارة "أحمر" مثلا ما يشير إلى المدّة التي تستغرقها حالة المرض أو الإتصاف بالحمرة.

يمكننا الآن أن نحوصل إذن أهم ما ذكرناه بشأن العلاقات، فنقول إن العلاقات غير المقرونة بزمان قد تكون بسيطة إذا اقتصر وجهها البارز على طور واحد متجانس (انظر الشكلين a6 وc8) وتكون مركبة إذا اشتمل وجهها البارز على مجموعة من الأطوار المختلفة المتعاقبة (انظر الشكلين b6 وd8).

أمّا الحدث فيتكوّن من مجموعة من الأطوار التي تمتدّ عبر الزمان المتصوّر والتي يقع مسح أطوارها مسحا مفصّلا متتابعا يميّز مختلف الأطوار بعضها عن بعض.

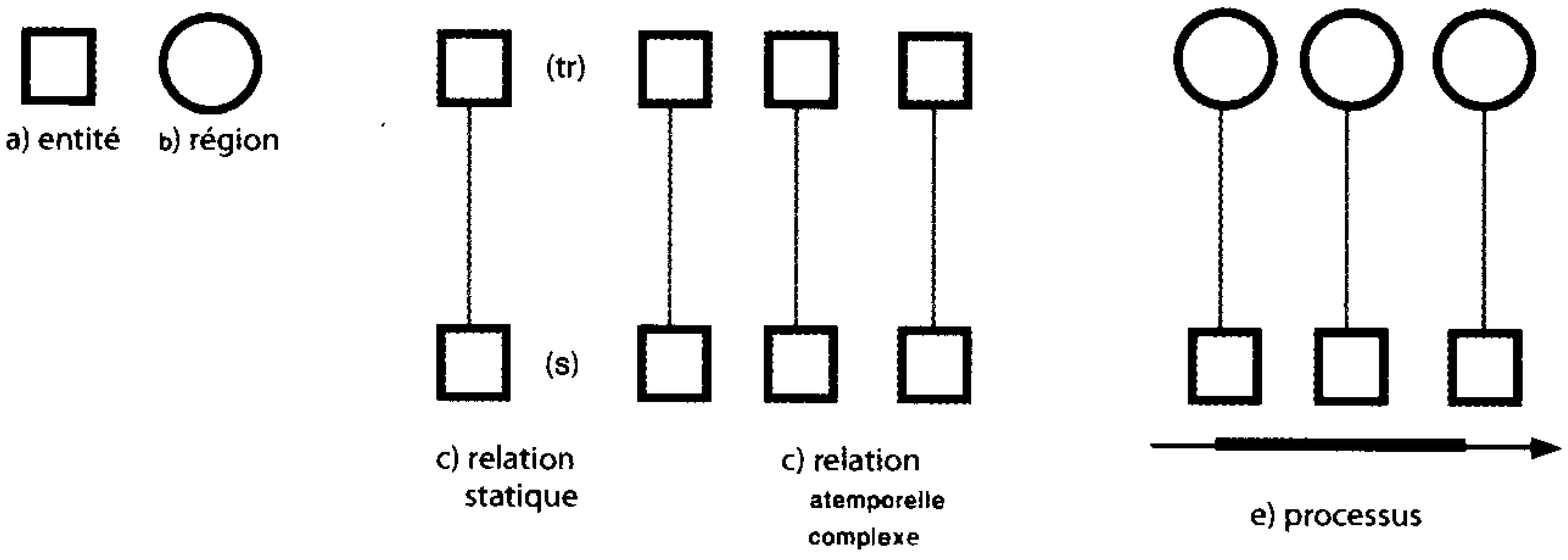

الشكل (8): تمثيل بياني لمختلف المقولات[1]

1. أطراف العلاقة:

إنّ العلاقة تكون بطبيعتها غير متناظرة باعتبار أنّها لا تولي نفس الأهمية لأطرافها ولا تضعها في نفس المنزلة. فبعض هذه العناصر تمثل جزءا من المشهد ولكنها لا تكون بارزة لأنّها ساكنة لا تتحرّك وتمثل جزءا من الإطار المكاني أو الإطار الزماني (Setting كما يسمّيه لانقاكر). أمّا بعضها الآخر فيكون أكثر حركيّة ونشاطا ويساهم في سيرورة الحدث وتمثله وحدات بارزة des entités saillantes تشارك بطريقة فاعلة في التفاعلات ويسمّيها لانقاكر أطرافا مشاركة (participants).

1.1. الأطراف المشاركة:

أهمّ هذه الأطراف رأس العلاقة وطرفها الأول الذي يجب أن يكون مرسوما[2] repéré، أي معلوما معروفا من قبل المتكلم والمخاطب (إذا كانت

1- تمثل الدائرة حيّزا une région، أما المربّع فيمثل وحدة دلالية une entité قد تكون حيّزا une région وقد تكون علاقة une relation.

2- يرجع الفضل في اختيارنا الجذر (ر س م) لترجمة مصطلحات أساسية في النحو العرفاني من نوع repère وrepérage وrepérant وrepéré إلى الأستاذ حمادي صمود من جامعة منوبة (تونس) الذي هدانا ولفت انتباهنا إلى وجود عبارات من نوع "كان يسير بلا رسم" في علم القيافة، وخاصة في أحد فرعيه المتصل بقيافة الأثر. ولذلك اخترنا أن نترجم le repère بالرسم وle repérage بالترسيم وle repérant بالراسم وle repéré بالمرسوم.

العلاقة علاقة مقرونة بزمان) لأنّه يمثل وجه العلاقة la figure de la relation ويطلق عليه لانقاكر مصطلح trajecteur (trajector) الذي نترجمه بالسيّار. ويوحي هذا المصطلح بالحركة خاصّة في العلاقات الزمانية النموذجية التي تدلّ على أحداث ماديّة[1]، لأنّه يتحرّك عادة عبر مسار في الفضاء ليبلغ غرضا. إلا أنّه يجب ألا توجد أي إشارة إلى الحركة في تعريفه وذلك حتى يصدق على الطرف الأول لكل العلاقات سواء منها ما كان سكونيا أو حركيا وما كان منها مقرونا أو غير مقرون بزمان.

أمّا الأطراف الأخرى البارزة في المدلول العلائقي فيسمّيها لانقاكر site (Landmark) باعتبار أنّها مُتصوَّرة في العلاقات النموذجيّة على أنّها تمثل مراجع تسمح بتخصيص موقع السيار. فعبارة "كتب علي رسالة" مثلا تقوم على علاقة زمانية يمثلها الفعل وطرف العلاقة الأول، أي سيارها، هو "علي"، وغرض العلاقة[2]، أي طرفها الذي يحتلّ المرتبة الثانية في البروز بعد السيار، وهو "رسالة".

أما عبارة "كتاب صالح" فتمثل علاقة غير زمانيّة، وهي علاقة الإضافة التي لها وجود تركيبي لا معجمي، وسيّارها "كتاب"، وغرضها ،صالح".

والصفة "أحمر" في عبارة "كتاب أحمر" مثلا علاقة غير زمانية تربط بين ذات تمثل وجهها البارز، أي سيّار العلاقة ("كتاب" هنا)، وحيّز من الحيزات المكوّنة لسلم الألوان المتعارف لدى متكلمي اللغة يُطلق عليه اسم "الحمرة"، إلا أن الملاحظ هنا هو أنّ غرض العلاقة لم يذكر ذكرا صريحا، وذلك يكاد يكون القاعدة في حالة العلاقات التي تعبّر عنها الصفات في اللغات الطبيعية بصفة عامّة.

كذلك يمثل المركب الحرفي "بسرعة" في الجملة "كتب علي الرسالة بسرعة" علاقة غير زمنيّة سيارها هو المركب الإسنادي، أي العلاقة الزمنيّة "كتب علي الرسالة" وغرضها حيز من الحيّزات المكوّنة لسلم السرعة يمثله

1- تذكر منوال لعبة الكريات الخشبية الذي يعتبره لانقاكر مؤسسا للعلاقات والأحداث.

2- نستعمل هذه العبارة في معناها القديم القريب من معنى عبارة la cible الفرنسية لترجمة مصطلح Landmark.

المركب الاسمي القائم على الإضافة (غروب الشمس) والذي كان بإمكانه أن يرد في صيغة مركب مصدري مسبوق بالأداة "أن" التي تحوّل العلاقة الزمانيّة إلى حيز وتجعل من المركب الإسنادي مركبا اسميا (في قولك مثلا "خرج قبل أن تغرب الشمس").

إذن فليس من الضروري من ناحية أن يكون طرف العلاقة الأول، أي أكثر أطراف العلاقة بروزا، ولا طرفها الثاني دالا على حيز أو ذات، بل قد يكون كل منهما علائقيا، وليس من الضروري من ناحية أخرى أن يكون طرف العلاقة الثاني مذكورا في كل الأحوال.

2.1. السيار باعتباره وجه العلاقة:

إنّ عدم التناظر الذي كنا أشرنا إليه في بداية حديثنا عن العلاقات والذي قلنا بشأنه إنّه يميّز كل العلاقات، لا يمكن تحديده بالرّجوع إلى الدور الدّلالي لأيّ طرف مشارك في العلاقة، أي إلى طبيعة مساهمة كل من المشاركين في العلاقة التي يقع إبرازها، وذلك لعدّة أسباب نكتفي بذكر اثنين منها.

أول هذه الأسباب أنّنا نلاحظ وجود عدم التناظر حتى في ما تعوّدنا على تسميته بالعلاقات المتناظرة التي تكوّن الرأس البارز في الجمل المتناظرة les phrases symétriques. فالجملتان "علي مثل صالح"[1] و"صالح مثل علي" ليستا متكافئتين من الناحية الدّلالية لأنّهما تختلفان في القاعدة المرجع la base de référence، الأمر الذي يقودنا إلى أن نقول إنّ العلاقات المتماثلة يمكن تشكيلها وصياغتها حسب وجهات نظر مختلفة وحسب ضروب من التنسيق متقابلة. فمن حيث المضمون الدّلالي س وع متماثلتان في العبارتين " س فوق ع" و"ع تحت س" لأنه لهما نفس الأدوار الدّلالية، إلا أنّ هناك فرقا يظل قائما بينهما ويتمثل في أنّ النقطة المرجعيّة المعتمدة في الأولى (وهي ع) غير النقطة المرجعيّة المعتمدة في الثانية (وهي س). فإمّا أنّ س وقع تحديد موقعها بالقياس إلى ع، او العكس.

1- أو "يشبه علي صالحا" و"يشبه صالح عليا".

ثانيها هو أنّ التمييز بين السيار والغرض أعمّ من التمييز بين الفاعل والمفعول به في العلاقات الزمانية مثلا، ماداما يصدقان على أطراف كل العلاقات زمانية كانت أم غير زمانية. أضف إلى ذلك أنّ كلا منهما قد يدلّ على حيز، فنستعمل مركبا اسميّا للإشارة إليه، كما قد يدلّ على علاقة فنستعمل فعلا أو ظرفا أو صفة للإشارة إليه.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كلنا يعرف أنّ الغرض قد لا يقع التصريح به. فالبنية الدّاخلية للفعل "قرأ" مثلا، في العربية وفي الفرنسية، تتضمّن في كل الحالات موقعا مجرّدا un site schématique لغرض قد يقع التصريح به كما في قولك "قرأت النصّ" أو "Marie lit des romans" وقد لا يقع التصريح به كما في قولك "اقرأ باسم ربّك" أو "Marie lit beaucoup et Pierre lit rapidement".

كذلك كنا لاحظنا في الفقرة السّابقة أنّ الغرض مثلا قد لا يقع التصريح به أبدا إذا كانت العلاقة صفة، وكذلك إذا كانت ظرفا يدلّ على الحالة la manière مثلا كالعلاقة غير الزمانية "rapidement" في الجملة الفرنسيّة "Hélène est partie rapidement"، التي ليس لها فاعل ولا مفعول به، بالإضافة إلى أنّ غرضها يمثل حيّزا من حيزات سلم السّرعة الذي لا يمكن ذكره ذكرا صحيحا. ولا يفوتنا أن نلاحظ في هذا السّياق أنّ المركب الحرفي "بسرعة" الذي يمثل المقابل العربي لهذا النوع من العبارات والتراكيب لا يرد فيه المركب الاسمي أبدا معرفة لأنّ المقصود منه درجة من درجات السّلم لا الحيز الذي يحتله السّلم كله.

كذلك يمكننا أن نلاحظ في الرّسم البياني (9) أنّ الصفة "أحر" علاقة غير زمانية سيارها الدّائرة التي تمثل الذات الموصوفة بالحمرة وغرضها غير المذكور يحتل موضعا معيّنا في سلم الألوان (انظر الشكل (9b)). أمّا القيمة الدّلالية لهذا اللون في جمل من نوع "(اللون) الأحمر هو أفضل الألوان عند زوجتي" فيمثلها الحيز الذي يحتل كل السلم في الشكل (9a).

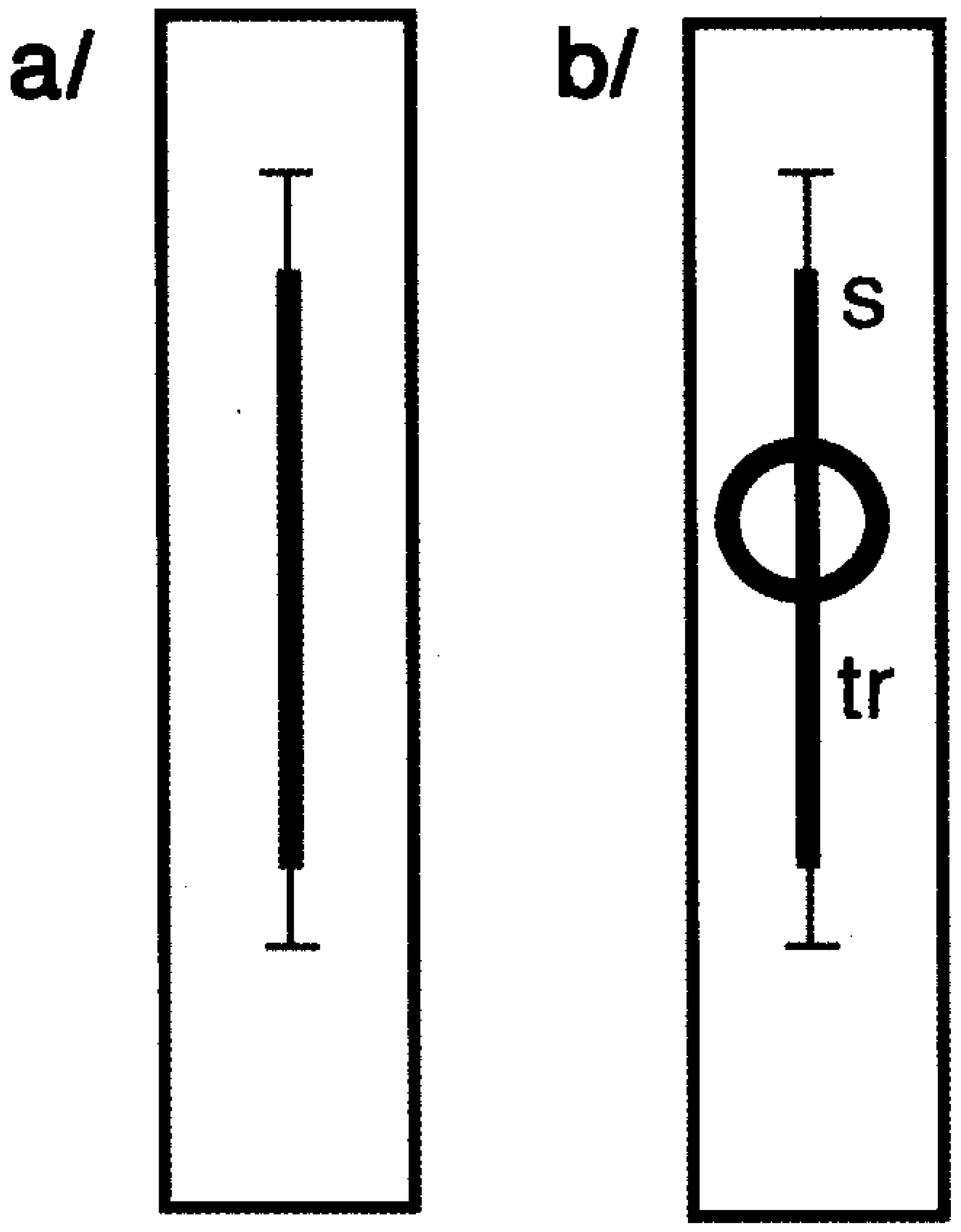

الشكل (9): التمثيل البياني للصفة وللاسم المعبّرين على اللون

3.1. الإطار والأطراف المشاركة في الحدث:

كنا رأينا أنّ مظهرا بالغ الأهمية من مظاهر المنوال النموذجي للحدث يتمثل في التمييز بين الإطار الثابت والمتضمن للحدث بمختلف مكوّناته (Setting) والأطراف المشاركة التي تكون أصغر منه وأكثر حركية منه والتي تتفاعل فيما بينها داخل الإطار. ويبرز الفرق بين هذين النوعين من العناصر في مستوى الجملة في الإختلاف بين المركبات الإسميّة والظروف وباقي المركبات الحرفية الدّالة على الزمان أو على المكان أو على الحالة من ناحية أخرى. ذلك أنّ المركبات الإسميّة التي يمكنها أن ترد فاعلا أو مفعولا به مستقلة من الناحية الدّلالية التصوّرية ولذلك تحتلّ مواقع مركزية في الجملة، في حين أنّ المركبات الأخرى التي ترد للتعبير عن الحال أو المكان أو الزمان أو غير ذلك من مخصصات النواة الإسنادية les spécificateurs مكوّنات غير مستقلة دلاليا، وإنّما تقوم بدور المعدل le

modificateur الذي يُدخل بعض التحويرات على النواة الرئيسيّة ويمثل أقرب الطبقات إلى السطح لأنّها تتكوّن من مكوّنات اختياريّة هامشيّة لا تتطلبها العلاقة المؤسّسة للجملة.

ولا مناص من أن نتعرّض في هذا السّياق إلى بعض التراكيب التي تمثل إشكالا لا بدّ من تحليله ومحاولة إيجاد حل له. إنّه الإشكال الذي تمثله بعض المركبات الاسمية التي ترد متممات للفعل وتحتل وظيفة المفعول به، إلا أنّه لا يمكن اعتبارها عناصر مشاركة في الحدث من الناحية الدلاليّة. مثل هذه الحالات يعتبر انحرافا وابتعادا عن نموذج الجملة التي فعلها فعل متعدّ، والتي يكون الفاعل والمفعول به فيها طرفين مشاركين في الحدث. ويترتب عن ذلك إضعاف للتعدية، خصوصا وأنّ الطرف الثاني في العلاقة يحتلّ موضع المفعول به وإن لم يجر مجراه، ولذلك لا يمكنه مثلا أن يكون نائب فاعل إن نحن اخترنا للفعل صيغة المبني للمجهول، كما هو الحال في الجملتين:

(8) يزن هذا القط عشرين رطلا.

(9) بلغت الحرارة عشرين درجة.

هذه الأفعال الدّالة على الأوزان والمقادير يمكن اعتبارها أفعالا لازمة لأنّ طرفيها لا يقع تشكيلهما على أنّهما مشاركان في الحدث. فالغرض فيهما لا يتفاعل مع السيار وإنّما هو لا يعدو أن يكون نقطة موجودة على سلم مجرّد يُستعمل لقياس بعض الخصائص. والعلاقة بين الطرفين لا تشبه التفاعل النموذجي الذي يحدث بين طرفين مشاركين والذي يؤدّي إلى انتقال الطاقة من أحدهما إلى الآخر. إنّها أقرب إلى علاقة تربط بين الحدث وإطاره. إذن فاعتبار الفاعل والمفعول به المشاركين الأكثر أهميّة، واعتبار الفاعل الطرفَ المشارك الأكثر بروزا يناسب أغلب الأمثلة والجمل في اللغة، إلا أنّه لا يناسب هذا النوع من التراكيب الذي لا تكون فيه الوحدة التي تحتلّ موضع الفاعل أو المفعول به طرفا من طرفي العلاقة وإنّما إطارا للعلاقة. لذلك فالأفضل أن نعتبر الفاعل النحوي العنصرَ الأكثر بروزا بين عناصر العلاقة. وكذلك من الأفضل أن نستعمل مصطلح طرف العلاقة الأول للإشارة إلى السيار، ومصطلح طرف العلاقة الثاني للإشارة إلى الغرض، أما باقي

العناصر فليست أطرافا مشاركة مباشرة. هذا التبئير la focalisation له تبعات دلاليّة هامّة دقيقة، إحداها هامّة في السياق الذي نحن بصدده لأنّ استعمال الوحدة التي تشير إلى الإطار مثلا فاعلا نحويا في الجملة يؤدّي إلى إبراز العلاقة الكائنة بين الحدث والإطار، والشكل البياني (10) يبرز علاقة الظرف بالمظروف اعتبارا أنّ المظروف في هذه الحالة هو ما يجري داخل الإطار. هذه العلاقات تصبح وجها رئيسيّا مركزيا للحدث عندما يقع بناء الإطار أو الظرف على أنّه الوجه الأول للعلاقة.

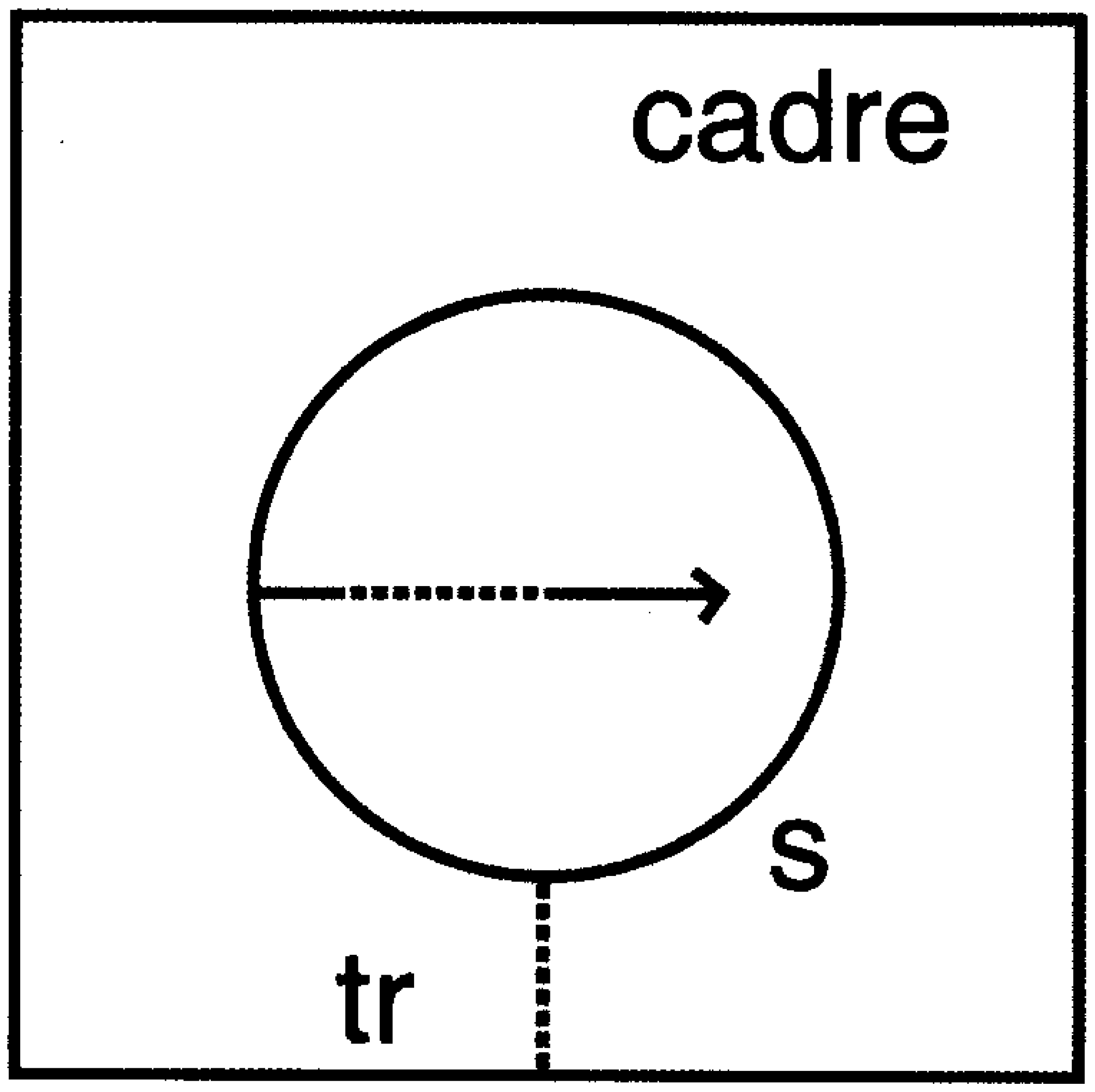

الشكل (10): الجمل التي تبرز العلاقة بين الحدث وظرفه

و تمثل الجملتان المواليتان هذه البنية:

(10) شهد يوم الجمعة تصعيدا غير معهود للعمليات الفدائية داخل الأراضي المحتلة.

(11) شهدت هذه القاعة أحداثا هامّة في تاريخ تونس الحديث.

يبدو رأس كل من هاتين الجملتين فعلا متعديا عاديا لأنّه متبوع بمركب اسمي فاعل وبمركب اسمي منصوب يشغل محل المفعول به، إلا أنّه لا يمكن بناء هذه الأفعال للمجهول كما هو حال الجملتين (8) و(9) اللتين

رأيناهما منذ قليل، لأنّ فاعلها النحوي يشير إلى الإطار الزماني أو المكاني لا إلى أحد طرفي العلاقة.

ما ينبغي الاحتفاظ به من كل ما قلناه في هذا الشأن هو أنّ العناصر الموجودة في مشهد ما ليس لها جميعا نفس المنزلة، بل هناك عناصر متحركة فاعلة تشارك في العلاقة وعناصر أخرى ثابتة غير متحركة تؤدّي وظيفة الإطار اللازم للحدث. أمّا العناصر الأولى فضرورية وتتآلف مباشرة مع الفعل مادام لكل منها مكان شاغر باق على ذمته في التصوّر المجرّد للفعل وفي بنيته الدّلالية الداخلية، وأمّا العناصر الأخرى فهي عناصر اختياريّة متمّمة لا يمكنها أن تتآلف مع الحدث ككل، أي مع الحدث مقترنا بطرفيه البارزين، أعني السيار والغرض. ذاك ما يتوقعه النموذج، إلا أنّ المتكلم يظل متمتعا بجانب كبير من الحريّة يسمح له بأن يحيد عن النموذج فيقيم علاقات خاصّة يبرزها بين الحدث وإطاره المكاني أو الزماني رغم المنزلة الثانوية للإطار في النموذج بالقياس إلى الطرفين الرئيسيين المشاركين في العلاقة.

4. الوظائف الدّلالية الأساسيّة

يعتبر أغلب الدّارسين أنّ الأسماء والأفعال هما المقولتان الصرفيتان النحويتان الرئيسيتان في أغلب لغات العالم، والملاحظ أنّه لا يوجد أي نزاع في أهميّة هاتين المقولتين، كما لا يوجد أي نزاع في اعتبارهما مكونين مباشرين من مكوّنات الجملة des constituants majeurs de la phrase. وذلك راجع ولا شك إلى أنّهما تمثلان التباين الأقصى في المستوى الدّلالي، وتعتبران في مستوى التركيب المدخل الذي لا بدّ منه لكل إخبار ولكل عملية وصف للغات الطبيعيّة. وفي مستوى الجملة توافق المركباتُ الاسمية الاسم والجملُ المفيدة الفعلَ.

سنحاول في هذه الفقرة أن ننظر في أهم الوظائف الدّلالية وفي الدور الذي تقوم به في فهم البنية الداخلية للمركبات الاسمية والبنية الدّاخلية للجمل. وسنرى بالترتيب كيف يميّز لانقاكر بين الإسم والمركب الاسمي، ثم بين رأس المركب الفعلي وباقي مكوّناته.

1. البنية الدّلالية للاسم والمركب الإسمي:[1]

يتمثل الفرق الأساسي بين اسم بسيط ومركب اسمي في أنّ الأول يشير إلى الجنس أو إلى النوع[2]، بينما يشير الثاني إلى فرد معيّن من أفراد ذلك الجنس أو ذلك النوع. فعندما يتصوّر الإنسان جنسا معيّنا ينتمي إليه أفراد متعدّدون فإنّ ضروبا من التخصيص تصبح ضروريّة لتحديد الوحدة المعيّنة أو الفرد المعيّن وتمييزه عن غيره.

و لتبيّن مختلف هذه العمليات لا بدّ من محاولة تبيّن الفرق بين الإسم والمركب الاسمي. فما الذي يميّز بين عبارات من نوع "chat" و"vin" و"galaxie" وعبارات من نوع "les trois chats noirs" و"le vin blanc" و"chaque galaxie dans l'univers" ؟

إنّ القول بأنّ الاسم وحدة معجميّة معزولة وأنّ المركب الاسمي مجموعة وحدات بعضها معجمي والبعض الآخر صرفي نحوي لا يحلّ المشكل، لأنّ الحجم لا يمكنه أن يمثل مقياسا جديّا للتمييز بين الاسم والمركب الإسمي مادامت توجد عدّة مركبات اسميّة تتكوّن من مفردة واحدة مثل "هند" و"بكر" و"زيد" وغير ذلك من أسماء الأعلام.

المقياس الثاني الذي اعتمده الدّارسون يبدو أكثر جديّة، ونعني بذلك ما ذهب إليه بعضهم من أنّ الاسم لا يمكنه أن يكون فاعلا أو مفعولا به في جملة، على عكس المركب الإسمي. هذا المقياس، وإن كان جديرا بالاعتبار في ذاته، فإنّ النحو العرفاني لا يمكنه أن يكتفي به لأنه لا يعترف بوجود خصائص صرفية أو تركيبيّة مستقلة ويعتبر أنّ كل الخصائص البنيوية تكشف عن وجود اختلافات دلالية وأنّ كل تركيب أو بنية ليس إلا تجليا لميزة دلاليّة. والإختلاف بين الأسماء والمركبات الإسمية لا يمكنه أن

1- ما سنقوله في هذا القسم يهمّ خاصة اللغات الهندوأروبية كالفرنسية والإنجليزية، إلا أنه لا يصدق على العربية لأنّ الاسم (و كذلك الفعل) فيها لا يمكن تحققه ما لم يقع إخضاعه إلى مختلف العمليات الدلالية التي سنقوم بتفصيلها في الصفحات الآتية، ، اللهم إن اعتبرنا أن منطلق هذه العمليات بالنسبة إلى لغة كالعربية هو الجذر.

2- باعتبار أنّ الأنواع فروع عن الأجناس، وبذلك يكون النوع جنسا فرعيا.

يتمثل في خصائص صرفية أو تركيبيّة متباينة ليس لها ما يبرّرها دلاليّا، وإنّما هو بالضرورة أمارات على اختلافات دلالية ذهنيّة عرفانية.

أمّا تعريف الاسم الذي كنا رأيناه في ما تقدّم والذي يشير الإسم بموجبه إلى شيء، إلى حيّز أي إلى مجموعة من الوحدات entités تربط بينها علاقات des interconnectées، فإنّه لا يسمح بالتمييز بين الأسماء والمركبات الاسمية، وإنّما يسمح فقط ببيان الخصائص الإجمالية التي تسمح بتحديد المدلولات الإسمية باعتبارها قسما مقابلا لقسم آخر هو قسم المدلولات العلائقيّة.

لكل ذلك يقترح لانقاكر التمييز بين الجنس والنوع le type من ناحية والفرد l'instance الذي ينتمي إلى ذلك الجنس أو النوع، بالإستناد إلى خاصيّة تصوّرية تسمح بالتمييز بين الأسماء والمركبات الإسمية. فالمضمون الدّلالي لاسم مثل "chat" لا يتجاوز حدود تخصيص الجنس أو النوع la spécification de type (T)، أي أنّه يخصّص الأساس الذي يسمح بالتعرّف على مجموعة من الوحدات باعتبارها ممثلة لمقولة من المقولات، إلا أنّه ليس مرتبطا بأي فرد من الأفراد المنتمين إلى المقولة. وتحديد خصائص الجنس هذا يمكنه أن يبلغ حدودا من الدقة والتفصيل متفاوتة كما هو الحال في عبارة "joli chat noir" بالقياس إلى عبارة "chat"، إلا أنّ ذلك يمكنه من الدّلالة على بعض الخصائص بتفصيل أكثر، ولكنه لا يسمح له بحال من الأحوال بالإشارة إلى فرد من أفراد المقولة. أمّا المركب الاسمي "le chat" أو "un chat" فإنّه يفترض بالإضافة إلى عملية تحديد خصائص الجنس السابقة حصول عملية أخرى، هي عملية الإرساء في فضاء معيّن (I) l'instanciation، في مجال غير مجال الأجناس والأنواع l'espace des types يتسنّى فيه التمييز بين الأفراد والإشارة إلى كل واحد منها على حدة. وهنا لا بدّ من التذكير بأنّ عبارة مثل "le chat" تشتمل على معلومات كثيرة تخص عدد الأفراد ومنزلة كل منها بالقياس إلى المشاركين في حدث الخطاب، ولذلك فمن الواجب علينا أن ننظر في تنظيم المركبات الإسميّة من حيث العمليات الدّلالية التي يقع إخضاعها إليها وبدون اعتبار للتفاصيل التي تتجلى أو لا تتجلى في علامات بنيوية خاصّة بها. لذلك نقول إنّ وظيفة المركب الإسمي هي الإشارة إلى شيء يمكنه أن يستحوذ على كل اهتمامنا وإن مؤقتا، لأنّ الغرض الرئيسي إنّما

هو بيان مشاركته في حدث أو في علاقة ما بطريقة أو بأخرى. هذه العملية ليست عملية بسيطة لأنّ كل عالم ذهني يشتمل على عدد كبير من الوحدات وكل وحدة فيه يمكن أن يقع تصوّرها وصياغتها باعتبارها شيئا كلما أراد المتكلم أن يتحدّث عنها أو كلما احتاج إلى ذلك. ويتمثل الإشكال في كيفية عزل شيء ما من تلك الأشياء عن كل ما عداه للإشارة إليه إشارة مخصوصة.

يبدو أنّ أغلب اللغات الطبيعيّة تلجأ سعيا وراء تحقيق كل ذلك إلى اختيار خطة une stratégie [1] تقوم على مجموعة من العمليات التصوّرية الذهنية التي لا تختلف من لغة إلى أخرى. أولى هذه العمليات هي عملية تحديد خصائص الجنس التي تمثل تحديدا أوّليا بين الذوات الموجودة بالقوّة في أذهاننا، وذلك بلفت الانتباه إلى مجموعة من الذوات تعدّ متكافئة حسب مجموعة من الاعتبارات. وإذا كان لا بدّ لمركب اسمي من أن يؤدّي وظيفة التمييز بين أفراد متميزين ينتمون إلى نفس الجنس أو النوع فلا بدّ له من أن يوفر مجموعة من المعلومات الإضافية. ويمكنه أن يفعل ذلك بفضل عمليتين دلاليتين أخريين تردان بالترتيب بعد تحديد خصائص الجنس فالإرساء، وهما عملية التسوير وعملية الترسيم، أي عملية ربط المدلول بعملية الخطاب وبالمشاركين فيها:

1. عملية التسوير la quantification (Q) التي تسمح بتحديد المقدار أو الكمية بشكل مطلق كما في مثل عبارة "ثلاثة قطط" (trois chats) أو بشكل نسبي كما في العبارات "بعض القطط" أو "عديد القطط" أو "عدد كبير من القطط" (quelques chats, plusieurs chats, beaucoup de chats).

2. عملية الترسيم le repérage (Grounding) وهي العملية التي يكون بفضلها الفرد المعني ظاهرا داخل بنية مرجعيّة معيّنة بالنسبة إلى المتكلم والمخاطب. ولا حاجة إلى أن يكون لكل فرد وسم أو عنوان خاص به ما دامت نفس العبارة "le chat" مثلا يمكنها أن تحيل على وحدات كثيرة

1- أسماء الأعلام ليست ممثلة لأغلب المركبات الاسمية ولذلك لا تعتبر نموذجية في هذا السياق.

متميّزة في مقامات وسياقات مختلفة. هذه العملية تسمح للمشاركين في حدث الخطاب أن يعيّنوا أي عنصر من عناصر المقولة.

خصائص الجنس يوفرها إذن رأس المركب الإسمي وتساعده في ذلك كل المعدّلات les modificateurs المخصّصة التي تساهم في تدقيق معنى المدلول، ويكوّن رأس المركب مع مختلف الوحدات التي ترد لتخصيصه نواة تحول دون تسرّب أي عنصر خارجي. فالمسوّر تقع إضافته باعتباره طبقة خارجية منفصلة عن النواة، فنقول مثلا "ثلاثة مهندسين معماريين"، لكن لا يمكننا أن نقول " مهندسون ثلاثة معماريون"، كما يمكننا أن نقول "trois chats noirs" ولا يمكننا أن نقول "chats trois noirs *".

ثمّ تأتي العملية الدّلالية الأخيرة (le repérage)، أي عملية ترسيم المدلول الناتج عن تطبيق العمليات الثلاث السّابقة (تحديد الخصائص فالإرساء فالتسوير) التي تربطه بحدث الخطاب وبالمشاركين فيه، وتقع إضافتها عادة إلى البنية الناتجة عن تطبيق العمليات الثلاث السّابقة، باعتبارها طبقة خارجيّة تأتي بعد النواة وقد تآلفت مع المسوّر.

المهمّ أنّه يبدو أنّ البنية الدّلالية (((R(Q(I(T)[1] بنية قاعديّة عامّة نجدها في أغلب اللغات التي نعرفها.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ عددا من المركبات الإسمية لا تبرز في مستوى بنيتها كل هذه العمليات، لأنّ الوظيفة الدلالية بمختلف العمليات المكوّنة لها ليست مرتبطة دائما بمستويات تركيبية وبنيوية متمايزة. فعدد من المركبات الإسمية يفتقر إلى الرّأس، وذاك حال العبارات التي من نوع "هؤلاء" و"أولئك" و"الكثيرون"، كما أنّ العبارات المسوّرة لا تمثل مستوى بنيويا محدّدا بوضوح، فعلامة العدد في عبارة "les trois chats noirs" حاضرة في مستوى رأس المركب "chats"، وفي مستوى المخصّص "noirs" وفي مستوى المسور "trois" وفي مستوى أداة التعريف "les" التي تربط المدلول بحدث الخطاب. بل إننا كثيرا ما نلاحظ أنّ نفس الوحدة اللغوية تتضمّن الدلالة على التسوير وعلى الترسيم في الآن ذاته مثل "certains" و"chaque"

1- أي (Repérage (Quantification (Instanciation (Type))))

و"tout" وغيرها من العبارات، ولذلك لا يمكنها مثلا أن ترد مسبوقة بأداة تعريف ولا باسم إشارة.

(T) > (I(T)) >(Q(I(T))) >(R (Q(I(T)))).

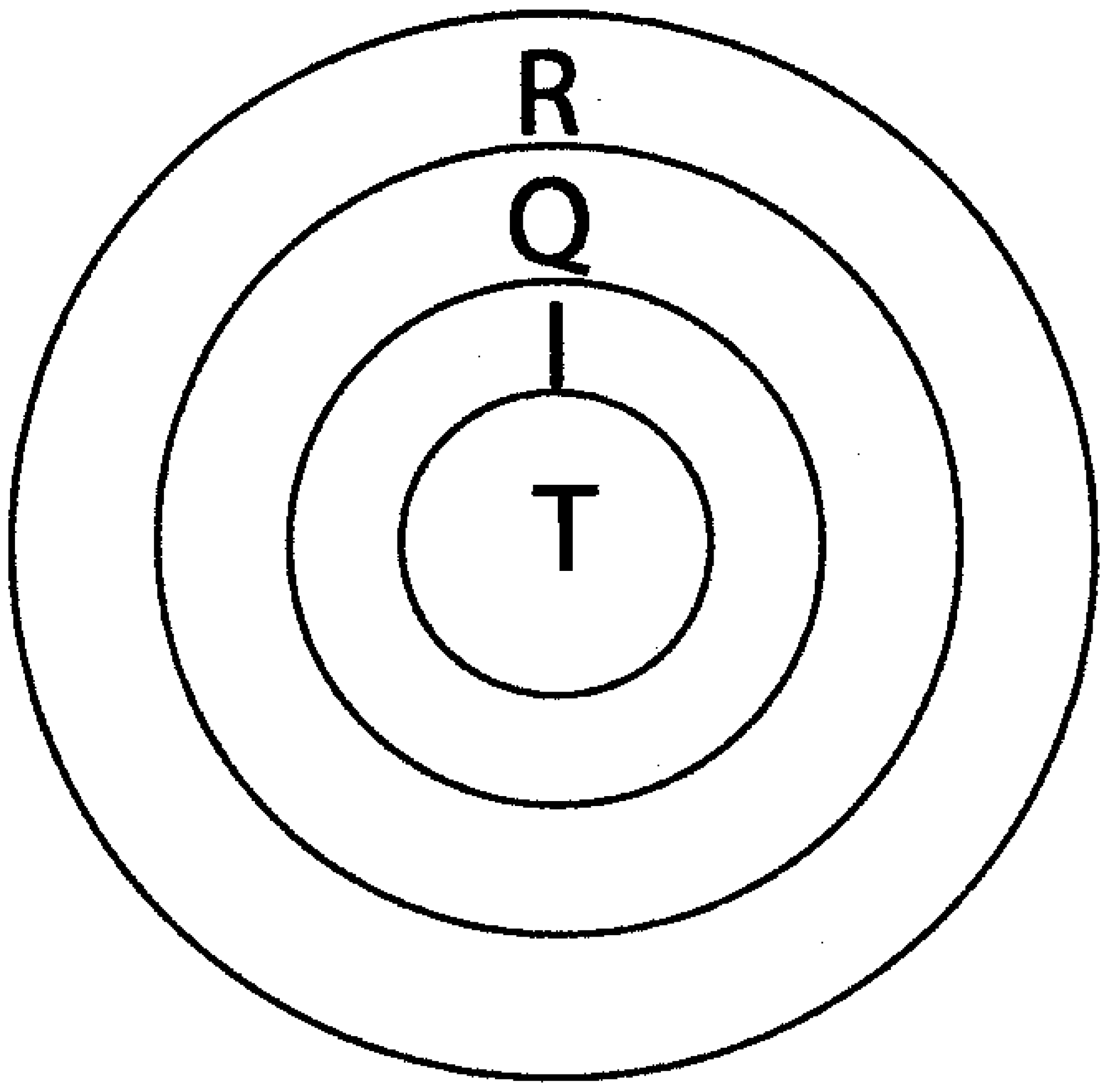

الشكل (11): البنية الدلالية الأساسية

ونظرا إلى تنوّع الأبنية الإسمية، فإنّ تحديد حصائصها تحديدا كافيا شافيا يصدق على كل أبنية الاسم في اللغات الطبيعية لا يمكن تحقيقه ما لم تقع صياغته بالاستناد إلى خصائص معنوية دلالية. وتعريف لانقاكر يلحّ على الفكرة التي مفادها أنّ كل مركب اسمي يشير إلى حيز وقع بناؤه وصياغته باعتباره فردا ينتمي إلى جنس معيّن، ويضيف إليه عمليتين تضمنان تخصيصه، وهما عمليتا التسوير والترسيم. فالجنس والكمية والترسيم غالبا ما تعبر عنها وحدات لغوية متمايزة، ويبدو أنّ أغلب اللغات تسعى إلى بلورة مناويل مخصوصة لتشكيل الأبنية وضبط رتبة كل مكوّن فيها، إلا أنّه يظل هناك عدد من المركبات الاسمية التي لا تنطبق عليها المناويل النموذجية وإن كانت تخضع للتحديد العام للمركبات الاسمية. من ذلك اسم العلم الذي ترد فيه عدة وظائف دلالية متداخلة مندمجة لا تعبر عنها وحدات لغوية متمايزة، فالعبارة "وهران" مثلا تحتوي على معلومات خاصّة بالجنس الذي ينتمي إليه (أعني أنّها مدينة)، وأخرى تخصّ العدد، وثالثة تتعلق بكونها معروفة من قبل المتكلم والمخاطب، إلى غير ذلك من المعلومات، وتستعمل كما يستعمل أي مركب اسمي رغم أنّ أهمّ ما يخصّصها يظل ضمنيّا غير

مصرّح به. كذلك العبارتان "قطتان" أو "trois chats" فإنّهما تعتبران نكرتين رغم غياب ما يدلّ على ذلك صراحة.

2. عودة إلى عملية الإرساء l'instanciation

رغم كل ما قلناه في القسم السّابق، يبدو لنا أنّ عملية الإرساء كما وردت في كتابات لانقاكر تظل محتاجة إلى المزيد من التوضيح. ولذلك ارتأينا أن نعود إليها في هذا القسم للمزيد من التفصيل ولنوضّح أكثر الفرق بين ما نعنيه بالجنس le type والفرد l'instance.

كنا رأينا أنّ الفرق بين اسم بسيط مثل "chat" ومركب اسمي مثل "le chat" يكمن في أنّ الأوّل لا يمثل إلا خصائص الجنس، في حين أن الثاني يشير إلى فرد معين من أفراد الجنس.

فتمييز الفرد إذن أساسي بالنسبة إلى بنية المركب الاسمي وضروري حتى يتسنى تطبيق عمليتي التسوير والترسيم. ولا شك أنّ التمييز بين الجنس والفرد وإن كان يذكرنا بالمقابلة القديمة بين المفهوم l'intension ومجموعة المسمّيات التي يصدق عليها l'extension، كما يذكرنا بالتمييز التقليدي بين المعنى le sens والمرجع la référence، إلا أنّه يختلف عنهما من عدّة وجوه. ذلك أنّ المدركات والمفاهيم تقوم على التصوّر، وما دام النحو العرفاني الذي نقدّمه لا يولي أي أهميّة تذكر لقيمتي الصدق والكذب ولا للواقع المادي، وإنّما يهتمّ أساسا بالطريقة التي تعتمد في إدراك الأحداث والحالات وتصوّرها وصياغاتها صياغة لغويّة، فإنّ الأفراد في هذه الرؤية تعتبر وحدات تصورية لا غير.

فالفرد "قط" "un chat" أو "القط" "le chat" ليس مرجع المركب الاسمي الذي يكون عادة ذاتا معيّنة لها وجود في العالم المادي الخارجي، وليس مكافئا أيضا لمجموعة الأفراد الموجودين في العالم الخارجي. إنّ القطب الدّلالي للمركب الاسمي تصوّر يمثل إرساء لخصائص الجنس التي يتضمّنها الاسم. وبهذه الطريقة يمكننا أن نقوم بصياغة مركب اسمي يشير إلى تصوّر فرد من أفراد الجنس حتى في الحالات التي لا شيء يخصّصه فيها، بل حتى في الحالات التي لا يشير فيها إلى أي مرجع في العالم الخارجي، كما هو الحال في مثل قولك:

(12) يبحث علي عن شغل منذ سنوات، ولكن بدون جدوى.

(13) Il cherche désespérément un travail, mais aucun travail n'est disponible.

فالمركب الاسمي "شغل"، وكذلك "un travail"، يمثلان تصوّرَ فرد رغم أنّ السياق ينفي وجود هذا الفرد في العالم الخارجي.

ما ينبغي أن نحاول توضيحه هو الفرق بين تصوّر للجنس une conception de type وتصوّر للفرد une conception d'instance، خصوصا وأنّ كلا منهما يمكنه أن يمثل القطب الدلالي لعبارة لغوية. ويبدو لنا أنّ التمييز بينهما يحتاج إلى التذكير بمفهوم مجال الإرساء le domaine d'instanciation.

يمكن تعريف مجال الإرساء بأنّه الفضاء الذي يمكن لتصور وحدة تنتمي إلى مقولة ما أن يوجد فيه. فالمكان هو مجال إرساء الأشياء الماديّة، والزمان هو مجال إرساء الأحداث والعلاقات الزمانية.

يمكننا أن نعرّف أيضا مجال الإرساء بأنّه المجال الذي يحدّد الجانب القاعدي المؤسّس للاسم وللفعل والذي يتمثل في أنّ الوحدة المعيّنة لها حدود أو ليس لها حدود في حقلها الدّلالي. فالزمان يظل دائما المجال المناسب لإرساء الأفعال وبيان ما إذا كان للحدث حدود في الزمان أم لا[1]. ورغم أنّ الأسماء متنوّعة أكثر، فإنّ تحديدها في المكان يمثل بصفة عامة العامل الحاسم بالنسبة إلى الوحدات في العالم المادي.

كذلك يمكن أن نعرّف مجال الإرساء بأنّه المجال الذي يمكن للوحدة أن تحتلّ فيه حيزا يجعل منها فردا من أفراد المقولة متميّزة عن غيرها من الوحدات الأخرى المحتمل وجودها. فمثلا وضع حدث ما في حيز من الزمان مضبوط كاف لتمييزه عن غيره من الأحداث الأخرى. وإن وجد حدثان متماثلان في نقطتين مختلفتين، فذلك يعني أنّهما فردان متمايزان ينتميان إلى نفس الجنس، لكن لا يمكن اعتبارهما فردا واحدا. وقل نفس الشيء بالنسبة إلى الأشياء المادية لأنّ إحلال شيء في حيز مكاني معين يميّز بينه

1- انظر الفرق بين الفعلين " مات " و" عاش " وكذلك بين الفعلين vouloir وaimer مثلا.

وبين ما عداه من الأشياء، وإذا وجد شيئان في نفس الوقت في حيزين مختلفتين فلا يمكن أن ننظر إليهما على أنهما نفس الشيء، وإنّما يمكن تصوّرهما على أنّهما فردان ينتميان إلى نفس الجنس.

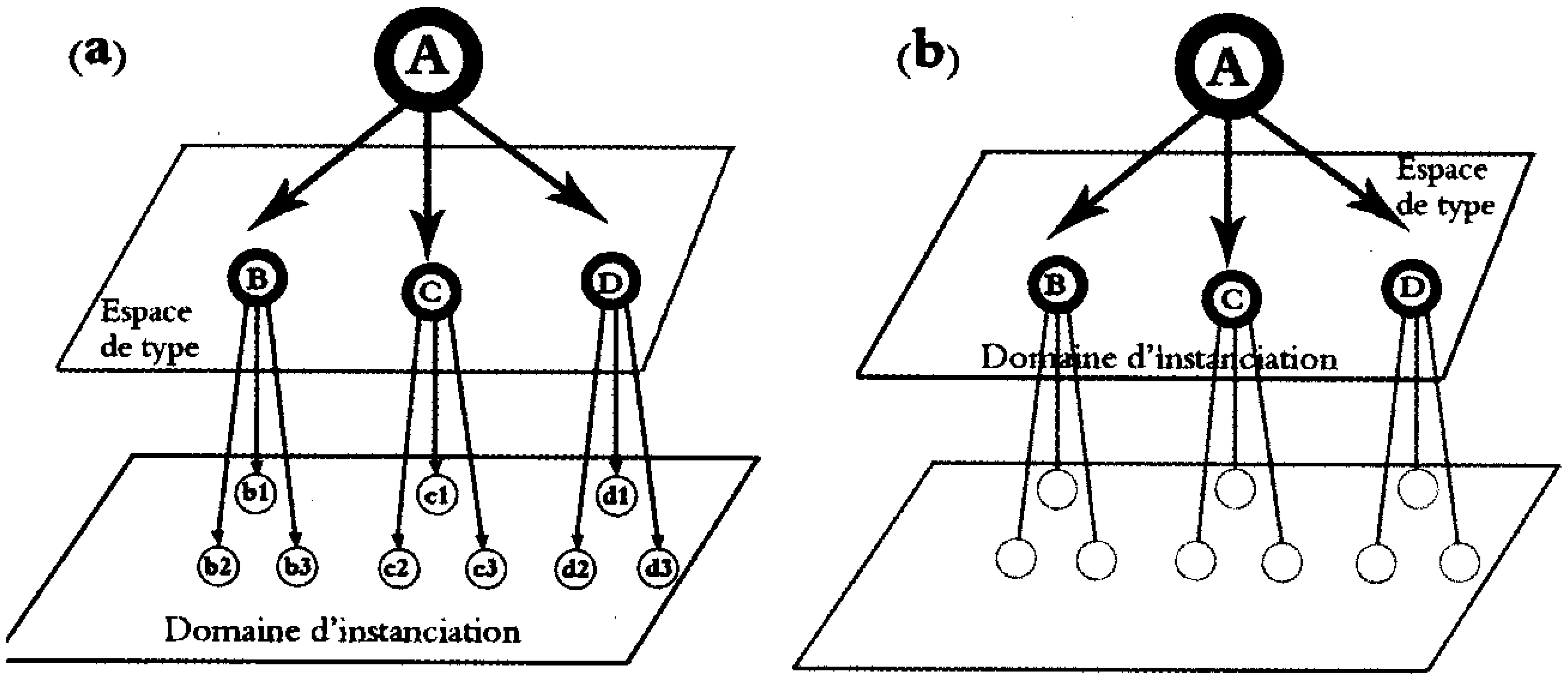

الشكل (12): فضاء إرساء الأجناس وفضاء إرساء الأفراد

يبدو إذن أنّ مجال الإرساء مفهوم أساسي في التمييز بين الجنس والفرد وأنّ الخصائص التي يسمح هذا المجال بتوفيرها حاسمة في تحديد خصائص الجنس، لأنّ التطوّر والتغيّر عبر الزمان أساسيان لتصوّر الحدث باعتباره جنسا أو فردا منتميا إلى جنس، وكذلك خصائص الجنس بالنسبة إلى قسم الأشياء المادية لا يمكنها أن تتجاهل السّمات المتعلقة بالشكل la forme التي لا يمكن تصوّرها إلا في فضاء مكاني. فالشكل المميّز للقط مثلا أساسي في تصوّر جنس المقولة، ويمكن استحضاره بسهولة بفضل استعمال اسم أو مركب اسمي. إذن فتصوّرات الأجناس وتصوّرات الأفراد تشترك في تعيين وحدة محدّدة في مجال الإرساء. فالعبارتان "chat" و"un chat" تسمحان باستحضار تصوّر كائن حيّ له وبر وله شكل معيّن ويحتلّ حيّزا في المكان في ذلك المجال. والفرق الوحيد يتمثل في أنّ ذلك الكائن قد يُتصوّر باعتبار أنّه لا يحتلّ موضعا خاصّا به، وقد يتصوّر باعتبار أنّ له موضعا خاصا به في مجال الإرساء، ولذلك يجب أن يكون للمجال في هذه الحالة الأخيرة من السّعة والامتداد ما يسمح له باحتواء عدّة وحدات في نفس الوقت، بينما لا يستعمل تحديدُ خصائص الجنس مجالَ الإرساء إلا لوصف خاصية معيّنة من خصائص الوحدة المشار إليها مثل الشكل أو الامتداد عبر الزمان.

و يمكننا أن نقول بكل اختصار إنّ الإرساء في مجال الأجناس l'espace des types يسمح بالتمييز بين جنس ما وغيره من الأجناس الأخرى، بينما يسمح الإرساء في مجال الأفراد l'espace des instances بالتمييز بين الأفراد المنتمين إلى نفس الجنس.

3. بنية الفعل الدّلالية

إذا اعتبرنا الوجه البارز لكل من الأسماء والمركبات الإسميّة من ناحية والوجه البارز للأفعال والجمل من ناحية أخرى، فإنّه يتبيّن لنا أن بنية الجملة أكثر تعقيدا من بنية المركب الإسمي. ذلك أنّ المركب الإسمي مستقل تصوّريا ودلاليا باعتبار أنّ الشيء الذي يشير إليه يمكن تصوّره دون أن يكون طرفا من أطراف أي علاقة من العلاقات، على عكس الفعل الذي لا يكون إلا تابعا من الناحية التصوّرية بحكم طبيعته العلائقيّة، إذ لا يمكن لأيّ كان أن يتصوّر علاقة ما دون استحضار الوحدات المشاركة فيها.

أمّا من حيث تحليل بينة الفعل، فلقد جرت العادة لدى النحاة وعلماء اللغة أن يعتبروا المكون "lavé" مثلا في العبارة الفعلية "a été lavé" فعلا رئيسيا وأن يعتبروا باقي المكوّنات أفعالا ناقصة مساعدة des verbes auxiliaires. هذا التمييز يرجع ولا شك إلى أنّ "lav–" هو الفعل المعجمي، أي الفعل الذي له مضمون دلالي مفصّل وأقلّ تجريدا من مضمون باقي مكوّنات الفعل في هذا النوع من اللغات، تلك المكوّنات "a été –é" التي تمثل وحدات صرفية نحوية أكثر منها وحدات معجمية. ولذلك يرفض لانقاكر هذا التمييز خصوصا وأنّ أصحابه لا يستندون إلى مقاييس تهمّ الفعل بما هو به فعل في تمييزهم لما يمكن اعتباره الفعل الرّئيسي في التركيب، ويقترح تمييزا آخر يقوم على اعتبار أنّ العنصر الفعلي الرّئيسي هو ذاك الذي تتجلى فيه علامات ربط العلاقة الزمانية بحدث الخطاب، أي بزمانه وبالأطراف المشاركة فيه. وتقوده هذه الرؤية إلى اعتبار أنّ العبارة "a" هي المدلول الراسم la prédication repérante وأنّ المركب "été lavé" له نفس منزلة رأس المركب الاسمي. ففصل العبارة "a"، أي فصل ما يدلّ على الزمان وعلى الجهة la modalité عن باقي مكوّنات المركب الفعلي، تبرّره بداهة التركيب، كما يبدو أنّه أساسيّ حتى من وجهة نظر نحوية تركيبيّة

صرفة، وذلك لأنّ اعتبار كلّ الأفعال المساعدة مكوّنا واحدا لا يمثل على ما يبدو الحل الأمثل، خصوصا وأنّ الفعل المساعد الأول "a" الذي يربط العلاقة بزمان حدث الخطاب هو الوحيد الذي يمكنه أن يتقدّم على الفاعل، فنقول "a-t-il été lavé"، ولا يمكننا أن نقول "a été-t-il lavé*". لذلك فإنّه يبدو لنا من الحكمة أن نعتبر أنّ الوحدات المخصّصة للزمن[1] وللجهة وحدات ترسيم تربط العلاقة بزمان حدث الخطاب des prédications de repérage (R) وأن نعتبر الوحدات الأخرى المكوّنة للمركب الفعلي، أي الأفعال المساعدة الأخرى والفعل الرّئيسي، على أنّها رأس المركب الفعلي (Q(I(T))) في الجملة.

هذا التحليل الذي يقترحه النحو العرفاني بديلا للتحليل التقليدي له أساس دلالي متين لأنّ الزمن والجهة هما العنصران اللذان يربطان الحدث الذي تعبّر عنه الجملة بصفة مخصوصة بالنقطة المرجع، أعني حدث الخطاب. فالزمن يضع الحدث المتصوّر في حيز معيّن باعتبار زمان التلفظ، بينما يمثل التعبير عن الجهة موقف المشاركين منه في عملية الخطاب، وما إذا كانوا يتبنّون العلاقة كما هي أو يعبّرون عن بعض الاحترازات والتحفظات بإزائها.

لننظر الآن في التوازي بين رأس المركب الاسمي ورأس الجملة الفعلية (أي المركب الفعلي خاليا من التعبير عن الزمن والجهة). فإذا كان رأس المركب الاسمي في صيغة المفرد، نحو "chaise" مثلا، فإنّه لا يمكننا التمييز بين المضمون التصوّري (T) les informations conceptuelles الذي يشتمل عليه وعلامات الترسيم (R) la prédication de repérage. ونجد مثيلا لهذه الوضعية عندما يتحقق المركب الفعلي في لفظة واحدة، أي عندما يكون متكوّنا من فعل رئيسي لا تصاحبه أفعال مساعدة. أمّا إذا كان رأس المركب الاسمي في صيغة الجمع مثلا، فإنّه يمكننا الفصل فيه بين الجزء الذي يمثل المضمون التصوّري (chaise) وباقي الأجزاء الأكثر تجريدا التي تشكل ذلك المضمون وتنظمه تنظيما ذهنيا عرفانيا خاصا (s —). مثل هذه

1- سنستعمل ابتداء من الآن عبارة "الزمن" للإشارة إلى الزمان اللغوي، وعبارة "الزمان" للحديث عن الزمان غير اللغوي.

الوضعية نجده مع الفعل عندما يكون رأس الجملة الفعلية متكوّنا من فعل رئيسي ومن أفعال مساعدة. ففي الجملة "Elle peut avoir lavé sa voiture hier soir"، يمثل الجذر "lav—" المضمون المعجمي الرّئيسي وما تبقّى من المكوّنات "peut avoir —é" التنظيم الخاص لذلك المضمون. فما وقع اعتباره فعلا رئيسيًا في التراث النحوي واللساني لا يمثل شيئا آخر غير مضمون المركب الفعلي، ولذلك يفضل لانقاكر تسميته "الفعل المعجمي" le verbe lexical أو "الفعل المعبر عن المضمون" le verbe du contenu. هذا الفعل قد يكون بسيطا (نحو "حضر" و"قتل" و"concevoir" و"saisir" و"profiter") وقد يكون مركبا (نحو "استحضر" و"تقاتل" و"conceptualiser" و"reconceptualiser" و "saisir l'occasion" و"tirer profit de..."، وما إلى ذلك) ككل مركب اسمي، إلا أنّه يمكننا دون أي اعتبار لبساطته أو تركيبه أن ننظر إليه باعتباره وحدة تتآلف مع باقي المكوّنات، أي مع الأفعال المساعدة التي تتمثل وظيفتها في تنظيم المضمون وتشكيله مجتمعة. كل هذه الوحدات التي تنظم المضمون، باستثناء ما يعبّر منها عن الزمن والجهة، أي كل الوحدات التي تمثل البنية الدلالية (Q(I(T)))، نعتبرها من وجهة نظر وظائفية مماثلة لعلامة الجمع في المركب الاسمي، لأن كل تلك العناصر إنما تمثل علمية التسوير ما دامت العناصر المتكوّنة من "avoir — é" تعبّر عن الإنقضاء، أي عن المظهر، والعناصر "être —é" تمثل البناء للمجهول la voix passive. أما الفعل الذي يوجد على الشمال في أول التركيب (avoir أو être)، أو فعل المضمون إذا كان وحده في التركيب، فإنّه يفرض نفسه باعتبار أنّه البنية المرسومة la structure repérée الحاملة للعلامات التي تربط الحدث بعملية الخطاب داخل المركب الإسنادي، ويسميه لانقاكر الفعل المرسوم le verbe repéré.

ولا يفوتنا أن نشير بالطبع إلى أنّ الفعل الحامل للعلامات التي تربط الحدث بعملية الخطاب la structure repérée في الجملة السّابقة الذكر "Elle peut avoir lavé sa voiture hier soir"، فعل يعبّر في الآن نفسه عن الجهة بالإضافة إلى أنّه الحامل لعلامات التطابق l'accord مع فاعل الجملة.

ولا بدّ في ختام هذه الفقرة من أن نشير إلى أنّ الفعل الحامل للعلامات التي تربط الحدث بعملية الخطاب la structure repérée هو الوحيد الذي

يفرض وجهه البارز في مستوى البنية الأعلى، أي في مستوى بنية الجملة الكبرى ككلّ.

5. الجملة المركبة

توجد خطتان رئيسيتان تسمحان للمتكلم بالانطلاق من تصوّرات بسيطة لتكوين تصوّرات أو تمثلات مركبة des représentations complexes. أمّا إحداهما فتعتمد الفصل une stratégie paratactique (ou asyndétique) وتقوم على وضع التمثلات البسيطة الواحدة بجوار الأخرى، وأمّا الثانية فتعتمد الوصل une stratégie hypotactique وتتمثل في الرّبط بين التمثلات بأداة من الأدوات. وبذلك يعتبر العطف والإستئناف وسيلة بسيطة ولا شك من الوسائل التي تسمح بتكوين تمثلات مركبة ، والتي تدرج ضمنها عادة أدوات التعليق les conjonctions de subordination دون غيرها من الحروف والأدوات.

ولعلّ القضية التي تظل مطروحة والمشكل الذي يظل قائما إنّما يتمثل في أنّ التمييز بين العطف والتعليق[1] لا يصمد أمام التراكيب والمعطيات التي يقرّها الاستعمال.

(14)Mary weeded the garden and Peter mowed the lawn. /a

(Marie a désherbé le jardin et Pierre a tondu la pelouse).

b/ حضرت فاطمة وغاب أخوها.

c/ مات الناس حتى الأنبياء.

(15)The person who picked out that tie must be colour blind. /a

(La personne qui a choisi cette cravate doit être daltonienne).

We all expected that Peter would finish college. /b

(Nous nous attendions tous à ce que Pierre réussisse ses études universitaires.)

1- الذي أقرّه النحاة وتبعهم فيه أغلب اللسانيين من بعد وقسّموا الأدوات تبعا لذلك إلى قسمين.

Put those magazines away before your mother gets home. /c

(Range ces magazines avant que ta mère rentre!)

We all expected to finish college. /d

(Nous nous attendions tous à finir nos études supérieures.)

e/ أعجبني إنشادك القصيدة.

(16)Mary weeded the garden, while Peter mowed the lawn. /a

(Marie a désherbé le jardin alors (pendant) que Pierre a tondu la pelouse.)

b/ خرج علي وقد غربت الشمس.

c/ بقي ينتظرها حتى المغرب. / بقي ينتظرها حتى غربت الشمس.

فالفوارق التي أقرّها النحاة وعلماء اللسان بين العطف والتعليق تسمح لنا بالتمييز بين الأمثلة (14) و(15)، إلا أنها تفقد كل صبغة عملية إن نحن التجأنا إليها للتمييز بين الأمثلة (14) و(16) التي لها نفس التركيب، والتي تربط في أغلبها نفس الأدوات بين المركبين الإسناديين. فنحن لا نرى فرقا معنويّا ذا بال بين الجملتين الإنجليزيتين (14a) و(16a) رغم أنّ الأداة and التي تربط بين المركبين الإسناديين في الجملة الأولى تعتبر حرف استئناف والأداة while التي تربط بينهما في الجملة الثانية تعتبر حرف تعليق.

إنّ مثل هذه الظواهر تسمح لنا بأن نتساءل إن كان التمييز بين العطف والتعليق كما بلغنا له ما يبرّره وإن كانت الحدود بين التركيبين حدودا واضحة.

هذا من ناحية، أمّا من ناحية أخرى، فإنّ المتأمّل في الأمثلة (15) يلاحظ أنّ المركب الفرعي المعلق قد يكون مركبا إسناديّا رأسه فعل مصرف في زمن معيّن (انظر الأمثلة (15a,b,c)) أو فعلا مصدريّا un infinitif له بعض المفاعيل المتممات (15d)، أو مصدرا يقوم مقام الفعل (15e).

أضف إلى ذلك أنّ نفس الأداة تبدو أداة عطف واستئناف في بعض الأمثلة وأداة تعليق في بعض الأمثلة الأخرى. فالواو حرف استئناف في (14b)، إلا أنّها

أقرب إلى حروف التعليق في (16b)، والحرف "حتى" حرف عطف واستئناف[1] في (14c) وحرف تعليق في (16c). بل إنّ الفصل بلحظة صمت قصيرة بين الإسناد الرئيسي والإسناد الفرعي تكفي أحيانا للانتقال من التعليق إلى العطف ولتغيير المعنى تغييرا تامّا رغم ارتباط الإسنادين الرئيسي والفرعي بنفس الأداة، كما هو الحال في الجملتين (17):

(17) a/ Marie n'est pas venue pour que Jacques parte.

b/ Marie n'est pas venue, pour que Jacques parte.

فالعلاقة الرّابطة بين الإسنادين في (17a) علاقة تعليق، والمفهوم من الجملة أنّ ماري حضرت ولكن لم تكن الغاية من حضورها ذهاب جاك أو رحيله، بل كان لحضورها غاية أخرى لم يقع التصريح بها في الجملة. أمّا العلاقة بين الإسنادين في (17b) فهي علاقة عطف واستئناف، والجملة تعني أنّ ماري لم تحضر وذلك حتى يرحل جاك.

لكل هذه الأسباب، تخلى لانقاكر عن التمييز الذي أقرّه النحاة وعلماء اللغة بين العطف والتعليق وعن تصنيفهم لأدوات كل منهما، وفضل دراسة كل العوامل التي تلعب دورا ما في هذه التراكيب والتي يجب أخذها بعين الاعتبار للتمييز بين التراكيب الكثيرة المتنوعة التي تتكوّن من أكثر من إسناد واحد les structures multipropositionnelles.

هذه العوامل تتلخص في التساؤلات التالية:

1. ما المركب الإسنادي وما هو النموذج النمطي للمركب الإسنادي؟

2. كيف يمكن لمركب إسنادي ما أن يقترب من الإسناد النموذجي أو أن يبتعد عنه؟

3. ماذا نعني بأدوات الرّبط وما هي أنواعها؟

4. ماذا نعني بالتعلق الإحالي l'enchaînement référentiel ؟

5. ما التعليق la subordination ؟

1- لا نميّز في هذا السياق بين العطف والاستئناف كما فعل النحاة العرب.

1. المركب الإسنادي

إذا نظرنا في الجملتين الإنجليزيتين (7b) و(7c) أو في الجملتين العربيتين (10a-b):

(18) a/ أخذ يعدّ حقائبه.

b/ لا يعرف متى ستنتهي هذه المحنة.

تبيّن لنا أنّ كل المركبات المتمّمة للمركب الإسنادي الرّئيسي مركبات إسناديّة لا تشوبها شائبة. فالفعل في كل منها فعل مصرف وكل الأطراف والعناصر التي يستلزمها مذكورة ذكرا صريحا في الجملة. لذلك يمكننا انطلاقا من هذه الأمثلة أن نعتبر أنّ المركب الإسنادي النموذجي هو المركب الذي يكون رأسه فعلا مصرفا والذي تتوفر فيه كل المكونات التي يستلزمها الرّأس. إلا أنّ السؤال الذي يظل مطروحا هو الآتي: كيف يمكن لتركيب ما أن يبتعد عن هذا النموذج وما هو الحدّ الذي لا يمكن تجاوزه حتى لا يفقد المركب انتماءه إلى صنف المركبات الإسنادية؟

يبدو لنا وإن مؤقتا أنّه يمكن لتركيب ما أن يبتعد عن نموذج المركب الإسنادي بإحدى طريقتين: إما بغياب بعض مكوّنات الإسناد من فاعل ومفاعيل، وإمّا بأن يفتقر إلى علاقة الإسناد ذاتها ne pas avoir un profil processuel، ويكون الإبتعاد عن النموذج باعتبار المقياس الأول أو الثاني، أو باعتبار المقياسين معا. إلا أنّه لا بدّ لنا من أن نلاحظ منذ الآن أنّ هذين الاعتبارين ليس لهما نفس الوزن ولا نفس الأهمية ما دام غياب أحد الأطراف التي يستلزمها معنى الفعل لا يؤدّي بالضرورة إلى خروج المركب عن قسم المركبات الإسنادية. فغياب المفعول به مثلا في أمثلة من نوع "ما أكل ولا شرب" ليس له أي تأثير يذكر في انتماء الجملتين الاستئنافيتين في مثالنا إلى المركبات الإسنادية. كذلك غياب المفعول به في صلة الاسم الموصول في الجملتين: La jupe que Marie a achetée était trop courte و"جاء يعتذر من الذي قال في عائشة".

يبدو إذن أنّ الخاصية الرئيسيّة التي تميّز المركبات الإسنادية حسب لانقاكر تتمثل في صيغتها الفعلية دون اعتبار لإظهار بعض المكوّنات الاسمية التي يستلزمها الفعل أو إضمارها. وقيمة هذه الميزة إنّما تكمن في أنّها تجعل

رأس المركب الإسنادي يشير إلى حدث مفرد محدد متعارف عليه من قبل المتكلم والسامع une instance repérée d'un type de processus. فاعتبار مركب ما مركبا إسناد يا لا يتوقف فقط على اشتماله على فعل وإنّما هو رهين الطريقة التي وقعت طبقا لها صياغة ذلك الفعل، أي هو رهين العمليات الدلالية الأربعة (R(Q(I(T))) التي تسمح للفعل بالإشارة إلى حدث مفرد يحتل مكانا خاصّا به في مجال الزمان.

ولذلك فالفرق في اللغتين الفرنسيّة والإنجليزيّة مثلا بين المركب الإسنادي التام proposition finie والمركبات التي تشتمل على حدث في قاعدتها الدّلالية إلا أنّه وقعت صياغتها بالإلتجاء إلى صيغ صرفية من نوع اسم الفاعل أو اسم المفعول[1] يتمثل في أنّه لم يقع ربط الحدث موضوع الكلام بزمان الخطاب ولا بالمشاركين في حدث الخطاب في هذا النوع من التراكيب، أي لم تطبق عليه عملية الترسيم l'opération de repérage. أمّا المركبات التي رأسها فعل مصدري [2] فهي مركبات لم تطبّق عليها إلا عمليتان دلاليتان اثنتان، هما عملية تحديد خصائص الجنس (T) وعملية الإرساء (I)، لأنه لا يمكن التعبير عن المظهر مع الأفعال المصدرية les infinitifs.

وحتى تتكوّن لنا فكرة واضحة أكثر عن الطرق التي يمكن بواسطتها لتركيب ما أن يبتعد عن المركب الإسنادي النموذجي، يمكننا أن نحاول النظر في مختلف الأمثلة التالية:

(19) a/ صوموا رمضان !

b/ صوموا شهرَ رمضان خير لكم !

1- المركبات التي يطلق عليها النحو الفرنسي مصطلح les propositions participales والتي لم تطبق عليها إلا عملية تحديد خصائص الجنس (T)، فعملية الإرساء (I) وعلمية التسوير (Q). ويمكننا أن نذكر كمثال لها المركبين المتممين في الجملة "Arrivée à Paris, elle commença par rendre visite à sa mère" والجملة " Négligeant tous ses amis depuis plusieurs années, il a fini par se retrouver seul "

2- وتسمّى في النحو الفرنسي les propositions infinitives، وهي من نوع المركبات الواقعة مبتدأ وخبرا في قولك "Partir c'est mourir un peu" .

c/ أن تصوموا شهرَ رمضان خير لكم.

d/ صيامكم شهرَ رمضان خير لكم.

e/ صيامكم في شهر رمضان خير لكم.

f/ الصيام في شهر رمضان خير لكم.

g/ صيام شهر رمضان خير لكم.

إنّ التركيب المكون للجملة (19a) مركب إسنادي مستقل يتكوّن من فعل مصرّف في الأمر له فاعله ومفعوله. إنّه مركب إسنادي تام مستقل يمكن اعتباره نموذجيًا.

ثمّ نجد نفس المركب في الجملة (19b) وقد ورد كذلك في صيغة مركب إسنادي فعله مصرف في الأمر وله فاعله ومفعوله، إلا أنّه في هذا المثال يعتبر مركبا إسناديا فرعيًا يؤدّي وظيفة المبتدإ، التي يؤدّيها عادة المركب الإسمي في اللغة العربيّة، داخل جملة أخرى أكبر. إنّنا بذلك نكون قد ابتعدنا درجة عن الجملة (19a) النموذجيّة، لأنّ المركب الإسنادي "صوموا رمضان!" لم يعد يمثل العلاقة الرّئيسيّة التي تنتظم حولها الجملة ككلّ، وإنّما أصبح مكوّنا من مكوّناتها، مبتدأ في جملة إسميّة أكبر.

أمّا المبتدأ في الجملة (19c) وإن ورد فعله مصرفا في المضارع، فإنّه يمثل صلة للحرف المصدري "أن" الذي تقدّم عليه، الأمر الذي يجعله يكوّن مع هذا الحرف المصدري مركبا اسميًا يمكنه أن يوجد في كل المحلات الإعرابيّة المخصّصة للاسم وأن يؤدّي كل الوظائف التي يؤدّيها، ولذلك رغم أنّه حافظ على كل ما يميّز الإسناد الفعلي من خاصيات ما دام فعله مصرّفا في المضارع وما دام محافظا على فاعله ومفعوله. ولذلك فنحن نبتعد درجة أخرى عن التركيب الإسنادي النموذجي مع الجمل التي من نوع (19c). إلا أنّنا سنبتعد أكثر فأكثر وبالتدريج عن النموذج مع الجمل (19d-g) لأنّنا سنفقد الفعل (المتصرّف) باعتباره رأسا للمركب الواقع مبتدأ وسنجد مكانه مشتقات من نفس جذره تبتعد شيئا فشيئا عن الفعلية وتتسم أكثر فأكثر بالخصائص المميّزة للاسم في اللغة العربية. وبالفعل فالمركب شبه الإسنادي الواقع مبتدأ يتكون من مصدر يقوم مقام الفعل له متمّمات (مفعول به منصوب كما هو

الحال في (19d) أو مفعول فيه كما هو الحال في (19e))، يعوّضه اسم مسبوق بأداة التعريف التي لا تتقدّم إلا الأسماء ويظلّ رغم ذلك عاملا في المفعول فيه في (19f)، إلا أنّه يترك المكان نهائيّا لمركب اسمي يتكوّن من مضاف ومركب اسمي مضاف إليه في (19g)، وبذلك نجد أنفسنا أمام تركيب يوجد في طرف المسترسل le continuum المقابل تماما للموقع الذي انطلقنا منه مع الجملة (19a)، أي مع الأسماء والمركبات الإسمية التي تمثل الطرف المقابل للعلاقات المقرونة بزمان والجمل في المسترسل التصوري وفي المسترسل اللغوي في الآن ذاته.

هذا التحليل يسمح للانقاكر بأن يعتبر أنّ المركب الإسنادي النموذجي (و بالتالي الجملة النموذجيّة) هو ذاك الذي يكون رأسه فعلا مصرفا في زمن معيّن، أي علاقة زمانيّة طبّقت عليها العمليات الدّلالية الأربع (R(Q(I(T)))). إلا أنه يستدرك من بعد ليلاحظ أنّ هذه الخاصيّة غير كافية لتمييز المركبات الإسناديّة النموذجيّة لأنّ الإسناد لا يكون نموذجيا إن لم يكن بارزا saillant في المستوى الأعلى للتركيب الذي يرد فيه وإن لم يكن هو المعيّن والمقصود أساسا mis en profil في ذلك المستوى فارضا نفسه بذلك على التركيب كله. فالإسناد النموذجي يجب أن يكون تاما وكذلك مستقلا دلاليّا وتركيبيّا عمّا حوله، الأمر الذي لا يتحقق عندما يكون المركب الإسنادي معلقا. وذلك لأنّ التعليق التركيبي يعكس تعليقا دلاليّا تصوّريا، والمركب الإسنادي المعلق تتمثل قيمته في الدّور الذي يؤدّيه داخل العلاقة التي يعبر عنها فعل الجملة الرّئيسي، وهذا الدّور يتمثل عادة في أنّ المركب الإسنادي المعلق يحتل موقعا إعرابيّا من المواقع المخصّصة للاسم والمركب الإسمي عادة [1]. فالمركب الإسنادي المعلق يمثل عنصرا أو قل طرفا من أطراف الجملة الكبرى التي تحتويه، ولذلك فالحدث الذي يعبّر عنه يقع بناؤه وتنظيمه بطريقة إجمالية d'une manière globale، أي أنّ المركب الإسنادي قد يكون بارزا في مستوى ما من التركيب، ثم يفقد بروزه ذاك إذا أصبح مركبا إسناديا فرعيّا، أي مكوّنا من مكوّنات مركب إسنادي آخر

1- نظل حذرين إلى حد كبير إذ لا ننسى أنّ كل المركبات الإسنادية لا تحتل موقعا إعرابيا اسميا، كما هو الحال في ما يسمّى بالجمل المتلازمة les phrases parallèles التي من نوع "أسلم تسلم" في اللغة العربية و "Plus je mange, plus j'ai faim" في اللغة الفرنسية.

يزيحه ويصبح أكثر بروزا منه، وبذلك يصبح المركب الإسنادي الفرعي مبنيّا وكأنّه علاقة غير مقرونة بزمان، بناء يجعله قريبا جدّا من الأشياء التي تستعمل المركبات الاسميّة للإشارة إليها.

قد يرى القارئ فيما نحن بصدده تناقضا في كلامنا، خصوصا وأنّنا كنا قلنا إنّ كل مركب إسنادي يشير إلى حدث واقع في زمان، إلى علاقة مقرونة بزمان. إلا أنّه علينا ألا ننسى أنّه توجد عدّة مستويات بنيويّة يجب أخذها بعين الإعتبار. فالمركب الإسنادي يدلّ على حدث واقع في زمان وقع تحديده بالقياس إلى زمان الخطاب، وذلك قبل أن يزيحه ويتجاوزه حدث آخر يحتويه لأنّه واقع في مستوى من البناء أعلى ويمثل موضوع الحديث الرئيسي في مستوى الجملة ككلّ، وذلك سواء سُبق المركب الإسنادي الفرعي (أو الجملة الفرعية[1]) بأداة ربط (من نوع "أن" أو "أنّ" في العربية أو "que" في الفرنسية أو "that" في الإنجليزية) أم لم يُسبق[2].

وهكذا فالجمل الفرعية غير المسبوقة بأداة ربط تمثل أقرب العلاقات المقرونة بزمان من الجملة النموذجيّة إذ لا ينقصها إلا الإستقبال والبروز la mise on profil، ثم تليها في المرتبة الجمل الفرعية المسبوقة بأداة ربط أو بظرف يجعلها تحتلّ محلا إعرابيّا خاصّا بالأسماء والمركّبات الاسميّة عادّة، فالمركبات شبه الإسناديّة التي رأسها اسم مشتق يقوم مقام الفعل، ثمّ الصفات التي تشتمل قاعدتها الدّلالية على حدث، فالصّفات التي لا وجود لأي حدث في قاعدتها (مثل الصّفات الدّالة على الألوان)، فالحروف والأدوات، هكذا حتى نصل إلى الأسماء الجامدة التي لا نجد أي أثر لعلاقة ما في بنيتها الدّلالية الداخلية.

1- نشير هنا إلى أن كل الجمل في العربية لا تقوم على إسناد، ونذكر في هذا السياق خاصّة الجمل الظرفية.

2- كما هو حال المركب الإسنادي الفرعي في قولك" رأيت رجلا يمشي ببطء" أو في قولك "جعلته يتخلى عن كل أطفاله."

2. أدوات الربط [1]

عامل آخر له دوره في بناء التمثلات والتصّورات المركبة، ألا وهو استعمال أدوات تربط بين الجمل[2]، بين الابتدائية والاستئنافية منها، أو الرّئيسيّة والفرعيّة. ويسمّيها النحاة العرب أدوات ربط، أو حروف عطف واستئناف، في حين يستعمل النحاة الغربيون في الإشارة إليها تسميات من نوع coordonnants أو subordonnants أو conjonctions (de coordination, ou de subordination) أو connecteurs. أمّا دور هذه الأدوات فيتمثل في التعبير تعبيرا صريحا عن طبيعة العلاقة التي يريد المتكلم أن يقيمها بين الجملتين.

وسنحاول فيما يلي أن نميّز بين نوعين رئيسيين من الأدوات انطلاقا من الخصائص الدلالية لكل منها.

(02) a/ عاد زيد إلى البيت قبل غروب الشمس.

b/ عاد زيد إلى البيت قبل أن تغرب الشمس.

c/ عاد زيد إلى البيت وقد غربت الشمس.

d/ عاد زيد إلى البيت ولم يجد أخته.

يتكوّن كل مثال من هذه الأمثلة من تصوّرين تفصل بينهما وحدة لغويّة ("قبل" في المثالين (2Oa-b) والواو في المثالين (2Oc-d). أمّا الجملة الأولى فهي جملة بسيطة لأنّها تتكوّن من علاقة زمانية واحدة تمثل الإسناد الرّئيسي، وأمّا الجمل الثلاث الأخرى فمركبة من إسنادين يفصل بينهما الظرف "قبل" في (2Ob)، والواو في (2Ob-c). ويمثل الظرف "قبل" نوعا من العلاقات غير الزمانية التي يقتضي معناها طرفين (أي ذاتين أو شيئين، أو علاقة زمانيّة وذاتا (كما في Oa2)، أو علاقتين زمانيتين (كما في (2Ob))، ليقيم بينهما

1- سنستعمل مصطلح "أداة ربط" في هذه الفقرات باعتباره مقابلا للمصطلح connecteurs، أي دون أي اعتبار لطبيعته الصرفية، وسنحتفظ بمصطلح "حرف" باعتباره مقابلا لمصطلح opérateur وسنجعله متبوعا بما يخصصه ما أمكن ذلك، فنتحدث مثلا عن حروف النفي وحروف الجر والحروف المصدرية.

2- كلنا يعرف أنّ الأداة ليست ضرورية وأنّ الربط قد يكون بأداة وقد يكون بدون أداة كما هو الحال في التعليق (انظر الجملة (18a)) وفي جملتي الأمر وفي الاستئناف البياني.

ترتيبا في الزمان، فيكون الطرف الأوّل واقعا في الزمان قبل الطرف الثاني من طرفي العلاقة. أمّا الواو فيستلزم علاقتين زمانيتين يضعهما في نفس المستوى كما هو الحال في المثال (20d) ويكون أداة عطف واستئناف، أو يقيم علاقة تزامن بين الحدث أو العلاقة الزمانية التي يمثلها الإسناد الرئيسي من ناحية والحالة أو الهيئة التي يمثلها الإسناد الفرعي من ناحية أخرى، ويعتبره النحاة عندئذ أداة تعليق يسمّونها "واو الحال" (انظر (20c)).

هذا النوع من الأدوات[1] يستلزم علاقتين زمانيتين، أو قل جملتين، يقيم بينهما علاقة خاصّة تتكفل الأداة بالتعبير عن محتواها.

(12) يريد أن يذهب إلى الصين.

أمّا الأدوات التي من نوع "أن" و"أنّ" في العربية وque في الفرنسية وthat في الإنجليزية فإنّها لا تستلزم إلا علاقة زمانية واحدة أو قل إسنادا واحدا يمثل جزءا من بنيتها الدّلالية الدّاخلية، ويتمثل مفعول هذه الوحدات الأساسي في أنّها تجعل المركب الإسنادي الذي تدخل عليه يفقد دلالته على الزمن ويفقد ارتباطه بزمان الخطاب وبالمشاركين فيه. إنّ هذه الوحدات حروف مصدرية des détemporalisateurs, ou des nominalisateurs تؤهّل العلاقة الزمانية للقيام مقام الاسم ولأداء الوظائف الخاصّة به عادة في جملة أكبر، ولا يمكن بحال من الأحوال اعتبارها أدوات ربط. أما المركب الحاصل من دخول إحداها على مركب إسنادي ما فإنّه لا يشبه المركبات الإسنادية الفرعية التي لا تربطها أي أداة بالإسناد الرئيسي (انظر المثالين (18a) و(19b)) إلا من حيث المحلّ الإعرابي الذي يحتله، لأنّ بنيته أقرب إلى بنية المركبات الإسمية. إنّها أدوات أحادية، شأنها في ذلك شأن حروف النفي، لا تتطلب إلا إسنادا واحدا تدخل عليه وتشيّئ العلاقة الزمانية (réification) التي تحتوي عليها قاعدته الدّلالية، ولا تتطلب مركبين إسناديين لإقامة علاقة ما بينهما.

يمكننا إذن أن نقول إنّه يوجد نوعان من الوحدات: نوع أوّل يشمل ما نصطلح على تسميته حروفا opérateurs تحتاج إلى عنصر واحد لأنّه يوجد مكان واحد شاغر في بنيتها الدّلالية الدّاخلية، ونوع ثان يشتمل على علاقات

1- مثل الواو و"قبل" و"إذ" و"بينما" و"عندما" و"لمّا" الظرفية ... وما شاكل ذلك.

غير زمانية نسمّيها أدوات ربط connecteurs لأنها تحتاج إلى طرفين ويوجد في بنيتها على الأقل مكانان شاغران.

إنّ هذا التحليل للحروف وللأدوات يجرّنا إلى طرح سؤال لا بدّ من أن نحاول الإجابة عنه، ويخصّ هذا السّؤال الموقع والمكانة التي يمكن نوليها لأدوات العطف والإستئناف ضمن النوع الثاني، أي ضمن ما ارتضينا تسميته أدوات ربط.

يبدو أنّ أدوات الرّبط قسمان. أمّا القسم الأوّل فيتكوّن من وحدات تعبّر عن علاقات من نوع "قبل" و"بعد" أو "لكن" و"بينما" و"حتى" و"إن" [1] وغيرها من الوحدات في العربية، وcependant وnéanmoins وlorsque في الفرنسية وwhile وalthough وafter في الإنجليزيّة، ويكون لها مضمون محدّد ومعنى موضوعي صارم تكاد لا تؤثر فيه السياقات المختلفة التي ترد فيها، كما تتميّز ببروزها في التركيب بروزا يفوق البروز الذي قد يحظى به طرفاها أو البروز الذي قد يستأثر به أحدهما. فأداة الربط "إن" مثلا تفيد الشرط مهما كان السياق الذي ترد فيه ومهما كان مضمون جملة الشرط ومضمون جملة الجواب. وتتميّز العلاقات التي يقيمها هذا النوع من الوحدات بأنّها تجعل من أحد طرفيها عنصرا أساسيّا ومن الطرف الآخر عنصرا فرعيّا ثانويّا. وهكذا فالوحدة "عندما" مثلا تجعل من المركب الإسنادي الوارد بعدها إطارا زمانيّا للمركب الإسنادي الرئيسي المتقدم عليها، فلا تولي نفس الأهميّة لطرفيها ولا تضعهما في نفس المنزلة، ولذلك تتسم العلاقة التي تعبّر عنها بعدم التوازي أو قل بعدم التناظر une relation asymétrique.

أمّا القسم الثاني فيشتمل على وحدات من نوع آخر تعبّر عن علاقات مضمونها ذاتي مجرّد، بل مغرق في التجريد أحيانا، يفيد معنى أدنى مثل الواو التي تفيد مطلق الجمع في اللغة العربيّة. وتقيم هذه الوحدات علاقات دنيا لا تتمتع بأيّ بروز يذكر في مستوى التركيب، ولذلك يكون البروز في هذه الحالة من نصيب الطرفين أو الأطراف التي تربط بينها. وتكون العلاقة

1- لاحظ أننا نهتمّ أكثر في هذا السياق بالأدوات التي تربط بين إسنادين ونهمل ما يطلق عليه في النحو الغربي مصطلح les prépositions وحروف الجر التي ترد للربط بين مركب إسنادي ومركب اسمي كما تفعل الباء في قولك "خرج زيد بسرعة".

التي تعبّر عنها هذه الوحدات علاقة تكافؤ بين الطرفين أو الأطراف التي تربط بينها وتضعها على قدم المساواة، ولذلك يكون التوازي والتناظر بين تلك الأطراف أمرا يفرضه مضمون العلاقة نفسه ومعناها. وتتوفر هذه الخاصيّة أساسا في أدوات العطف والاستئناف، وخاصّة في أداة العطف النموذجيّة (الواو).

لكلّ هذه الأسباب التي ذكرناها يعتبر لانقاكر هذا النوع من الأدوات أدوات ربط نموذجيّة.

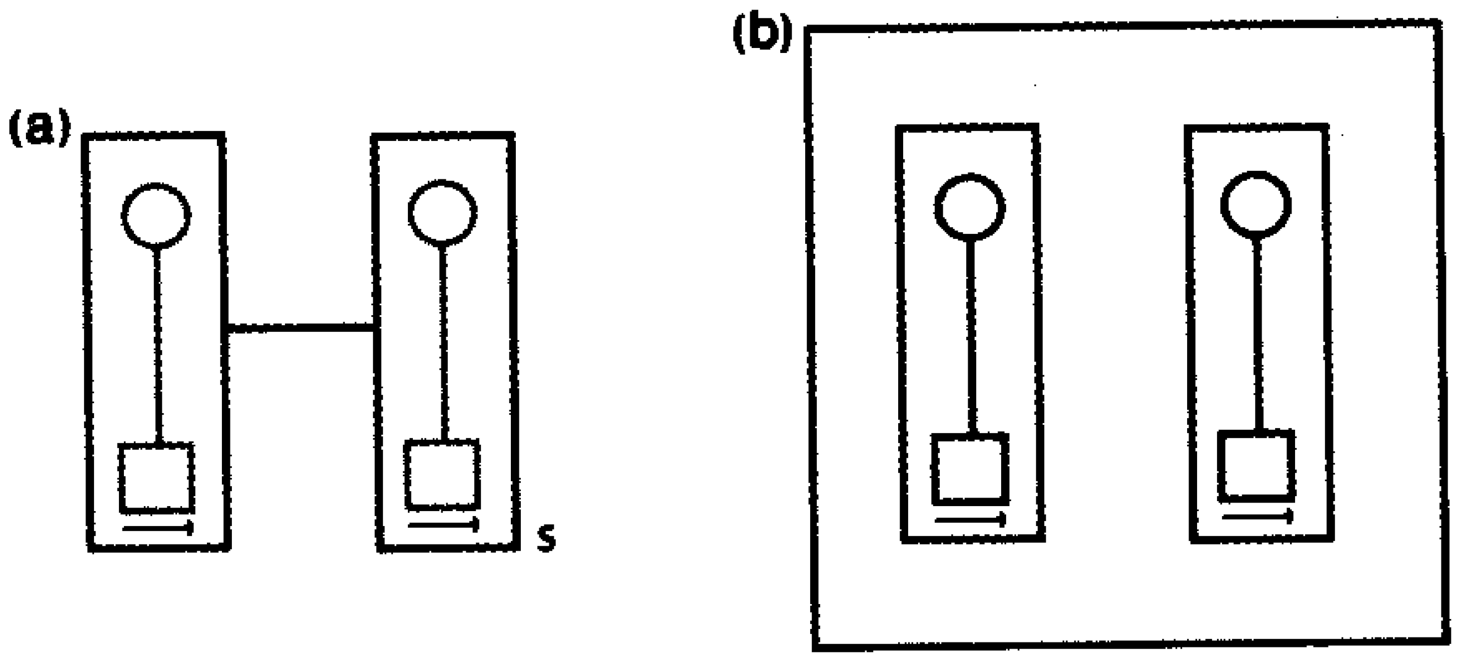

الشكل (13): نوعا أدوات الربط في اللغات الطبيعيّة

3. التعلق الإحالي

ونعني بالتعلق الإحالي l'enchaînement référentiel الطريقة أو الكيفيّة التي يمكن بمقتضاها لبنيتين تصوّريتين أن تتآلفا لتكوين تصوّر مركب متماسك متناسق. وهكذا فالمركب الإسنادي الفرعي مثلا يرتبط بالإسناد الرّئيسي، إلا أنّه قد يكون متعلقا بالإسناد الرّئيسي ككل، وقد لا يكون متعلقا إلا بإحدى الأبنية الفرعية المكوّنة له.

وضروب التوافق والتآلف بين التصوّرات هي التي تقيم علاقات إحالية، باعتبار أنّها تكشف الوحدات المشتركة بين التصوّرات المكوّنة les conceptions composantes والتي لها نفس البنية التصوّرية. وقد يتحقق التعلق الإحالي بطريقة غير مباشرة (بفضل تشكيل التصورين المكوّنين باعتبارهما علاقتين زمانيتين أو عبر وحدات أخرى بارزة لا تنتمي إلى صنف العلاقات الزمانية)، أو بطريقة مباشرة عبر الأسماء الموصولة. فالبنية الدلالية الدّاخلية للوحدة "عندما" مثلا تستلزم كطرفين لها مركبين إسناديين ولذلك

تحتوي على حيزين مجردين كلاهما علاقة مقرونة بزمان، وتوافق عبارة "خرج زيد" طرفها الأول (أي سيارها) كما توافق عبارة "غربت الشمس" طرفها الثاني (أي غرضها)، في قولك "خرج زيد عندما غربت الشمس".

نفس الشيء تقريبا يحدث مع أدوات العطف والاستئناف. كل ما في الأمر أنّ أداة كالواو مثلا يمكنها أن تربط بين الجمل المستقلة، وبين المركبات الإسنادية الفرعية، وبين المركبات الإسميّة وبين المركبات الحرفية، وبين الصفات، ولذلك توجد ضروب من الواو لكل منها بنية تصوّرية داخلية متميّزة تجعلها تختار طرفيها ضمن هذا الصّنف التصوّري واللغوي أو ذاك.

قد يتحقق التعلق الإحالي كذلك عبر الأطراف المشاركة في العلاقة الزمانية الرئيسيّة التي تتميّز عادة بالبروز، ويكون التوافق والتآلف بين الطرف الثاني من طرفي العلاقة الزمانية "اشترى" والبنية الدّلالية الداخلية لعبارة "قميص" الذي اختاره المتكلم سيارا للإسناد الرئيسي في قولك "القميص الذي اشتريته جميل جدّا".

وقد يكون التآلف بين الطرف الثاني (أي الغرض) من طرفي العلاقة الزمانية الرئيسيّة "رأيت" وسيار العلاقة الزمانية الفرعية "يجري" في قولك "رأيت رجلا يجري بسرعة".

ولعلّ الفرق الوحيد بين ما وقع في قولك "القميص الذي اشتريته جميل جدّا" وفي قولك "رأيت رجلا يجري بسرعة" هو أنّ التعلق وقع بطريقة غير مباشرة في المثال الأول وبطريقة مباشرة في المثال الثاني.

ولا بدّ من أن نشير في هذا السّياق إلى أنّ التعلق الإحالي يسمح في بعض اللغات بالتمييز بين المركبات الإسناديّة الفرعية المرتبطة بالإسناد الرئيسي والمركبات الإسميّة بالموصول التي لا يمكنها أن تكون متعلقة إلا بمكوّن من مكوّنات الإسناد الرئيسي. لننظر مثلا في الجملتين الإنجليزيتين:

(22) a/ She told a funny story which amused me.

b/ She told a funny, which amused me.

اللتين يمكننا أن نترجمهما بالتوالي بالجملتين "روت لي حكاية جعلتني مسرورا" و"روت لي حكاية، الأمر الذي جعلني مسرورا".

يمكننا أن نلاحظ أنّ أداة الرّبط which في (22a) تجعل المركب الإسنادي amused me مخصّصا للمركب الإسمي a funny story، ويمثل مركبا اسميّا بالموصول، في حين أنّها تجعل نفس المركب الإسنادي مرتبطا بالإسناد الأول ككل في (22b)، وتجعل منه جملة تكاد تكون جملة استئنافيّة في علاقتها بالجملة الأولى.

هذه الأمثلة والحالات التي تعرّضنا إليها تبيّن أنّ البنية في حدّ ذاتها أقلّ أهميّة من العوامل الدّلالية التي من نوع البروز la saillance والإبراز la mise en profil والتوافق والتآلف la correspondance والوظيفة الدّلالية، في تحديد الأصناف التقليديّة. هذه العوامل هي التي تبيّن كيف أنّ التركيب الإسنادي الفرعي والتركيب الإسمي بالموصول يشتركان في كون أحد الأطراف المشاركة في الإسناد الرّئيسي وقعت صياغته في صورة مكون، إمّا أنّ بنيته قريبة من بنية الإسناد أو أنّه يشتمل بشكل بارز على بنية من هذا النوع. أمّا الفرق بينهما فهو فرق دلالي أساسا يرجع إلى مفهوم التوافق والتآلف: فإمّا أن يتوافق العنصر المعنيّ في الإسناد الرّئيسي مع طرف من الأطراف المشاركة في الإسناد الفرعي ويكون التركيب الفرعي مركبا بالموصول une relative، أو أن يحصل التوافق بينه وبين الإسناد الفرعي ككل ويكون التركيب مركبا إسناديا متعلقا بالإسناد الرّئيسي une subordonnée.

4. الإسناد الفرعي

لا نجد عند النحاة ولا عند علماء اللسان ولو تعريفا واحدا كافيا شافيا للإسناد الفرعي يشمل كل ما يدرجه النحاة وعلماء اللسان من تراكيب يعتبرونها مركبات إسنادية فرعيّة.

بعض التعريفات التي وقع اقتراحها تعتبر أنّ المركب الإسنادي الفرعي هو المركب المسبوق بأداة من أدوات التعليق les conjonctions de subordination. إلا أنّ هذا النوع من التعريفات يطرح على الأقل إشكالين: أوّلهما أنّ عددا لا بأس به من المركبات الإسنادية الفرعيّة يرتبط بالإسناد الرّئيسي ارتباطا مباشرا ولا يحتاج إلى أداة تعليق، وثانيهما يتمثل في أنّه لا

يمكننا بحال من الأحوال أن نتحدّث عن أدوات التعليق إن لم نعرّف مفهوم التعليق نفسه.

نوع آخر من التعريفات يعتبر أصحابه أنّ المركب الإسنادي الفرعي مركب إسنادي يمثل جزءا من مركب إسنادي أكبر يشتمل عليه، إلا أنّهم لا يحاولون توضيح ما تعنيه عبارات من نوع "جزء من ..." أو "يشتمل على ..."، خصوصا وأنّنا لا نرى كيف يمكن لأحد المركبين الإسناديين أن يكون جزءا من المركب الإسنادي الآخر، ولا كيف يمكننا أن نعتبر أنّ أحد المركبين الإسناديين يشتمل على الآخر في جمل من نوع "أسلم تسلم" في العربية أو في جملة مثل "Plus il mange, plus il a faim" في الفرنسيّة.

فما هي إذن الخاصيّة التي يمكنها أن تسمح لنا بالتمييز بين ما هو مركب إسنادي فرعي وما هو مركب إسنادي رئيسي؟

يقترح لانقاكر على الباحثين أن يعتبروا أنّ المركب الإسنادي الفرعي هو ذاك الذي لا يمثل مركبا إسناديا رئيسيا. وهذا يعني أنّ الفرق بين النوعين يكمن في البروز وعدم البروز. فالمركب الإسنادي الرّئيسي la proposition principale يمثل رأس الجملة الكبرى والعنصر البارز في أعلى مستويات التركيب، الذي يفرض وجهه وصنفه على كل الجملة بكل مكوّناتها. ويترتب عن ذلك أنّ المركب الإسنادي الفرعي هو ذاك الإسناد الذي لم يعد يمثل موضوع القول الرّئيسي لأنّ الإسناد الأكبر تجاوزه وهمّشه وأفقده البروز.

هذا التصوّر وهذه الرؤية يمدّاننا بتحديد عملي طيّع للتعليق لسببين على الأقلّ:

أوّلهما أنّه تحديد غير مرتبط بنوع خاص من أنواع المركبات الإسنادية الفرعية الكثيرة والمتعدّدة في اللغات الطبيعيّة، وثانيهما أنّه يسمح بكل بساطة ووضوح بإقصاء حالات العطف والإستئناف النموذجيّة في مختلف اللغات الطبيعيّة التي نعرفها، تلك الحالات التي يتميّز فيها العنصران المكوّنان للتركيب بالتساوي وبالإستقلال التصوّري الدّلالي وبالإستقلال التركيبي النحوي المترتب عنه.

إلا أنّ الاستقلال التصوّري l'autonomie conceptuelle مفهوم أكثر تعقيدا ممّا يبدو عليه في حالات العطف والإستئناف، ولذلك سنخصّص له الفقرة الموالية ونحاول دراسته في علاقته بمفهوم التبعيّة التصوّرية la dépendance conceptuelle لننتهي إلى اقتراح مقياس يسمح بالتمييز بين المتممات الضروريّة les compléments obligatoires والمتمّمات الإختياريّة les compléments optionnels.

6. الإستقلال والتبعيّة:

إنّ المقابلة بين الإستقلال والتبعيّة autonomie vs. dépendance تهمّ القطب الفونولوجي كما تهمّ القطب الدّلالي. فهي تسمح بتحليل العبارة tables مثلا إلى "table" و"s —" والعبارة "تابعون" إلى "تابع" و"—ُون" و"كفّار" إلى "كافر" والصيغة "فُعّال" وذلك على المستويين الفونولوجي والدّلالي. وتعتبر العبارات "table" و"تابع" و"كافر" عبارات مستقلة، والعبارات "s —" و"—ُون" و"فُعّال" عبارات تابعة. وذلك يعني أنّنا نعتبر عبارة ما تابعة تصوّريا إذا اشتملت في بنيتها الدّلالية على موقع شاغر لا تتحقق تلك العبارة ولا تنجز إلا بعد إشباعه. فالفعل الذي جذره (ك ت ب) مثلا يشتمل على موقعين شاغرين، أحدهما مخصّص لسيّار العلاقة الذي يعيّن الفرد القائم بعملية الكتابة، والثاني مخصص لغرض العلاقة الذي يقع عليه الفعل. أمّا تصوّر شيء ماديّ ملموس كالذي تدلّ عليه عبارة "شجرة" فهو غير معنيّ بذلك لأنّه أكثر استقلالا. فالبنية التابعة هي إذن بنية يقع تحديد خصائصها باستدعاء بنية أخرى ضرورة. إنّها بنية محتاجة إلى تحقق بنية من أبنيتها الفرعيّة.

وصياغة مفهوم التبعية صياغة عامّة بهذه الطريقة قصد إليها لانقاكر قصدا حتى يصدق المفهوم Dependence على كل الحالات، وحتى لا يقع الخلط بينه وبين مفهوم التعلق النحوي التوزيعي Dependency السّائد في النظريات النحويّة المسمّاة les grammaires de valence والتي اهتمّت أساسا بتآلف الأبنية السياقيّة المكوّنة structures syntagmatiques composantes لتشكيل أبنية مركبة. هذه النظريات الأخيرة اعتبر أصحابها أنّ المدلول التابع علائقي وأنّ المدلول المستقل يكون شيئا في كل الحالات. هذه الحالة الخاصّة حالة نموذجيّة ممثلة لمفهوم التبعيّة، ولا شك أنّ ذلك هو الذي قاد

أصحاب هذه النظريات إلى الإهتمام بهذه الحالة الخاصّة دون غيرها من الحالات، لأنّ منطلقاتهم النظرية تمثل التحليل المعهود للأبنية على أساس أنّها متكوّنة من المسند le prédicat وأطرافه les arguments du prédicat.

إلا أنّ الإشكال يكمن في وجود عدد لا يستهان به من الحالات الأخرى التي تكون فيها العبارتان المتآلفتان علائقيّتين. وبالفعل، فالأصل الفعلي le radical verbal "mang— "

في الفرنسية يمثل علاقة محتاجة إلى عنصر هو الآخر من نوع اللاحقة العلائقيّة الأخرى التي تسمح بالحصول على فعل مصدري "er —" أو على اسم مفعول "é —". وهذا يدل على أن العنصرين المشاركين في عملية التآلف عنصران علائقيان، وبالتالي فالعنصر المستقل نسبيًا أو الأقل تبعيّة)أي الأصل الفعلي "—mang"في مثالنا) ليس في كل الحالات مركبا اسميًا يدلّ على شيء un objet.

ولذلك نعتبر أنّ مفهوم التعلق Dependency في النظريات النحويّة التوزيعيّة يختلف عن مفهوم التبعيّة Dependence [1] المألوف لدى العرفانيّين. بل يمكننا أن نذهب إلى أنّهما مفهومان متقابلان. وممّا يدعّم موقفنا هذا هو أنّ مختلف النظريات النحويّة القائمة على مفهوم التعلق les grammaires de dépendance [2] تعتبر أنّ المركبات الإسمية لا تكون إلا متعلقة بفعل أو صفة مادام هذان الأخيران هما اللذان يقتضيان ظهور المركبات الإسمية ويحدّدان عددها في مستوى المركب الذي يرأسانه باعتبار أنّ ظهور المركب الاسمي يظل رهين ما يستلزمه ويقتضيه هذان الرأسان العلائقيان.

كل ذلك يرجع أولا وبالذات في رأينا إلى أنّ أصحاب هذه النظريات لم يأخذوا بعين الإعتبار إلا المقياس التوزيعي الشكلي le critère

---

1- يستعمل لانقاكر مصطلح Dependenceليلفت الانتباه إلى أن مفهوم الاستقلال الذي يلجأ إليه في أبحاثه يختلف عن مفهوم الاستقلال Dependency كما يتصوّره التوزيعيون.

2- من بين ممثلي هذا النوع من المقاربات يمكننا أن نذكر Robinson (1970) وAnderson(1971) وHudson (1976) و(1981) Mathews، انظر قائمة المراجع لمزيد من التفصيل.

distributionnel formel. وهذا المقياس قادهم إلى اعتبار أنّ العنصر (ا) عنصر تابع لأنّه لا يظهر ولا يُحتاج إليه إلا إذا ظهر العنصر (ب) واقتضاه[1].

وفي مقابل ذلك يعتبر النحو العرفاني أنّ المدلول العلائقي متعلق بالمركبات الإسمية تابع له،ا وأنّ مفهوم التبعيّة يجب أن يكون مفهوما عامّا ينطبق على القطب الفونولوجي وعلى القطب الدّلالي كما يصدق على أغلب الحالات المتواترة في اللغة. ولذلك كان الإستقلال التصوّري والتبعيّة التصوّرية مفهومين جوهريين التجأ إليهما العرفانيون لمعالجة عدد كبير من الظواهر اللغويّة والمفاهيم النحويّة.

ولعلّ أحسن مثال يمكننا تقديمه بهذا الشأن هو ذاك الذي اختلفت حوله النظريات البنيويّة والذي يهمّ التمييز بين العناصر الرّئيسيّة الضروريّة والعناصر الفرعيّة الاختياريّة التي أطلقوا عليها مصطلحات من نوع éléments centraux vs. périphériques أو compléments vs. adverbiaux أو actants vs. circonstanciels، أي بين الأطراف المشاركة في الحدث والعناصر التي تمثل الإطار.

لا خلاف في أنّ الفاعل والمفعول به يعتبران في أغلب الأحوال عنصرين رئيسيين باعتبار أنهما مشاركان في الحدث. إلا أنّ منزلة باقي مكوّنات الجملة ظلت ولا تزال محلّ خلاف، وإن كان الإتفاق ممكنا بشأن بعض الحالات كما هو الحال في الأمثلة التالية:

(23) a/ جعل أخته حزينة.

b/ وضعت الأدباش في الحقيبة.

1- ظهر التحليل التوزيعي الذي يعتبر أهمّ ما يميّز اللسانيات البنيوية في الثلاثينات مع Bloomfield في الولايات المتحدة الأمريكيّة. ويستند هذا التحليل إلى أنّ كل عنصر لغوي لا يظهر إلا في مواضع معيّنة بالنسبة إلى العناصر اللغوية الأخرى. ولذلك قرّر أصحابه أن يعرّفوا وحدات اللغة باعتبار قابليتها للتجاور فيما بينها وبتفصيل ما يجاورها من وحدات، أي ما يظهر قبلها وبعدها من وحدات. ويؤدّي مجموع هذه التوزيعات إلى تحديد وضبط المقولات التوزيعيّة les classes distributionnelles. فمقولة الأسماء مثلا تُعرّف بأنّها تلك التي تتكوّن من وحدات تقبل ورود أدوات التعريف والتنكير قبلها وورود الفعل بعدها، إلى غير ذلك. ولذلك كان المعنى عند أنصار هذا التحليل رهين الخصائص التوزيعيّة.

(24) a/ غادر التلميذ القسم قبل أن ينتهي الدّرس.

b/ تناول فطوره في الحديقة العموميّة.

نلاحظ أنّ المتمّم "حزينة" في (23a) وكذلك المركب الحرفي " في الحقيبة" في (23b) متممان مركزيان، على عكس المركب الظرفي "قبل أن ينتهي الدرس" في (24a) والمركب الحرفي "في الحديقة العمومية" في (24b) اللذين لا نزاع في أنّهما عنصران ثانويان يمكن للجملة أن تستغني عنهما. والفرق بين الأمثلة الأربعة يكمن في التبعيّة التصوّرية الكائنة بين الفعل والعنصر العلائقي المتمّم. فالفعل "جعل" في (23a) تابع محتاج إلى الصفة "حزينة" لأنّه يدلّ على التسبّب في نقل فرد من حالة إلى حالة أخرى، ولذلك فالحالة التي يؤول إليها ذلك الفرد تمثل جزءا بارزا من بنية الفعل الدّلالية التصوّرية. كذلك يتضمّن الفعل "وضع" في (23b) المكان الذي تؤول إليه الأدباش، ويرد المركب الحرفي "في الحقيبة" ليشغل هذا الموقع الشاغر في بنية الفعل الدّلالية. أمّا المركب الظرفي والمركب الحرفي في (24a-b) فهما تابعان دلاليّا للفعل الرئيسي الذي لا حاجة له بمثل هذه المتممات في الجملتين. وهكذا فالمكوّن المشتمل على الفعل مقرونا بفاعله ومفعوله الأوّل (غادر التلميذ القسم) يدلّ على حدث ويمثل سيار العلاقة غير الزمانية الواردة في صيغة مركب ظرفي (قبل أن ينتهي الدرس)، شأنه في ذلك شأن المركب الإسنادي (تناول فطوره) في علاقته بالمركب الحرفي (في الحديقة العموميّة). ورأس المركبين الإسناديين الرئيسيين غير محتاج بحال من الأحوال إلى تلك المتممات لأنّ الإشارة إلى الزمان أو إلى المكان لا تمثل في الجملتين (24) عنصرا بارزا من العناصر التي يستدعيها الفعل ويقتضي حضورها حضورا دلاليّا ونحويّا صريحا، رغم أنّنا نعرف جميعا أنّ كل حدث يقع في مكان معيّن وفي زمان محدّد.

مثل هذا التحليل يسمح من ناحية أخرى بحلّ إشكال مألوف وهو الإشكال الذي تمثله العلاقة بين الرأس la tête والمعدّل le modificateur.

فالعلاقتان غير الزمانيتين الواقعتان متمّما في المثالين (23) والعلاقتان غير الزمانيتين المعدّلتين للتركيب الإسنادي الرئيسي في الجملتين (24) تمثل أحسن تمثيل في مستوى التركيب النحوي عدم التناظر بين العنصر المستقلّ

والعنصر التابع والفرق بينهما يصبح يسيرا إن إعتمدنا مفهومي الإستقلال والتبعيّة، وقلنا:

- إذا كان الفعل الذي يمثل رأس النواة الإسناديّة الرّئيسيّة محتاجا دلاليّا إلى العنصر المتمّم الذي يخصّصه، إعتبرنا هذا العنصر الأخير متمّما للفعل، وبالتالي مفعولا ضروريّا un complément du verbe.

- أمّا إذا كان العنصر المخصّص محتاجا إلى المركب الذي رأسه الفعل، فإنّنا نعتبره عنصرا معدّلا للفعل الرّأس مقرونا بفعله ومفاعيله، لأنّ بنية الفعل الدّلالية لا تحتوي في هذه الحالة على موقع شاغر لتقبّله.

و في ختام هذا القسم، يمكننا أن نؤكّد أنّ التحليل الذي استعرضنا أهمّ مميّزاته يسمح لنا بالقول بأن:

1. أطراف العلاقة، وخاصّة منها ما اعتبر من المتمّمات les compléments، يمكنها أن تكون اسميّة أو علائقيّة،

2. وأنّ الفاعل والمفعول به يكونان عادة (لا دائما) مركبين اسميين إذا كان الفعل الرأس فعلا متعدّيا بنفسه،

3. أنّنا يمكننا أن ندخل تحويرا جذريا على مفهومي العمدة والفضلة المعروفين في التراث النحوي العربي، فنعتبر أنّ العمدة هو كل متمّم argument, ou complément تقتضيه بنية الفعل الدّلالية، أي يوجد في بنية الفعل موقع شاغر مخصّص له سواء قام في الجملة بوظيفة الفاعل أو المفعول به أو المفعول فيه أو غير ذلك. أمّا الفضلة فهي كل متمّم لا يحتاج إليه الفعل بحكم بنيته الدّلالية، وإنّما يأتي لتعديل كل البنية المتكوّنة من الفعل والمتمّمات التي اقتضتها بنيته الدّلالية التصوّرية.

مثال تطبيقي:
الواو بين العطف والتعليق[1]

أردنا في هذا القسم الأخير أن نقدّم مثالا للتطبيقات الممكنة للنحو العرفاني على بعض معطيات اللغة العربية، واخترنا ظاهرتي العطف والتعليق.

ولذلك انطلقنا من مجموعة من الخاصيات التي يعتبرها عدد كبير من النحاة وعلماء اللغة خاصيات مميّزة للعطف والإستئناف، وحاولنا أن نختبر مدى انطباقها على واقع اللغة والاستعمال، فاخترنا مجموعة من الجمل جمعناها انطلاقا من الكتاب الذي خصّصه Vicente Cantarino لدراسة النحو والتركيب في النثر العربي الحديث، وتركنا جانبا الأمثلة التقليديّة المصطنعة التي يردّدها النحاة العرب في مؤلفاتهم. وكان الحرف الرّابط في كل الأمثلة التي احتفظنا بها هو حرف الواو باعتباره أمّ حروف العطف وأكثرها حيادا وتواترا في اللغة العربيّة قديما وحديثا.

1. أهمّ مميّزات علاقة العطف والاِستئناف

يعتبر أغلب الدّارسين أنّ علاقة العطف في كل اللغات علاقة من نوع خاص، تمتاز عن باقي العلاقات بمجموعة من الخصائص التركيبيّة والدّلالية.

1. منها أنّ العطف يمكنه أن يوجد في كلّ مستويات التركيب ليربط بين الوحدات التي تنتمي إلى نفس المقولة الصرفيّة أو إلى نفس التركيب النحوي، فيربط بين الأسماء وبين

1- يمثل هذا القسم جزءا من مقال عنوانه "الواو بين العطف والتعليق"، نشر في عدد خاص من أعداد حوليات الجامعة التونسية حول "المعنى وتشكله"، المجلد 18، ص.185-205.

الضمائر وبين الصفات وبين المركبات الحرفية داخل الجملة، وحتى بين الجمل في مستوى النصّ.

2. ومنها أنّ علاقة العطف تمثل استثناء بالقياس إلى العلاقات النحويّة الأخرى. فكلّ العلاقات الأخرى تخضع إلى مبدإ الثنائيّة ولا يمكنها أن تتطلب أكثر من مكوّنين اثنين. أمّا المعطوفات فيمكنها أن تتعدّد على الأقلّ من الناحية النظرية إلى ما لا نهاية له.

3. ومنها أنّ هذه العلاقة تستلزم أن تكون العناصر التي تربط بينها من نفس الجنس، فلا يمكن مثلا أن نعطف اسما على فعل ولا اسما على مركب حرفي ولا اسما على مركب إسنادي.[1]

4. ومنها كذلك أنّ ترتيب المتعاطفات ليس هامّا وأنّه يمكن تغييره دون تغيير المعنى أو الإخلال به.

5. ومنها أيضا أن أدوات العطف أن تعبّر عن معاني متنوّعة متعدّدة[2]، فالواو مثلا تفيد على حدّ قول النحاة الجمع والترتيب والمقابلة، والفاء تفيد الترتيب والتعقيب والسّببيّة، إلى غير ذلك من المعاني التي يذكرها النحاة في مؤلّفاتهم.

2. الفرق بين العطف والتعليق

فالعطف والاستئناف إذن علاقة تفرض التكافؤ l'équivalence بين العناصر التي تربط بينها وتعاملها على قدم المساواة، ولذلك يكون التناظر التركيبي الدّلالي من أهمّ الخاصيات المميّزة للأطراف المتعاطفة. ولذلك أيضا يكون مضمون علاقة العطف النموذجيّة prototypique مضمونا ذاتيّا

1- يطلق النحاة العرب على هذه الخاصية عبارات من نوع "التجانس" و"المشاكلة" و"المعادلة". انظر مثلا كتاب مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري (538/II)، وكذلك كتاب شرح الكافية لرضي الدين الأستراباذي (172-173/I).

2- انظر معاني الواو مثلا في كتاب مغني اللبيب (391-404/I)، وفي شرح الكافية (364-363/II)، وكذلك معاني الفاء في مغني اللبيب (173-182/I)، وفي شرح الكافية (365-367/II).

مجـرّدا بل مغرقا في التجريد يفيد معنى أدنى مثل الجمع بالنسبة إلى الواو والترتيب بالنّسبة إلى الفاء. أمّا المعاني الجزئيّة الدّقيقة التي قد تكتسبها العلاقة في السّياق فمرجعها معاني المتعاطفات والعلاقات القائمة بين تلك المعاني.

أمّا أدوات التعليق فيكون لها، على العكس من ذلك، مضمون موضوعي صارم تكاد لا تؤثر فيه السّياقات المختلفة التي ترد فيها.

لكلّ ذلك نقول إنّ العطف النموذجي له مضمون أدنى، مضمون ذاتي مضياف يجعله قادرا على إيواء عدد كبير من المعاني الجزئيّة الأخرى وعلى إقامة علاقة تكافؤ ومساواة بين العناصر التي يربط بينها. أمّا التعليق النموذجي فيكون له مضمون موضوعي صارم يصعب إدخال تحويرات عليه. أضف إلى ذلك أنّه لا يعامل العناصر التي يربط بينها بنفس الطريقة، وإنّما يجعل من أحدها عنصرا أساسيّا بارزا ومن الآخر عنصرا فرعيّا ثانويّا.

3. الواو واستعمالاتها

1. الواو حرف عطف أو استئناف

لعلّ أكثر استعمالات الواو حيادا هي تلك التي يرد فيها في بداية فقرة من الفقرات أو في بداية فصل من فصول نصّ قصصي مثلا. هذه الواو نجدها مثلا في بداية خمسة وثلاثين فصلا من فصول رواية "القاهرة الجديدة" لنجيب محفوظ، وليس لها معنى خاص تتميّز به. بل يبدو أنّ دورها لا يعدو الدّلالة على تماسك أجزاء النصّ وعلى أنّ تقسيم الرواية إلى فصول لا يعني وجود أيّ قطيعة في مستوى السّرد.

هذا الاستعمال يبدو أنّه خاصّ باللغة العربيّة ولا يكاد يوجد في اللغات الأخرى التي نعرفها.

في ما عدا هذه السّياقات، تستعمل الواو في مستوى النصّ للرّبط بين الجمل بمختلف أنواعها، فتربط بين الحالات كما في المثالين (25) و(26):

(25) أنا غريب في هذه المدينة وأنا غريب في كل مدينة أخرى.

(جبران: المجموعة الكاملة: (III/ 9,81)

(26) لماذا تهتمّ بالوحدة العربية وتهمل الوحدة الإسلاميّة؟

(إسحاق موسى الحسيني)

كما تربط بين الأحداث:

(27) قاطعها وصاح... (المنفلوطي: الشاعر 236، 16)

نلاحظ في كلّ هذه الأمثلة أنّ طرفي العلاقة التي يقيمها الواو (أي المعطوف والمعطوف عليه) جملتان من نفس النوع، وإنّ الواو تربط بين واقعتين متزامنتين (بين حالتين في المثالين (25) و(26) أو بين حدثين كما في المثال (27)) تجمعهما وتضعهما في نفس المستوى. أمّا معاني المتعاطفات في هذه الأمثلة فإنها لا تضيف أي معنى جزئي جديد إلى أداة الرّبط وليس لها أي تأثير على معنى الجمع الذي تفيده الواو ولا على معنى التزامن الذي تكتسبه الواو خاصّة عندما تربط بين جملتين. إلا أنّ العلاقة بين معاني المتعاطفات قد تؤدّي إلى إهمال معنى التزامن تماما وإثراء معنى الجمع بإضافة معاني أخرى إليه. فمن السّياقات ما يجعل السّامع يفهم أنّ العلاقة بين المتعاطفين تفيد التعاقب الزماني أو المنطقي، وأنّ الطرف الأول سابق للطرف الثاني ومتقدّم عليه. ففي الجملة:

(28) أنت اليوم حبيبي وغدا تكون زوجي.

(المنفلوطي ماجدولين: 43 ،8)

نستفيد معنى التعاقب الزماني من الظرفين اللذين يشتمل عليهما المتعاطفان ("اليومَ" و"غدا"). أمّا إذا كان فعلا الجملتين المتعاطفتين في صيغة الأمر، فإنّ الجملة الثانية كثيرا ما تفيد النتيجة أو السبب، كما في:

(29) طلق امرأتك وعش خاليا. (جبران: المجموعة 16(III/ 236 ,

(30) تعال وحدّثني هن شهرزاد الجميلة. (الحكيم: شهرزاد: 7، 12)

ولا يفوتنا أن نلاحظ أنّ المعاني التي فرضها مضمونا المتعاطفين في المثالين الأخيرين على العلاقة التي يفيدها حرف الواو أدخلت مجموعة من التحويرات على خاصيات أداة الرّبط. من ذلك أنّ الواو لم تعد تفيد التزامن بين الحدثين، ومنها أنّ ترتيب معطوفيها في الذكر أصبح ثابتا لا يمكن تغييره.

كذلك قد تؤدّي العلاقة بين معاني المتعاطفات إلى إثراء معنى التزامن بإدخال تحويرات عليه وإضافة معنى التقابل بين المضامين المتعاطفة، كما في:

(31) أسمع صوتك المتبرّم ولا أراك. (الحكيم: أهل الكهف: 9، 7)

(32) أما أدهشك أنّني عرفتك في الحال وما رأيتك غير مرّة في حياتي.

(نعيمة: لقاء: 35، 5).

وذلك بالرّبط بين إثبات ونفي. هذا الرّبط يخلق نوعا من التباين الدّلالي بين المتعاطفات قد يكون راجعا إلى علاقة تباين وتقابل متفق عليها بين المتكلم والمخاطب وقد يكون راجعا فقط إلى أنّ المتكلم يتصوّر أنّ هذا التباين أو التقابل موجود بين المضمونين المتعاطفين. المهمّ بالنسبة إلينا هو أنّ هذا التباين، وإن أثرى معنى أداة الرّبط، فإنّه لم يؤثر في العلاقة التي يقيمها الواو لأنّ العلاقة بين الجملتين تظل علاقة عطف ما دامت الجملتان المتعاطفتان متجانستين، وما دامتا جملتين فعليتين فعلهما مصرّف في الماضي أو في المضارع في الحالتين. فالتكافؤ يظل موجودا ما دام كل من طرفي العلاقة يدلّ على واقعة صاغها المتكلم بالالتجاء إلى نفس التركيب، أي إلى نفس النوع من الجمل، لأنّ الواقعتين تنتميان إلى نفس النوع، فهما حدثان أو حالتان. أمّا إذا دلّ التركيب الذي صيغ فيه أحد الطرفين على واقعة بجميع المراحل المكوّنة لها، ودلّ الآخر مثلا على مرحلة واحدة من مراحل واقعة أخرى، فإنّ العلاقة بين العنصرين اللذين تربط بينهما الواو تحيد عن العطف وتبتعد عنه بصفة ملموسة كما في المثال:

(33) خرجت وقد غربت الشمس.

فالفعل الأول يدل على حدث الخروج بجميع المراحل المكوّنة له بما في ذلك بدايته ونهايته، بينما لا يشير المركب الفعلي المكوّن للعنصر المعطوف إلا إلى المرحلة الأخيرة من حدث غروب الشمس، وبالتحديد إلى الحالة المترتبة عن حدث الغروب. وبالتالي فليس هناك تزامن بين حدث الخروج وحدث الغروب، وإنّما هو كائن بين عمليّة الخروج بمختلف مراحلها والحالة المترتّبة عن حدث الغروب، أي بين حدث وحالة. إذن هناك تباين بين البنية الدّلالية للواقعتين طرفي علاقة العطف، أي بين عملية تشكيل الواقعة الأولى وعمليّة تشكيل الواقعة الثانية.

رأينا إذن في الأمثلة السّابقة (من المثال (25) إلى المثال (32)) كيف أنّ معاني المعطوفات تخصّص معنى العلاقة التي تقيمها الواو، وتجعل عدد المعطوفات محدودا لا يتجاوز الإثنين، وترتيبها قارّا ثابتا لا يمكن تغييره. كذلك لاحظنا أنّ العلاقة تظل علاقة عطف مادام تشكيل معنى كل المتعاطفات يتمّ بنفس الطريقة وبالإلتجاء إلى نفس التركيب. أمّا المثال (33) فقد مكننا من أن نبيّن كيف أنّ تشكيل معنى أحد المتعاطفين المتجانسين في التركيب بطريقة تختلف وإن جزئيّا عن تشكيل معنى الآخر يؤدّي إلى الإبتعاد عن معنى العطف والإقتراب من معنى التعليق. فالجملتان طرفا علاقة العطف ليس لهما نفس الأهميّة في هذه الحالة، بل إنّ الجملة الأولى تبدو جملة أساسيّة تشير إلى الحدث الرّئيسي في حين أنّ الجملة الثانية تحتلّ دورا ثانويّا وتعبّر عن الإطار الزماني الذي وقع فيه الحدث الأول الرّئيسي، وهكذا نجد أنفسنا أمام واو اتّفق النحاة العرب على تسميتها واو الحال، وأمام جمل أدرجوها ضمن ما أسندوا إليه وظيفة الحال واعتبروها متمّما للإسناد الرّئيسي.

2. الواو والجملة الحاليّة

إذا لم يكن للجملتين المتعاطفتين نفس البناء فإنّ العلاقة بينهما تبتعد عن العطف لتقترب من التعليق، ولنا على ذلك أمثلة كثيرة أدرجها النحاة العرب ضمن ما أطلقوا عليه مصطلح الجملة الحالية سواء دلت فيه الجملة الواردة بعد الواو على الحال أو على الظرف أو على غير ذلك من المعاني. ويكون الطرف الأول للعلاقة التي تقيمها الواو في أغلب الأحوال جملة فعليّة كما في المثالين (34) و(35)، والطرف الثاني جملة اسميّة أو جملة ظرفيّة:

(34) أتجهل ذلك وأنت من عشاق هذا الوادي؟ (نعيمة: لقاء 56، 10)

(35) جاء ملك وفي يده صحيفة. (محمد حسين هيكل: حياة محمد 3، 133)

(36) جار وتفعل كالغريب! (نجيب محفوظ: زقاق المدقّ 54، 18)

أهمّ ما نلاحظه في هذه الأمثلة هو أنّ التراكيب النحوية الدّلالية لطرفي العلاقة متباينة، فالجمل المترابطة ليست متجانسة من حيث التركيب ولا تنتمي إلى نفس النوع. وهذه الخاصيّة تجعل التركيب ككل في كلتا

الجملتين يبتعد عن علاقة العطف التي تقتضي تجانس العناصر التي تربط بينها وتكافؤها. والواو وإن دلت على التزامن فإنّها تبرز في هذه الأمثلة علاقة التقابل القائمة بين الطرفين اللذين تربط بينهما في حين أنّ من أهمّ مميّزات العطف إبراز طرفي العلاقة، لا العلاقة ذاتها. هذا في مستوى الجملة الكبرى ككل، أمّا داخل الجملة وفي مستوى من التركيب أدنى، فنحن نلاحظ أنّ الطرف الأوّل من طرفي العلاقة يبدو بارزا أكثر من الطرف الثاني، وكأنّنا أمام جملة يمثل الطرف الأول فيها العنصر الرّئيسي والطرف الثاني العنصرَ المتمّم الثانوي أو الفرعي. إلا أنّه لا بدّ من الاعتراف بأنّ الطرف الثاني في العلاقة المؤسّسة للجملة ككل يظلّ رغم كل ما انتهينا إليه بعد تحليل الجمل الأخيرة ((33)- (36)) بارزا بعض البروز وذلك بفضل حرف الواو الذي يظل متمسّكا، رغم كل العراقيل التي تضعها أمامه التراكيب والمضامين، بخاصية من خصائصه الأساسيّة، ألا وهي وضع الأطراف التي يربط بينها على قدم المساواة. ولذلك فنحن نميل إلى اعتبار أنّ ما سمّاه النحاة العرب جملا حالية يمثل حالة خاصّة، نوعا خاصا من التركيب يتراوح بين العطف والتعليق، وأنّ العلاقة المعنوية بين الجملتين اللتين يربط الواو بينهما ليست عطفا صرفا ولا تعليقا محضا.

كلّ هذه الخصائص التي تتميّز بها الجملة الحالية نجدها في نوع آخر من الجمل أدرجه النحاة العرب ضمن الجمل الحالية وإن أشاروا بشأنها إلى أنّ الحال يتضمّن معنى الشرط. هذه الجمل هي تلك التي يوجد فيها تقابل قد يصل إلى حدّ التناقض بين ما يفيده الطرف الأول من العلاقة وبين النتيجة المنتظرة من الشرط الذي يوجد في طرفها الثاني. إنّها تلك التي أطلق عليها النحاة الغربيون مصطلح les phrases concessives، والتي نجدها في أمثلة من نوع:

(37) ساهم فيه الشاب كما ينبغي وإن ودّ لو يغادر البيت في أقرب وقت.

(نعيمة: لقاء 56، 10)

(38) آلت كفالة محمد إلى أبي طالب وإن لم يكن أكبر إخوته سنّا.

(محمد حسين هيكل: حياة محمد 3،133)

هذه الجمل شديدة الشبه في تركيبها بالجمل الحالية التي رأيناها في الأمثلة الثلاثة السّابقة، فالطرف الأول من طرفي العلاقة يبدو بارزا أكثر من الطرف الثاني ويمثل العنصر الرّئيسي، في حين يبدو الطرف الثاني عنصرا فرعيّا متمّما له. ومع ذلك فإنّ التركيب في الجملتين الأخيرتين يختلف عن التركيب الذي ترد فيه الجمل الحالية عادة، ذلك أنّ الطرف الثاني من طرفي العلاقة التي تقيمها الواو ليس مركبا إسناديّا. فالواو في هذه الأمثلة تربط في الحقيقة بين مركبين غير متجانسين، بين مركب إسنادي قابل للاستقلال يمثل الطرف الأول من طرفي العلاقة، ومركب حرفي رأسه "إن" الشرطيّة، غير قابل للاستقلال يمثل الطرف الثاني. فالتجانس التركيبي الذي تفرضه الواو على طرفيها غير متوفّر في مثل هذه الجمل، ولا شك أنّ انعدام التجانس ذاك هو الذي يقرّب العلاقة بين الطرفين من التعليق ويبتعد بها أكثر عن العطف.

بقي نوع أخير من الجمل التي يعدّ تركيبها قريبا من تركيب الجمل الحالية، وهي تلك الجمل التي ترد فيها الواو للفصل بين مكوّنات الجملة الرّئيسيّة، أي بين المبتدإ والخبر مثلا، أو بين الفعل والفاعل من ناحية وأحد المفاعيل من ناحية أخرى. إنّها تندرج ضمن ما اصطلح النحاة على تسميته "الجمل الاعتراضيّة".

(39) إنّ الله وقد خلق لنا قلوبنا قد نزل عن بعض حقه علينا

(الحكيم: أهل الكهف 11، 2)

(40) سافرت وأنا في هذه الحال إلى البحرين.

(أمين الريحاني: ملوك العرب 26، 9)

(41) سننتقل وأنت في نجد إلى القرن الخامس.

(نعيمة: لقاء 56، 10)

لعلّ الإشكال الوحيد بالنسبة إلى الدّارس يتمثل في أنّه يظلّ أمام هذه التراكيب متردّدا بين الحال والاعتراض، لأنّ مضمونها قد يرد وكأنّه تخصيص للاسم أو الضمير السّابق للواو مباشرة كما هو الحال في المثالين

(39) و(40)[1]، وقد يرد مستقلا استقلالا نحويّا تامّا عمّا قبله وعمّا بعده. أضف إلى ذلك أنّ الواو تربط في المثال (39) بين المركب الاسمي "الله" الواقع اسما للناسخ "إنّ" والمركب الإسنادي "قد نزل عن بعض حقّه علينا"، بينما تربط بين النواة الإسناديّة "سافرت" والمركب الإسنادي "أنا في هذه الحال" في المثال (40).

المهمّ بالنسبة إلينا أنّ العنصرين اللذين تربط بينهما الواو غالبا ما يكونان غير متجانسين في هذا النوع من التراكيب، وأنّ الواو تضعهما رغم عدم التجانس ذلك على قدم المساواة. أمّا بشأن نوع العلاقة التي تقيمها الواو في مثل هذه السياقات فإنّنا نبقى متردّدين بين العطف والتعليق، بل نظل نتساءل حول إمكانية وجود نوع ثالث من العلاقات تتأرجح بين العطف والتعليق.

3. الواو والتعليق

لعلّ أقرب العلاقات التي يأويها الواو من التعليق هي تلك التي أطلق النحاة العرب عند تحليلها على الواو مصطلح "الواو الناصبة"، وسمّاها آخرون "واو الصرف"، وهي الواو الداخلة على فعل مضارع منصوب والتي ترد بعد مركب إسنادي يفيد النهي عادّة، كما في المثالين:

(42) لا تأكل السمك وتشرب اللبن.

(43) لا تنه عن خلق وتأتيَ مثله...

هذه الواو تأوي في رأينا علاقة بين المركبين الإسناديين، وذلك لعدّة أسباب. من هذه الأسباب أنّنا أمام إخبار واحد une seule assertion [2]، ومنها أنّ العلاقة بارزة أكثر من الطرفين اللذين تربط بينهما الواو، ومنها كذلك

1- هذا النوع من المعاني تعبّر عنه اللغة الفرنسية بالإلتجاء إلى نوع من التعليق، وبالتحديد إلى ما يسمّيه الفرنسيّون les relations appositivies.

2- لا بدّ من التذكير أنّ أهمّ ما يسمح بالتمييز بين العطف والتعليق أنّ العطف علاقة تربط بين واقعتين متكافئتين مستقلتين deux procès équivalents mais indépendants، في حين أنّ التعليق يجمعهما في واقعة واحدة كبرى ويعبّر عنهما بتكوين خبر واحد يتكوّن من واقعتين إحداهما تمثل عنصرا من عناصر الواقعة الأساسيّة.

أنّ النهي لا يتسلط على مضمون المركب الإسنادي الأول بل يهمّ الجمع بين الحدثين طرفي العلاقة التي تقيمها الواو، أي أنّ المتكلم ينهى عن الجمع بين الفعلين ولا ينهى مثلا عن أكل السمك ولا عن شرب اللبن في المثال (42). ومع ذلك فنحن نلاحظ أنّ طرفي العلاقة يظلان بارزين رغم أنّ البروز الرّئيسي من نصيب العلاقة.

أمّا المشكل الذي يظلّ مطروحا بخصوص هذا النوع من التراكيب فهو مشكل الوظيفة التي يمكننا إسنادها إلى المركب الذي يلي الواو، خصوصا وأنّنا لا نجد في النحو العربي ولا في النحو الفرنسي ولا الإنجليزي وظيفة يمكننا حشر هذا النوع من الاستعمالات ضمنها. ولعلّ ذلك ما جعل النحاة العرب وخاصّة منهم نحاة البصرة يفضّلون اعتبار العلاقة التي يقيمها الواو في هذا النوع من الجمل علاقة عطف، ويشيرون إلى أنّ العطف عطف على المعنى. فالنصب عندهم حصل بإضمار "أن"، واعتبروا أنّ "أن + الفعل" في تأويل مصدر معطوف على مصدر متوهّم، وبذلك يكون تأويل الجملة: لا يكن منك أكل سمك مع شرب لبن[1].

4. الواو والجمل المخلوعة

"الخلع" لغة هو انتزاع جزء من الأجزاء والفصل بينه وبين الكل الذي كان ينتمي إليه، والجمل المخلوعة les phrases segmentées في اصطلاحنا هي الجمل التي انتزع منها أحد مكوّناتها ووقع إبعاده وإزالته عن رتبته ليحتلّ الصّدارة في الجملة ويحظى بالبروز بالقياس إلى باقي المكوّنات الأخرى. فالمتكلم ينتزع في هذا النوع من التراكيب مكوّنا من مكوّنات الجملة ويضعه في صدر الجملة ثم يربطه بها بالإلتجاء إلى أحد الحروف المدرجة عادة ضمن حروف العطف. فإذا كان هذا المكوّن المنتزع ظرفا ربطه المتكلم بباقي مكوّنات الجملة بحرف الواو، وإذا كان غير ذلك ربطه بها بالإلتجاء إلى حرف الفاء[2].

1- انظر على سبيل المثال كتاب مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري: 535-533/II

2- انظر مثلا الآية "الزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة..." (سورة النور 2/24) وكذلك الآية "السّارق والسّارقة فاقطعوا أيديهما..." (سورة المائدة 38/5).

(44) منذ قدتنا إلى هذا الكهف وأنت صامت

(الحكيم: أهل الكهف 10/11)

(45) منذ تسعة عشر جيلا والبشر يعبُدون الضعف بشخص يسوع.

(جبران: المجموعة الكاملة III3: 25/)

هذه التراكيب تثير مشاكل يعسر حلّها باعتماد المقولات والوظائف التي نعرفها خصوصا وأنّه لا يمكننا أن نعتبر العلاقة التي تقيمها الواو في مثل هذه التراكيب علاقة عطف ولا علاقة تعليق. فحروف العطف والاستئناف تستلزم أن يكون طرفا العلاقة متجانسين ينتميان إلى نفس الصيغة الصرفيّة أو نفس التركيب النحوي، والحال في مثل هذه الاستعلامات أنّ المركب المتقدّم على الواو مركب اسمي بالإضافة والمركب الوارد بعدها مركب إسنادي. أمّا حروف التعليق فإنّها تربط بين نواة إسناديّة أو مركب إسنادي رئيسي وأحد متمّماته، ولا تربط مفعولا متقدّما بنواته الإسناديّة.

لكلّ ذلك يبدو لنا أنّ الحلّ الوحيد الذي قد يسمح لنا بتفسير وجود مثل هذه التراكيب يفرض علينا أن نعيد النظر في مفهوم التجانس الذي تفرضه علاقة العطف على الطرفين اللذين تربط بينهما، وأن نعتبر أنّ هذا التجانس الدلالي التصوّري أساسا يجب أن يكون متوفّرا في الطريقة التي يعتمدها المتكلم في تشكيل مضمون كل من طرفي العلاقة، أي في العمليّات الذهنيّة التي يقوم بها المتكلم ويصوغ تركيبا يجسّمها والتي يعدّ التركيب رمزا لغويا يدلّ عليها. ولا شكّ أنّنا مضطرّون إن نحن قبلنا هذا التفسير أن نقبل النتائج التي تنجرّ عنه، أي أن نقبل خاصّة أنّ الجمل في اللغة العربية ثلاثة أنواع: جمل فعليّة وجمل اسميّة وجمل ظرفيّة، وأن نقبل في الآن نفسه أنّ الظرف مسند مثله في ذلك مثل الخبر في الجملة الإسميّة والفعل في الجملة الفعلية.

وهكذا يمكننا أن نلاحظ في سياق تحليلنا للتراكيب الواردة في الأمثلة (44) و(45) أن المركبات الظرفية التي تتصدّر الجملة تدلّ كلها على الزمان وعلى الاستمرار وتشير إلى إطار زماني، وأنّ المركبات الإسنادية الواردة بعد الواو كلها جمل اسميّة تدلّ على الحالة وتفيد بذلك الاستمرار

والدّوام. فالواو في مثل هذه التراكيب تفيد التزامن بين حالتين، بين ديمومتين، وكل من الحالتين، أي الإطار الزماني والحالة (في المثال (44)) أو الحدث المتكرّر (في المثال (45))، ثابت لا أثر للحركة أو للتغيّر فيه. وبالتالي فالواو تربط في هذه الأمثلة بين حالتين تتّسمان بالثبات، وكل ما في الأمر أنّ المتكلم يريد لغايات تعبيريّة التحرّر من أغلال العلاقة الصارمة الصلبة التي يفرضها التعليق، فيقدّم أحد المتمّمات عن باقي مكوّنات الجملة، ما كان منها عمدة وما كان منها فضلة، ثم يربط بينه وبينها بالواو لأنّه يريد أن يبرز الظرف أو المدّة التي انقضت ولا تزال متواصلة وأن يضعه على قدم المساواة مع الحالة التي يدلّ عليها المركب الإسنادي المظروف، وبذلك يتسنّى له أن يضع الظرف الفضلة والمظروف العمدة على قدم المساواة.

الخاتمة

أردنا أن يكون هذا الكتاب مساهمة في تعريف القرّاء والطلبة العرب بالمقاربات العرفانيّة عامّة وبالنحو العرفاني بصفة خاصّة. وارتأينا أن نبدأ بوضع نظرية لانقاكر في الإطار التاريخي الذي ظهرت فيه فسعينا إلى التعريف باللسانيات وباستعراض أهمّ التيارات التي تنازعتها من ناحية، ثم أتبعنا ذلك بمحاولة التأريخ لعلوم الدّلالة في نشأتها وتطوّر اهتمامات الدّارسين في الغرب بمختلف جوانبها.

وبعد ذلك تسنّى لنا أن نعرّف بالأصول والأسس العرفانيّة لنظريّة لانقاكر وبالمناويل والفرضيات الرئيسيّة التي قامت عليها قبل أن نقدم بالتفصيل المفاهيمَ والمقولات الأساسيّة والعمليات الذهنيّة العرفانية التي تسمح بالتمييز بين تلك المقولات. واهتممنا اهتماما خاصا ببيان قيمة تلك العمليات في التعريف بالأسماء وبالعلاقات المقرونة بزمان باعتبارهما المقولتين اللتين تمثلان طرفي المسترسل التصوّري واللغوي. ثم انتقلنا إلى عرض المقاييس التي اعتمدها لانقاكر في التعريف بالجملة البسيطة، فالجملة المركبة بما تشتمل عليه من إسناد رئيسي وإسناد فرعي. ثمّ توقفنا أمام هذه القضيّة الأخرى لنقدّم مفهومي الاستقلال والتبعيّة التصوّريّين ولنبيّن الاختلاف الجوهري بينهما وبين مفهومي الاستقلال والتعلق التوزيعيّين اللذين ميّزا اللسانيات البنيويّة.

وفي النهاية، اخترنا أن نعرض على القارئ تطبيقا للنحو العرفاني على مقابلة تركيبيّة ظلت عبر العصور غير واضحة المعالم، قائمة على حدس متكلمي اللغة لا تسندها معايير دقيقة ولا مقاييس علميّة، وهي المقابلة بين العطف والاستئناف من ناحية والتعليق من ناحية أخرى. وفعلنا ذلك بالاستناد إلى ما عرضناه من مفاهيم نظرية في القسم الذي خصّصناه للجمل المركبة في هذا العمل (انظر القسم 5.2).

وانطلقنا في هذا القسم التطبيقي من تعريف للعطف النموذجي يجعل منه علاقة لها مضمون أدنى مضياف يتميّز بقدرته على إيواء عدد كبير من المعاني الجزئيّة الأخرى وعلى إقامة علاقة تكافؤ ومساواة بين العناصر التي يربط بينها. ثمّ نظرنا في عدد من الأمثلة وحاولنا أن نختبر مدى انطباق هذا التعريف على واقع اللغة.

فرأينا كيف أنّ معاني المعطوفات تخصّص معنى العلاقة التي تقيمها الواو، وتجعل عدد المعطوفات لا يتجاوز الإثنين، وترتيبهما في الذكر قارًا ثابتا لا يمكن تغييره. كذلك لاحظنا أنّ العلاقة تظل علاقة عطف وأنّ طرفي العلاقة يظلان متكافئين بارزين ما دام تشكيل معنى كل منهما يتمّ بنفس الطريقة وبالالتجاء إلى نفس التركيب (الأمثلة (17)- (24)).

ثمّ نظرنا في الواو التي تتقدّم ما سمّاه النحاة جملا حالية وبيّنا كيف أنّ تشكيل معنى أحد المتعاطفين بطريقة تختلف وإن جزئيّا عن تشكيل معنى الآخر (المثال (34)) يؤدّي إلى الإبتعاد عن معنى العطف والاقتراب من معنى التعليق. ورأينا أنّ هذا التباين في التركيب يجعل الجملة الأولى أكثر بروزا من الجملة الثانية ويجعلها تبدو جملة أساسيّة تشير إلى الحدث الرّئيسي، في حين أنّ الجملة الثانية تحتل على ما يبدو دورا ثانويّا وتعبّر عن الإطار الزماني الذي وقع فيه الحدث الأول الرئيسي أو عن غير ذلك من المعاني (انظر الأمثلة (34) – (36)، وخاصّة المثالين (37) و(38)) ولاحظنا رغم كل ذلك أنّ الطرف الثاني من طرفي العلاقة يظلّ بارزا بعض البروز وذلك بفضل حرف الواو الذي يظل متمسّكا، ولو إلى حدّ، بخاصّية من خصائصه الأساسيّة، ألا وهي وضع الأطراف التي يربط بينها على قدم المساواة. ولذلك انتهينا إلى اعتبار تركيب الحال تركيبا واقعا بين العطف والتعليق، فلا هو عطف صرف ولا هو تعليق محض.

أمّا دراسة الجمل الإعتراضيّة المسبوقة بالواو (الأمثلة (39)- (41)) فلقد أدّت بنا إلى التساؤل عن إمكانية وجود نوع ثالث من العلاقات واقع في الآن ذاته بين العطف والتعليق.

كذلك رأينا أنّ الواو التي سمّاها النحاة واو الصرف أو الواو الناصبة (الأمثلة (42)- (43)) تأوي علاقة تعليق بين طرفيها وتجعل البروز الرئيسي من نصيب العلاقة ذاتها في حين لا يحظى العنصران المترابطان إلا ببروز ثانوي[1]. ولا شك أنّ بروز الطرفين اللذين تربط بينهما الواو هذا هو الذي يبرّر استعمال المتكلم لها، وأنّه هو الذي يجعل العلاقة التي يقيمها هذا الحرف متميّزة عن كل العلاقات التي يمكن أن تقيمها باقي حروف التعليق المعروفة بدون استثناء، وذلك لسبب بسيط هو أنّ التعليق باستعمال الواو يظلّ أقرب أنواع التعليق من العطف، وأبعد أنواع التعليق عن التعليق النموذجي.

و لعلّ أهمّ ما انتهينا إليه بعد تحليل الأمثلة ((25)-(32)) يؤكد أنّ التباين بين معاني طرفي العلاقة التي تقيمها الواو، وإن جعل عدد الأطراف المترابطة محدودا لا يتجاوز الاثنين وترتيبهما في الذكر قارّا لا يمكن تغييره دون تغيير المعنى أحيانا والإخلال به أحيانا أخرى، فإنّه لا يؤثّر في نوع العلاقة التي تظلّ رغم كل ذلك علاقة عطف أطرافها متكافئة. أمّا التباين وعدم التجانس بين التركيب الذي يرد عليه كل من طرفي العلاقة، أي بين الطريقة التي يعتمدها المتكلم في تشكيل معنى كل منهما (انظر الأمثلة (33-34))، فإنّه يؤثر في طبيعة العلاقة ويجعلها تحيد شيئا فشيئا عن العطف لتقترب من التعليق.

لكلّ ذلك نعتبر أنّ التجانس أو قل عدم التباين بين أطراف العلاقة خاصيّة أساسيّة من الخصائص التي تميّز العطف والاستئناف، وإن قادنا تحليل التراكيب التي أطلقنا عليها مصطلح "الجمل المخلوعة" (الأمثلة (44) و(45)) إلى إعادة النظر في طبيعة التجانس، وإلى اقتراح ضرورة البحث عنه في الطريقة التي يعتمدها المتكلم في تشكيل مضمون كل طرف من أطراف العلاقة، أي في العمليات الذهنيّة التي يلجأ إليها المتكلم لتشكيل المعنى، وعدم الاكتفاء بمراعاة البنية اللغويّة التي تستعمل لصياغة هذه الأطراف،

1- لا بدّ من الإشارة في هذا السياق إلى أنّ طرفي العلاقة غير متجانسين في التركيب لأنّ رأس أوّلهما فعل مضارع مجزوم ورأس ثانيهما فعل مضارع منصوب. ونكتفي بهذه الإشارة في انتظار دراسة جديّة لمعاني المحلات والعلامات الإعرابيّة، ما تعلق منها بالفعل وما خصّ منها الاسم.

وذلك لأنّه يمكننا أن نجد أنفسنا أمام تركيبين نحويين يبدوان مختلفين وإن كانا يمثلان عمليتين ذهنيتين متقاربتين، أو أمام تركيبين متشابهين يمثلان عمليتين ذهنيتين متباينتين.

و في الختام، يمكننا انطلاقا من كل ما عرضناه وقلناه بالاستناد إلى أمثلة من استعمال الواو في اللغة العربية قديما وحديثا، أن نؤكد ما يلي:

1. أنّنا عندما نتحدّث عن المعنى اللغوي أو قل عن المعنى النحوي (أي عن معنى الصيغة الصرفيّة أو معنى التركيب النحوي)، فنحن نتحدّث أساسا عن العمليات الذهنيّة التي يعتمدها المتكلم في صياغة المضمون وتشكيله.

2. أنّ كل الجمل التي ذكرناها في هذا القسم التطبيقي وقلنا بشأنها إنّ العلاقة الرّابطة بين عنصريها أقرب إلى التعليق منها إلى العطف تظلّ رغم ذلك أقرب إلى العطف من أيّ جملة عاديّة اختار المتكلم أن يربط بين عنصريها بالالتجاء إلى حرف تواضعنا على اعتباره حرف تعليق. نقول ذلك لأنّنا نعتقد أنّ الإنتماء إلى العطف أو إلى التعليق درجات، وأنّ الفرق بين العلاقتين لا يكمن في طبيعة كل منهما بقدر ما يعود إلى قدرة كل منهما على إبراز العلاقة ذاتها أو على إبراز الطرفين اللذين تربط بينهما، أو على إبراز العلاقة أوّلا فالطرفين في مستوى من التركيب أدنى.

3. أنّنا نفضّل الحديث عن أدوات الربط في اللغة لا عن حروف العطف أو التعليق. أمّا العلاقة التي قد تفيدها أدوات الربط تلك بعد ائتلافها مع طرفيها في سياق ومقام معيّنين فالأفضل ألا يقع تحديدها إلا بعد النظر في العناصر التي تربط بينها من حيث تركيب كل منها ومعناه وسياقه والمقام الذي استعمل فيه.

4. أنّ الواو موضوع بحثنا هذا أداة ربط un connecteur معناه مطلق الجمع أو الجمع مطلقا على حدّ تعبير النحاة. هذا المعنى العامّ المغرق في التجريد يسمح له بإيواء عدد كبير من

المعاني المتباينة بشرط المحافظة على التجانس بين معاني تراكيب الأطراف التي يربط بينها وبشرط دلالة تلك التراكيب على عمليات ذهنيّة متقاربة إن لم تكن متماثلة، وعلى التكافؤ الذي يضمن قدرا من المساواة بين أطراف العلاقة.

ولا يسعنا إلا أن نلحّ على أهميّة مثل هذه التطبيقات على مختلف معطيات لغة مثل اللغة العربية، أي على لغة مختلفة اختلافا بيّنا عن اللغات الهندوأروبيّة التي مثلت ولا تزال تمثل أهمّ المتون التي تعتمدها النظريات اللسانيّة الحديثة.

ويمكننا أن نشير إلى وجود بعض المحاولات التطبيقيّة الأخرى التي نشرناها بالعربية وبالفرنسيّة في غضون السّنوات الأخيرة (انظر في قائمة المراجع مقالات ابن غربية المنشورة: (c, b, a 2003) و(0042) و(0062).

ثبت بالمصطلحات

عربي	فرنسي	إنجليزي
	الهمزة	
إطار	cadre	Setting
آليات	mécanismes	Mecanisms
	الباء	
بؤرة	focus	Focus
تبئير	focalisation	Focalisation
بارز	Saillant, proéminent	Saillant, Proeminent, Profiled
إبراز	Mise en profil	Profiling
بنية مركبة	Structure composée	Composite Structure
بنية سلميّة	Structure scalaire	
بنية تصوّريّة	Structure conceptuelle	Conceptual Structure

Component Structure	Structure composante	بنية مكوّنة
Contrast	contraste	تباين
(Conceptual) Dependence	dépendance	التبعيّة (دلالية، تصوّرية)
Dependent	dépendant	تابع

الجيم

Root	racine	جذر
Schematicity	schématicité	تجريد
embodied	corporalisé	متجسّد
Sentence	phrase	جملة
Type	type	جنس (نوع)
Subtype	Sous-type	جنس فرعي
Homogeneity	homogénéité	تجانس
Domain	domaine	مجال
Primary Domain	Domaine primordial	مجال أساسي (أوّلي)

Domain of Instantiation	Domaine d'instanciation	مجال الإرساء
Domain of Quantification	Domaine de quantification	مجال التسوير

الحاء

Event	événement	حدث
Speech Act	Acte de dicours	حدث خطاب
Type specification (Description)	Spécification de type	تحديد خصائص الجنس
Operator	opérateur	حرف
Dynamic	dynamique	حركي (ديناميكي)
Immediate Scope	Champ immédiat	حقل مباشر
Visual Scope	Champ de vision	حقل الرؤية
State	état	حالة
Region	région	حيز (منطقة)

الخاء

Strategy	stratégie	خطة

Hypotaxis	stratégie hypotactique	خطة تعتمد الوصل
Parataxis	Stratégie paratactique	خطة تعتمد الفصل
schema	schéma	خطاطة
Dislicated Sentence	Phrase disloquée	جملة مخلوعة
Background	Arrière-fond	خلفيّة

الدال

Integration	intégration	إدماج
Significant	signifiant	دالّ
Predicate, Predication	prédicat	مدلول (وحدة معنوية)
Thematic Roles	Rôles thématiques	أدوار دلاليّة محوريّة

الذال

Thing	objet	ذات (ذوات)، شيء (أشياء)
	Contenu subjectif	مضمون ذاتي

الراء

Head	tête	رأس
Connector	connecteur	أداة ربط
Continuum	continuum	مسترسل
Ground	repère	رسم
Grounding	repérage	ترسيم
Grounded	repéré	مرسوم
Grounded Instance	Instance repérée	فرد مرسوم
instanciation	instanciation	إرساء
Syntax	syntaxe	تركيب
Symbollic Unity	Unités symboliques	وحدات رمزيّة

الزاي

linguistic Time	temps linguistique	زمن
actual Time	Temps réel	زمان

السين

Stative	statique	سكوني
Action Chain	Chaîne d'actions	سلسلة أحداث
Grammaticality	grammaticalité	سلامة التركيب
Scale	échelle	سلّم
Extension	extension	مجموعة المسميات
Finite Clause	Proposition finie	مركب إسنادي
Quantification	quantification	تسوير
Quantifier Scope	Champ de quantification	فضاء التسوير
Quantifier	quantificateur	مسوّر
Syntagmatic Plane	Niveau syntagmatique	المستوى السياقي
Trajector	Trajecteur	سيّار

الشين

Conditions nécessaires et suffisantes (CNS)	الشروط الضرورية والكافية

Participants	participants	الأطراف المشاركـة

الصاد

Topicalisation	topicalisation	تصـديـر
Convention	convention	اصطلاح، تواضع
conventional	conventionnel	اصطلاحي، متواضع عليه
Gestalt	gestalt	صور كلية شاملـة
Conceptualization	conceptualisation	تصـوّر
Conceptual (system)	(système) conceptuel	نظام تصـوّري
Concept	concept	متصَوَّر
Concieved time	Temps conçu	زمن متصـوّر
Conceptualization time	Temps de conceptualisation	زمن التصـوّر

الظاء

Aspect	aspect	مظـهر

العين

Expression	expression	عبـارة
Modifier	modificateur	معـدّل
Cognition, cognitive	Cognition, cognitif	عرفان، عرفـاني
Coordination	coordination	عطف (استئناف)
Dependency	dépendance	التعلق (توزيعي)
Referential Linkage	Enchaînement référenciel	تعلق إحـالي
Subordination	subordination	تعليـق
Relationship	Relation (temporelle, atemporelle)	علاقة (زمانية، غير زمانية)

الغين

Landmark	site	غـرض

الفاء

Type Space	Espace des types	فضاء (مجال الأنـواع)

Interaction	interaction	تفاعلات
Intension	intension	المفهوم

القاف

Cognitive Abilities	Capacités cognitives	القدرات العرفانيّة
Pole	pôle	قطب
Basis	base	قاعدة
Referential Basis	Base de référence	القاعدة المرجع
Category	catégorie	مقولة
Categorization	catégorisation	التصنيف إلى مقولات

الكاف

Congruence	équivalence	تكافؤ

الميم

Representations	représentations	تمثلات

Degrees of Representation	Degrés de représentation	مراتب التمثيل
Scale of Representation	Echelle de représentativité	سلم التمثيل
Sequential Scanning	Enregistrement séquentiel	مسح متتابع
Summary Scanning	enregistrement global	مسح إجمالي

النون

Performance	performance	إنجاز
	Grammaire syntagmatique généralisée	النحو السياقي المعمّم
Generalized Phrase Syntagmatic Grammar (GPSG)		
	Grammaire lexicale fonctionnel	النحو المعجمي الوظائفي
Lexical Functional Grammar		
Categorial Grammar	grammaire catégorielle	النحو المقولي
(Focal) Adjustments	Ajustements (focaux)	ضروب التنسيق
Prototype	prototype	نموذج نمطي

Archetyps	archétypes	الأنماط الـكبرى
Perspective	perspective	منـظـور
Symmetry	symétrie	تـاظـر
Asymmetry	asymétrie	عـدم تناظـر
Selction	sélection	انتـقـاء
Canonical event model	Modèle basique de l'événement	المنوال القاعدي للحدث
	modèle scénique	منوال المشاهـد
Idealized Cognitive Models	Modèles cognitifs idéalisés	المناويل العرفانية المؤمثلة
Billard-Ball Model	Modèle des boules de billard	منوال لعبة الـكريات الخشبية
Reference-point Model	modèle des points de référence	منوال الوحدات المراجع
Structured world model	modèle de la réalité	منـوال الواقـع

الواو

Profile, Figure	profil, figure (de la relation)	وجه (العلاقة)
Modality	modalité	جهة
View point	point de vue	وجهة نظر
Nominal	syntagme nominal	مركب اسمي
Encyclopedic	encyclopédique	موسوعي
	objectivisme	التيار الموضوعي
Correspondence	correspondance	التوافق والتآلف
Site	site	موقع
Schematic site	site schématique	موقع مجرّد
Experiencial Realism	réalisme expérienciel	الواقعيّة التجريبيّة
Potential Reality	réalité potentielle	الواقع المحتمل
Projected Reality	réalité projetée	الواقع المرجّح

قائمة المصادر والمراجع

المرجع الرئيسي

Foundations of Cognitive Grammar, vol. 1 (1987), & vol. 2 (1991), Stanford University Press

يمكن العودة خاصّة إلى:

- الفصلين 4 و5 من المجلد1: المجال الدلالي والمدلول والوجه والقاعدة.
- الفصل 5 من المجلد 1 والفصلين 1 و7 من المجلد 2 : الأسماء والأشياء.
- الفصل 7 من المجلد 1 العلاقات الزمانية، والفصل 6: العلاقات غير الزمانية
- الفصل 1 من المجلد 2: فضاء الأنواع، والفرق بين الاسم والمركب الاسمي.
- الفصل 6 من المجلد 1: السيار والغرض.
- الفصل 8 من المجلد 2: الإطار والأطراف المشاركة في الحدث.
- الفصلين 1 و2 من المجلد 2: الوظائف والعمليات الدلالية العرفانية الأساسيّة.
- الفصلين 2 و3 من المجلد 2: تطبيق مختلف العمليات الدلالية على الاسم، وعلى الفعل بالترتيب
- الفصلين 2 و5 من المجلد 2: بنية المركب الإسمي الدلالية وبنية المركب الإسنادي الدلالية.

- الفصلين 10 و11 من المجلد 2: الجمل المركبة.
- الفصل 8 من المجلد 2 : الاستقلال والتبعيّة.

المراجع العربيّة

- رضيّ الدين الأستراباذي (ت. 686 هـ/1288م): شرح الكافية – نشر دار الكتب العلمية، بيروت 1979، في مجلدين.
- جمال الدين بن هشام الأنصاري (ت. 761 هـ/1360 م): مغني اللبيب عن كتب الأعاريب- نشر دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 1952، في جزءين.
- عبد الجبار بن غربية (2003).

" الواو بين العطف والتعليق" . مقال نشر في عدد خاص من أعداد حوليات الجامعة التونسية حول "المعنى وتشكله"، المجلد 18، ص. 185-205.

المراجع الأجنبيّـة:

Abeillé, Anne (1993)

Les Nouvelles suntaxes: Grammaire d'unification et analyse du Français.

Armand Colin, Paris.

Anderson, John M. (1971)

The grammar of Case. Cambridge, Eng. : Cambridge University Press.

Ben Gharbia, A., Chambreuil, M. & al. (1998)

Sémantiques, Editions Hermès. Paris.

Ben Gharbia, Abdeljabbar (2004a)

« La coordination et la subordination: un problème d'organisation conceptuelle », communication parue dans la Revue de l'Association de Lexicologie Arabe de Tunis (A.L.A.T.), N 18-19, p. 185-205.

Ben Gharbia, Abdeljabbar (2004b)

« Besoins communicationnels et schémas de phrases en Arabe et en Français », communication publiée dans les actes du colloque international organisée par la Société Européenne de Phraséologie et l'Association Rencontres Linguistiques Méditerranéennes, les 19, 20 et 21 septembre 2003. Hammamet (Tunisie), p. 47-58.

Ben Gharbia, Abdeljabbar (2004c)

« Continuité et catégories », communication publiée dans les actes du colloque international organisé par la Faculté des Lettres de Sousse le 31 octobre et les 1er et 2 novembre 2002, p.43-82

Ben Gharbia, Abdeljabbar (2006)

« Le repérage nominal entre la Tradition Grammaticale Arabe et la Grammaire Cognitive », Annales de l'Université de Tunis, tome 2, N° 51, p. 7-29.

Bresnan, J. (1978)

« A realistic transformational Grammar ». In M. Halle, J. Bresnan, G. Miller (eds), *Linguistic Theory and Psychological Reality*, MIT Press.

Cantarino Vicente (1974)

Syntax of modern arabic prose - Indiana University Press, London (1974), en 3 volumes.

Chomsky, Noam (1957)

Structures syntaxiques, éditions du Seuil, Paris.

Chomsky, Noam (1965)

Aspects de la théorie syntaxique, éditions du Seuil, Paris.

Creswell, M. J. (1984)

« Sémantique des mondes possibles », paru dans *l'analyse logique des langues naturelles*, anthologie préparée par Frédéric Nef, éditions du CNRS, Paris.

Fauconnier, Gilles (1985).

Mental Spaces: Aspects of Meaning Construction in Naturel Language, Cambridge, Mass: MIT Press / Bradford

Givon, Talmy (1990)

Syntax : a Functional Typological Introduction, vol. 2, Amsterdam and Philadelphia: John Benjamins.

Hudson, Richard A. (1976)

Arguments for a Non-transformational Grammamm, Chicago / University of Chicago Press.

Haiman, John (1980)

"Dictionaries and Encyclopedias", in *Lingua*, 50, p.321-357.

Keith Brown & Jim Miller (1996)

"Concise Encyclopedia of Syntactic Theories", ed. By Keith Brown & Jim Mille.

Cambridge University Press, Coll. Pergamon.

Keyser, S. & Postal, P. (1976)

Beginning English Grammar, Harper and Row, New York.

Kleiber, Georges (1990)

La sémantique du prototype: categories et sens lexical, éditions PUF, Paris.

Lakoff, Georges (1987)

Women, Fire, and Dangerous Things: what Categories reveal about the Mind, Chicago and London, University of Chicago Press.

Lakoff, G & Johnson M. (1985)

Les métaphores dans la vie quotidienne, Paris, Minuit.

Langacker, Ronald W. (1982)

"Remarks on English Aspect." In Paul J. Hopper, ed., *Tense-Aspect: Between Semantics & Pragmatics, 265-304.* Amsterdam: John Benjamins.

Langacker, Ronald W. (1991)

Concept, Image and Symbol, Berlin/ NY, Mouton de Gruyter

Langacker, Ronald W. (2000)

Grammar and Conceptualization, Berlin Mouton de Gruyter.

Matthews, P. H. (1981)

Syntax. Cambridge, Eng.: Cambridge University Press.

Moortgat Micheal (1990)

"La grammaire catégorielle généralisée: le calcul de Lambeck-Gentzen", paru dans *Formalismes syntaxiques pour le traitement automatique du langage naturel*, présenté par P.Miller et T. Torris, chap. 3, p. 127-182.

Robinson, Jane J. (1970)

"Dependency Structures and Transormational Rules". *Language* 46: 259-285

Tamba-Mecz, Irène (1988)

La sémantique, collection " Que sais-je?", Puf, 1ère édition 1988, 3éme édition (1994)

Talmy, Leonard (1983)

« How Language structures Space » , in : Herbert Pick and Linda Arcedelo (eds), *Spatial Orientation : Theory, Research, and Application,* 255-282. New York: Plenum Press.

Talmy, Leonard (1988)

«The relation of Grammar to Cognition», in: Rudzka-Ostyn, B. (ed), *Topics in Cognitive Linguistics.* Amsterdam: Benjamins, p. 165-205.

Talmy, Leonard (2000)

Towards a Cognitive Semantics, Cambridge University Press (en 2 volumes)

Vandeloise, Claude (1991)

« Noms et verbes", paru dans *Communications*, 53, Le seuil, (traduction de l'article de Langacker, paru dans *Language*, 63.1 (1987).

Wierzbicka, Anna (1988)

The Semantics of Grammar, Amsterdam and Philadelphia: John Benjamins.

الفهرست

نحوَ معرفة العرفان 7

تمهيد 11

المقدّمة 13

1. موضوع الدّراسات اللسانيّة 14
2. نشأة علم الدّلالة وتطوره في اللسانيات الحديثة 18
3. وضع النحو العرفاني في إطاره 28

أسس نظريّة لانقاكر العرفانية وأصولها 39

1. بعض المفاهيم الأساسيّة 39
2. الدّراسة اللغوية بين التركيب والمعنى 44
3. مكوّنات فضاء التأويل 47
4. بعض المناويل والفرضيات التي قام عليها النحو العرفاني 54
5. نظرية النموذج النمطي 62

المفاهيم والمقولات الأساسية في نظرية لانقاكر 75

1. المدلولات les prédicats 75
2. الأسماء 77
3. العلاقات 83
4. الوظائف الدلالية الأساسيّة 95
5. الجملة المركبة 107

6. الإستقلال والتبعيّة 122

مثال تطبيقي: الواو بين العطف والتعليق 127

1. أهمّ مميّزات علاقة العطف والإستئناف 127

2. الفرق بين العطف والتعليق 128

3. الواو واستعمالاتها 129

الخاتمة 139

ثبت بالمصطلحات 145

قائمة المصادر والمراجع 157

المرجع الرئيسي 157

المراجع العربيّة 158

المراجع الأجنبيّة 158

lisanarabs.blogspot.com
أ. علاء الدين شوقي
lisanarabs.blogspot.com